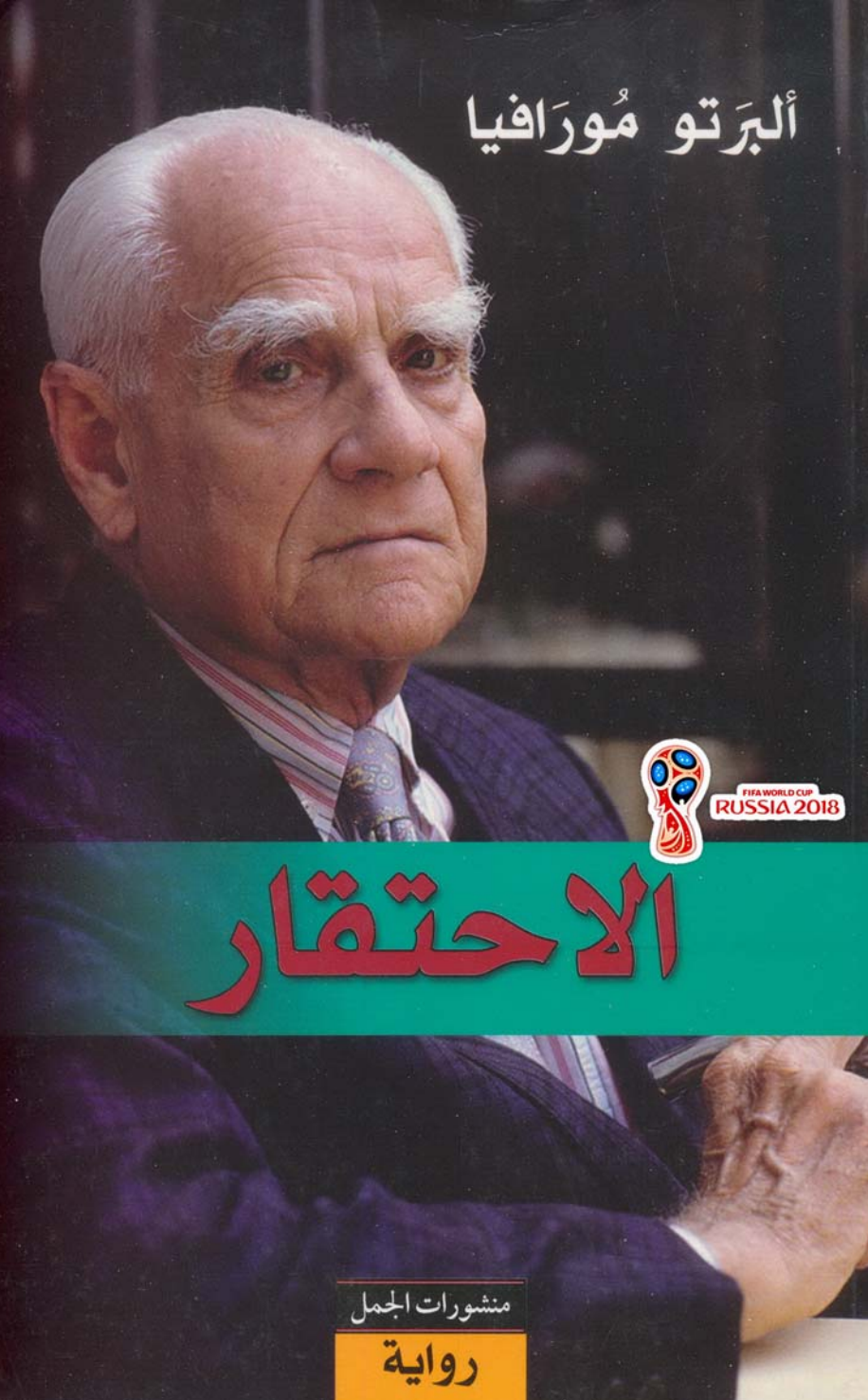

ألبَرتو مُورَافيا

الاحتقار

منشورات الجمل

رواية

ألبَرتو مُورَافيا

الاحتقار

منشورات الجمل

البَرتو مُورَافيا: الاحتقار

ألبَرتو مُورَافيا: الاحتقار، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت ـ بغداد ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Alberto Moravia: Il disprezzo, 1954
©1954-2015 Bompiani/RCS Libri S.p.A. - Milan

©*Al-Kamel Verlag 2017*
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصلُ الأول

أستطيع اليوم أن أؤكد أن علاقتي بزوجتي، خلال العامين الأولين من زواجنا، كانت ممتازة. أعني أن انسجام حواسنا الكامل والعميق طوال هذين العامين، كان مصحوباً بهذا الإظلام، أو بعبارة أفضل، بهذا الصمت للذهن الذي يعلّق، في مثل هذه الظروف، كل نقد، ويلجأ إلى الحب وحده ليحكم على الشخص المحبوب. لقد كانت أميلي تبدو لي بلا نقائص على الإطلاق، وأظن أني كنت أبدو كذلك في نظرها. أو أنني ربما كنت أرى عيوبها وترى عيوبي، ولكن بفضل تحوّل عجيب معزوّ إلى الحب، كانت تلك العيوب تبدو لنا كلينا مغتفرة، بل محبوبة، كما لو أنها بدلاً من أن تكون نقائص، كانت مزايا من نوع خاص. وبالاختصار: لم يكن أحدنا يحكم على الآخر: كنا متحابّين. وغرض هذا الكتاب أن يروي كيف أن أميلي، بينما كنت مستمراً في حبها وفي عدم الحكم عليها، اكتشفت على العكس، أو ظنّت أنها تكتشف عدداً من عيوبي، فحكمت عليّ، وبالتالي كفّت عن أن تحبني.

إن المرء بقدر ما يزداد سعادة يقلّ اهتمامه بسعادته. ومن الممكن أن يبدو غريباً أنني خلال هذين العامين، داخلني حتى الإحساس بأني كنت أعاني السأم. أجل، أنني لم أكن أحسّ بسعادتي. فإذ كنت أحب زوجتي وكنت محبوباً منها، كنت أحسب أني أفعل كالجميع؛ وكان

هذا الحب يبدو لي واقعة مشتركة، عادية، من غير أن يكون فيها شيء ثمين بصورة خاصة، كالهواء الذي نتنشقه والذي ليس هو عظيماً ولا يقدر بثمن إلا حين نفتقده. وفي ذلك الحين، لو نبهني أحدٌ إلى أنني كنت سعيداً، لاستغربت، ولأجبت، على الأرجح، بأني لم أكن أملك السعادة، لأنني إذ كنت أحب زوجتي وتستجيب هي لحبي، لم أكن أملك طمأنينة الغد.

وكان هذا صحيحاً، فقد كنا لا نكاد نقوم بأودنا من مهنتي العاقة كناقد سينمائي في جريدة يومية من الدرجة الثانية، ومن أعمال صحفية من الطراز نفسه. كنا نعيش في غرفة مؤثثة تابعة لمؤجر شقق مفروشة؛ وكان المال غالباً ما ينقصنا للنفقات الإضافية، وحتى أحياناً للضروري. فأنى لي، والحالة هذه، أن أكون سعيداً؟ والواقع أني لم أشكُ من وضعي كما كنت أشكو في تلك الفترة. التي كنت فيها ـ كما استطعت أن أدرك ذلك فيما بعد ـ سعيداً غاية السعادة وأعمقها.

وفي نهاية هذين العامين من حياتنا الزوجية، تحسنت ظروف حياتنا في آخر المطاف. فقد تعرفت على باتيستا، وهو منتج أفلام، وكتبت لحسابه السيناريو الأول الذي وضعته، وهو عمل كنت اعتبره آنذاك موقتاً، ثم أصبح على العكس مهنتي. على أن علاقاتي بأميلي، في الفترة نفسها، بدأت تتغير على نحو مؤسف. والحق أن حكايتي تبدأ تماماً بأول عهدي بمهنتي كمؤلف سيناريو، وبالبرود الأول في علاقاتنا الزوجية، وهما حدثان متعاصران تقريباً، وسنرى في ما بعد أنهما على صلة مباشرة في ما بينهما.

وإذا ارتدّت ذاكرتي إلى مجرى الزمن، يخيّل إليّ أني أحتفظ بذكرى مشوشة لحادث بدا لي ساعة وقوعه تافهاً، ولكنه حمل في ما بعد أهمية حاسمة بالنسبة لي.

إنني أتمثلني على رصيف شارع من شوارع وسط المدينة. وكنا، أنا وأميلي وباتيستا، قد تناولنا العشاء في المطعم، وقبلنا اقتراح باتيستا بإنهاء السهرة في بيته. وها نحن الثلاثة أمام سيارة باتيستا، وهي سيارة حمراء أنيقة مترفة، ولكنها ضيقة وذات مقعدين فقط. وجلس باتيستا أمام المقود، ثم انحنى وفتح الباب وهو يقول:

- آسف يا مولتيني، ليس لديّ إلا مقعد واحد.. فعليك أن تصل إلى بيتي بوسائلك الخاصة... إلا إذا كنت تفضل أن تنتظرني هنا؛ ففي هذه الحالة، سأعود لاصطحابك.

وكانت أميلي إلى جانبي، وهي ترتدي ثوباً من الحرير الأسود، عاري الكتفين وبلا أكمام، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه، وكانت تحمل على ذراعها معطفها الفرو وكنا في شهر تشرين الأول، وكان الجو ما يزال حاراً. وقد نظرت إليها، فلاحظت، ولا أدري السبب، أن جمالها المطمئن الهادئ في العادة قد تعكر بحيرة وقلق، بنوع من الاضطراب الغريب. وقلت بمرح:

- اذهبي إذن يا أميلي مع باتيستا.. وسألحق بكما في سيارة أجرة.

فنظرت إليّ أميلي، ثم أجابت بلهجة مغتصبة:

- أليس من الأفضل أن يسبقنا باتيستا، وأن نستقل نحن الاثنين سيارة أجرة؟

وهنا أخرج باتيستا رأسه من باب السايرة وهتف مازحاً:

- هذا لطيف! إنكما تريدان أن تتركاني وحدي؟...

فأجابت أميلي:

- لا، ولكن...

ولاحظت فجأة أن وجهها الجميل، الهادئ المنسجم عادة، قد

أظلم وبدا متحللاً ببلبلة تكاد تكون مؤلمة. ولكني كنت قد نطقت بعبارتي:

- إن باتيستا على حق، فهيا، اذهبي معه. وأنا سآخذ سيارة. إنني إذ أكتب هذه السطور، يعاود ذاكرتي إحساس جديد: فعندما جلست زوجتي إلى جانب باتيستا، وكان الباب ما يزال مفتوحاً، رمتني بنظرة تحمل في وقت واحد التردد والرجاء والانزعاج. وقد تجاهلتُ ذلك، وأغلقت الباب الثقيل، بالحركة العازمة نفسها التي يغلق بها المرء خزنة حديدية. وأقلعتُ السيارة. فاتجهتُ إلى أقرب محطة لسيارات الأجرة، وأنا أرسل من بين شفتي صفيراً فرحاً.

ولم يكن بيت المنتج بعيداً عن المطعم؛ وكان المفروض أن أصل بعد باتيستا تواً، إن لم يكن في الوقت نفسه. ولكن حادث اصطدام وقع وأنا في منتصف الطريق، عند أحد المفارق. فقد تصادمت السيارة التي أستقلّها مع سيارة خاصة، فأصيبتا كلتاهما بأضرار: جُلِفَ جناح التاكسي وسُطّح، بينما تضرر باب السيارة الأخرى. وترجّل السائقان وتجابها وتناقشا، ثم تشاتما؛ وأسرع الناس إليهما، وتدخل شرطي ليفصل بينهما في مشقة، ثم أخذ اسميهما وعنوانيهما. وفي هذه الأثناء، ظللت أنتظر في السيارة من غير نفاد صبر، تكاد تغمرني الغبطة، لأني كنت قد أكلت وشربت جيداً، وكان باتيستا قد عرض عليّ في نهاية العشاء أن أشارك في سناريو فيلمه. وفي هذه الأثناء، كان الحادث وما تلاه من مناقشات قد استغرق من عشر دقائق إلى ربع ساعة، فوصلت منزل المنتج متأخراً.

وإذ دخلت غرفة الاستقبال، رأيت أميلي جالسة على أريكة، مشتبكة الساقين، وباتيستا واقفاً في ركن من القاعة، أمام بار نقّال. وقد حيّاني بجذل؛ أما أميلي فقد سألتني بلهجة شاكية، شبه مبتهلة،

عما فعلته طوال هذا الوقت. وقد أجبت في استخفاف بأنه قد حصل لي حادث صغير. وأحسست أنني أتكلم على نحوٍ هروبي، كما لو كان لديّ ما أخفيه. والواقع أني لا أعلّق أية أهمية على أقوالي. ولكن أميلي ألحّت، باللهجة الفريدة نفسها:

ـ حادث؟ أي حادث؟

فدهشت لذلك، بل تنبهت. ورويت ما حدث. غير أني أعطيت هذه المرة أكثر مما ينبغي من التفاصيل: فكأنني كنت أخاف ألا أُصدَّق. وأدركت أخيراً أني كنت أخرق، سواء بإيجازي الأول أم بتفاصيلي الدقيقة الثانية. ولكن أميلي لم تلح، ووضع باتيستا، وهو يفيض وداً وابتسامات، ثلاثة أقداح على الطاولة ودعاني إلى الشرب. وجلست، ومرت ساعتان ونحن نثرثر ونتبادل المزاح، ولا سيما أنا وباتيستا. وكان هو من فرط الجذل والتدفق بحيث لم ألاحظ تقريباً أن أميلي لم تكن كذلك. والحق أنها، لحيائها، ذات طبيعة أقرب إلى الصمت والانغلاق، ولهذا لم أدهش لتحفُّظها. على أني مع ذلك استغربت بعض الشيء ألا تشاركنا حديثنا، على الأقل بالبسمة والنظرة، على مألوف عادتها: إنها لم تبتسم، ولم تولنا نظرة، واكتفت بأن تدخن وتشرب في صمت، كما لو أنها كانت وحدها.

وفي آخر السهرة، حدثني باتيستا حديثاً جدياً عن الفيلم الذي ينبغي أن أشترك فيه، فروى لي موضوعه، وأعطاني معلومات عن المُخرج وعن زميلي السيناري، وانتهى بدعوتي إلى زيارته في مكتبه في اليوم التالي لتوقيع عقدي. وانتهزت أميلي فرصة لحظة الصمت التي تبعت هذه الدعوة لتنهض وتقول إنها متعبة وإنها راغبة في الغدوة إلى البيت. فاستأذنّا باتيستا في الذهاب وهبطنا.

وحين خرجنا إلى الشارع، مشينا من غير أن نتبادل كلمة حتى

محطة السيارات، فاستقللنا سيارة انطلقت بنا. وكنت قد جُننت فرحاً من اقتراح باتيستا الذي لم أكد آمله، ولم أستطع الامتناع عن أن أقول لأميلي:

- إن هذا السيناريو يأتي في أوانه!... فلست أدري كيف كنا نستطيع الاستمرار في الحياة... كنت سأجبر على اللجوء إلى الاستدانة.

وجواباً على ذلك، اكتفت أميلي بأن سألتني:

- ما هو التعويض الذي يُدفع لقاء وضع سيناريو؟

فذكرت لها رقماً وأضفت:

- ها هي مشكلاتنا قد حُلّت، لهذا الشتاء على الأقل.

وفي الوقت نفسه، بحثت يدي عن يد أميلي فضمّتها. وتركتني أفعل، ولم تنطق بعد ذلك بكلمة حتى بلغنا البيت.

الفصل الثّاني

بعد تلك الأمسية، جرى كل شيء على ما يرام، بالنسبة لعملي. ففي اليوم التالي قصدت مكتب باتيستا، فوقّعت العقد وقبضت سلفتي الأولى من أصل تعويضي. وكانت القضية، إذا لم تخني الذاكرة، قضية فيلم قليل الأهمية، من النوع الكوميدي ـ العاطفي، وهو نوعٌ لم أكن أعتقد أنه ينسجم مع فكري الجاد، ولكنه في أثناء العمل كشف لديّ، بعكس ذلك، موهبة لا شك فيها. وفي اليوم نفسه، اجتمعت أول اجتماع بالمخرج وبالسيناريّ الآخر.

وفيما يمكنني أن أورّخ تأريخاً دقيقاً بدء عملي كسيناري، أقصد الأمسية التي قضيناها لدى باتيستا، يصعب عليّ كثيراً أن أحدد بالدقة نفسها الوقت الذي بدأت فيه علاقاتي مع زوجتي تتسمم. إن بإمكاني طبعاً أن أعود بذلك إلى الأمسية نفسها، ولكن ذلك سيكون بمثابة حكم أكيد، كما يقال، لا سيما أن أميلي لم تُظهر، طوال فترة أخرى من الزمن، أي تغيّر في مسلكها معي. ومن المؤكد أن هذا التغيّر قد تحقق خلال الشهر الذي تبع تلك الأمسية العتيدة، ولكني لا أستطيع أن أحدد حقاً في أية لحظة اهتزّت كفتا الميزان في نفس أميلي، ولا الذي سبّب انقطاع التوازن ذاك.

كنا في تلك الفترة نرى باتيستا يومياً، على وجه التقريب، وبوسعي أن أروي بتفاصيل كثيرة فصولاً أخرى شبيهة بالفصل الذي

سبق أن ذكرت، وهي فصول لم تتميز بشيء، في نظري على الأقل، عن اللون العام في حياتي، ولكنها اكتسبت، فيما بعد، بروزاً ومعنى خاصين. وأود فقط أن أسجل أمراً: ففي كل مرة كان باتيستا يدعونا فيها ـ وكان ذلك غالباً ما يحدث الآن ـ كانت أميلي تُظهر بعض الاستياء في أن تصحبني. صحيح أن مقاومتها لم تكن قوية ولا مصممة، ولكنها كانت ثابتة ثباتاً غريباً في تعبيراتها وتبريراتها. فلكي لا تصحبنا كانت دائماً تجد عذراً ما لا علاقة له ألبتة بباتيستا، وكنت أدلل لها دائماً في يُسر أن عذرها كان واهياً، وكنت ألح لكي أعرف إذا لم يكن العذر الحقيقي كراهية لباتيستا، وكانت في كل مرة تجيب على سؤالي، بظل من التبرّم، أنها لم تكن تكره باتيستا، وأنها ليس لديها ما تؤاخذه عليه، وأنها إنما كانت ترغب ألا تخرج معنا، لأن هذه الأمسيات كانت تتعبها، وكانت في الحقيقة تسئمها ولم أكن أكتفي بهذه التفسيرات الغامضة، وكان يتفق لي غالباً أن أومئ إلى أن شيئاً ما لا بد أن يكون قد حدث بينها وبين المنتج، حتى من غير أن يكون هذا الأخير قد أراد ذلك أو أحس به. ولكني كلما ازددت محاولة لإقناعها بأنها لا تكنّ الودّ لباتيستا، بدت أميلي أشد تشبثاً في إنكاراتها: كان تبرمها ينتهي بالزوال تماماً ليخلف عناداً وتصميماً شديداً. وإذ كنت أطمئن كل الاطمئنان إلى عواطفها تجاه باتيستا وإلى مسلك هذا تجاهها، كنت أحرص على أن أفسر الأسباب التي تجيء في صالح مشاركتها إيانا في أمسياتنا، فحتى ذلك الحين، لم أكن قد خرجت قط بدونها، وكان باتيستا يعرف ذلك... كان يسرّه أن يراها، لأنه لم يكن ينسى قط أن يوصيني كلما دعاني بقوله:

ـ إنك بالطبع ستصحب زوجتك...

وكان يمكن اعتبار هذا الغياب اللامنتظر والذي يصعب تفسيره

احتقاراً أو حتى إهانة نحو باتيستا الذي كانت حياتنا متوقفة عليه بعد الآن... وبالإجمال، لما لم تكن قادرة على أن تقدم لي سبباً منطقياً لغيابها، ولما كنت بالمقابل قادراً على أن أقدِّم أسباباً عديدة وممتازة لحضورها، فقد كان من الحكمة أن تتحمل التعب والسأم اللذين كانت هذه الأمسيات تُنتجانهما.

وكان من عادة أميلي أن تصغي إلى حججي بتنبه حالم، مستغرق تقريباً، فكأنها كانت مهتمة ببراهيني أقل من اهتمامها بوجهي وحركاتي. ثم إن الأمر كان ينتهي بها دائماً إلى الاستسلام لرأيي، وتبدأ في صمت بارتداء ثيابها تمهيداً للخروج. وعند لحظة الذهاب، إذ تكون قد أصبحت مستعدة، كنت أسألها مرة أخيرة إن كان لا يُضجرها حقاً أن تصحبني، لا لأني كنت واثقاً من جوابها، بل لأني لم أكن أريد أن أترك لها شكاً بشأن حريتها في التصرف. وكانت تجيبني جواباً قاطعاً بأن ذلك لم يكن يزعجها، فكنا نخرج آنذاك.

لقد سبق أن قلت إنني بنيت هذا كله من جديد فيما بعد وأنا ألتمس التماساً دائباً في ذاكرتي أثر وقائع كانت تافهة آنذاك وقد حدثت في حينها من غير أن تسترعي انتباهي. وكل ما لاحظته في تلك الفترة هو تغير مزعج في مسلك أميلي نحوي، من غير أن أستطيع تفسيره أو تعريفه على أيّ نحو: هكذا يتنبأ المرء باقتراب العاصفة في سماء ما تزال صافية من مجرد تغير الجو وتثاقله. وقد أخذت أفكر بأن زوجتي كانت تحبني أقل من السابق لأني لم أعد أجدها قلقة على ألا تتركني كما كان يحدث في العهود الأولى من زواجنا. فإذا كنت أقول لها آنذاك:

- اسمعي، إن عليّ أن أخرج، وسأتغيب ساعتين، ولكني سأعود بأقرب وقت ممكن...

لم تكن لتحتجّ، مستسلمة، ولكن وجهها الذي كان يغشاه الظلّ كان ينمّ عن الأسى الذي تخلّفه غيبتي. حتى إني غالباً ما كنت أعدل عن الخروج، وأتحرر كما أستطيع من موعدي المضروب، أو أنني كنت، إذا استطعت، أصحبها معي. وقد كان تعلقها شديداً جداً حتى إني ذات يوم وقد صحبتني إلى المحطة التي كنت أغادرها في رحلة قصيرة إلى إيطاليا الشمالية، رأيتها في لحظة الوداع تدير رأسها لتخفي الدموع التي كانت تملأ عينيها. وفي تلك المرة، تظاهرت بأني لم ألاحظ حزنها، ولكني طوال الرحلة احتفظت بالندم من تلك الدموع المخبأة التي لم تكن قابلة للقهر، ومنذ ذلك الحين كففت عن السفر بدونها.

أما الآن، فإذ أبلّغها نبأ سفرٍ ما، فإنها بدلاً من أن أرى وجهها الحبيب تغشاه غشاوة خفيفة من الانزعاج والحزن، تكتفي بأن تجيبني في هدوء، وغالباً من غير أن ترفع عينيها عن الكتاب الذي تقرأ فيه:

- حسناً... سنلتقي ثانية عند العشاء، فلا تتأخر.

بل كانت تبدو أحياناً وكأنها راغبة بأن تمتد غيبتي إلى ما بعد توقعي. كنت أقول لها مثلاً:

- عليّ أن أخرج، وسأعود في الساعة الخامسة.

فتجيبني:

- ابق في الخارج ما حلا لك، فلديّ، من جهتي، ما أعمله.

وذات يوم نبهتها بلهجة خفيفة إلى أنها تبدو وكأنها تفضل غيابي؛ ولكنها أجابتني في حيوية بأني ما دمت على نحو أو آخر مشغولاً معظم النهار في الخارج، فقد كان يجب علينا أن نكتفي باللقاء في ساعة الغداء أو العشاء، وسيكون بوسعها هكذا أن تنصرف بهدوء إلى

أعمالها... ولم يكن هذا صحيحاً إلا بنسبة النصف: فإن عملي كسيناري لم يكن يجبرني على الخروج إلا بعد الظهر، وكنت حتى ذلك الحين قد تدبرت أمري دائماً بحيث أقضي مع زوجتي بقية النهار. غير أنني، منذ تلك اللحظة، أخذت أخرج كذلك في الصباح.

وفي العهد الذي كانت أميلي تبدي فيه استياء من غيابي، كنت أتركها خفيف القلب، مسروراً حقاً بهذا الاستياء كما لو أنه برهان إضافي على الحب العظيم الذي كانت تحمله لي. ولكن منذ أن لاحظت أنها لم تكن تكتفي بعدم إظهار أي حزن، بل كانت تبدو وكأنها تفضل وحدتها، بدأت أستشعر ضيقاً أصم، كمن يحس الأرض تميد تحت قدميه. كنت أخرج الآن كل صباح، كما سبق أن ذكرت، بالإضافة إلى خروجي بعد الظهر لأجل عملي، وذلك لا لغاية أخرى إلا لأتثبت من لامبالاة أميلي الجديدة، تلك اللامبالاة التي كانت شديدة المرارة بالنسبة لي. إنها لم تكن تُظهر بعدُ أي انزعاج، بل كانت تقرّ غيابي بكل وداعة بل ربما بعزاء لم تكن تُحسن إخفاءه، على ما بدا لي. وسعيت أول الأمر إلى أن أتعزى من هذه البرودة بإقناع نفسي بأن الحب، مهما كان رقيقاً، يُحل محله العادة بعد عامين من الزواج، وأن وثوق كل من الزوجين من أنه محبوب من الآخر، ينزع من الحب أي طابع حماسي في علاقات هذين الزوجين. ولكني كنت أشعر بأن ذلك لم يكن صحيحاً؛ كنت أشعر بهذا أكثر مما كنت أفكر به، لأن الفكرة في دقتها الظاهرة أكثر قابلية للخطأ من الإحساس الغامض المعتكر.

وإذن، فقد كنت أحس بأن أميلي قد كفت عن الشكوى من تغيبي، لا لأنها كانت تعتبره لازماً ولا مفر منه وليس له من تأثير على

صميميتنا، بل لأنها كانت تحبني أقل من ذي قبل، أو كانت لا تحبني بعد.

ومع ذلك، فلا بد أن يكون قد حدث شيء ما قد غيَّر عاطفتها التي كانت من قبل ملتهبة جارفة.

الفصل الثّالِث

في الفترة التي لقيت فيها باتيستا للمرة الأولى، كنت في وضع على غاية الصعوبة، إذا لم أصفه بأنه موئس، ولم أكن أدري كيف أخرج منه. وكانت مصاعبنا تكمن في أني كنت قبل ذلك بردح من الزمن قد اشتريت شقّة بالتقسيط، من غير أن أملك المبلغ الإجمالي الضروري، ومن غير أن أعرف الطريقة التي بها أستطيع أن أحصل على المبلغ. وكنا خلال عامين قد سكنّا غرفة كبيرة مؤثثة في بيت مفروش. وقد كان جديراً بامرأة غير زوجتي أن تشكو من إقامة موقتة كهذه الإقامة؛ أما أميلي، فأعتقد أنها إذ قبلتها، قد قدَّمت لي أنصع دليل حبّ تستطيع امرأة أن تعطيه زوجها. والحق أن أميلي كانت نموذج ربة البيت، وقد كان في حبّها لبيتها أكثر من الميل الطبيعي المشترك بين جميع النساء، شيء أشبه بهوس عميق. نوع من النهم الذي كان يتجاوز شخصها ويبدو وكأن له أصلاً عريق القِدم. كانت أسرتها فقيرة. وكانت هي نفسها، حين تعرفت عليها، ضاربة على الآلة الكاتبة. وأعتقد أنه كان في حبها ذاك لبيتها تعبير غير واعٍ للأماني المكتوبة التي يُحس بها الأشخاص المحرومون من الإرث، العاجزون أبداً عن امتلاك مسكن لهم، مهما بلغ من التواضع. ولست أدري إن كانت أميلي، حين تزوجتني، قد راودها وهمُ تحقيق آمالها البورجوازية، ولكني أذكر أن من المرات النادرة التي رأيتها تبكي فيها

هي حين اعترفت لها، بعد خطوبتنا بقليل أني لم أكن أملك وسائل تقديم مسكن لها، حتى بالأجرة، وأن علينا في البدء أن نكتفي بغرفة مفروشة. وكانت تلك الدموع، التي سارعت بوضع حدٍّ لها، تعبر، كما بدا لي، عن خيبة مريرة من أن ترى حلماً كان قد راودها طويلاً يُرجأ إلى المستقبل، كما تعبر عن قوة هذا الحلم الذي أصبح في نظرها أشبه بمبرّر للحياة.

وإذن، فقد عشنا خلال هذين العامين في غرفة مفروشة؛ ولكن أيّ نظام دقيق وأية نظافة أشاعت أميلي فيها! كان المرء يشعر أنها كانت تعمل في حدود الممكن ـ وقد كانت هذه الحدود ضيقة في غرفة مفروشة ـ لمنح نفسها وهم التملّك. وبسبب من نقص الأثاث الشخصي، كانت تريد على الأقل أن تضفي على هذا الأثاث البائس روحَها البيتية المنظمة. كان مكتبي مزداناً دائماً بالزهور؛ وكانت أوراقي مرتبة في حبّ، وموضوعة بشكل موحٍ كما لو أنها تدعوني إلى العمل وتؤمّن لي الحد الأعلى من الصميمية والطمأنينة؛ ولم تكن طاولة الشاي الصغيرة لتفتقر قطّ إلى خوان أو علبة بسكوت. ولم يكن أي ثوب أو حاجة أخرى ملقاة على الأرض أو على كرسي، كما نرى غالباً في المساكن الضيقة المؤقتة. لقد كانت أميلي، بعد ضربة المكنسة الأولى لربة البيت، تُخضع الغرفة لتنظيف آخر، أطول وأدقّ، ليصبح كل شيء لمّاعاً حتى ليستطيع المرء أن يتمرّى فيه، بما في ذلك قبضة النافذة النحاسية وأقلّ قطعة خشبية من الأرض. وفي المساء كانت هي نفسها من تريد أن ترتب الأغطية، فتضع قميصها في جهة، ومنامتي في جهة أخرى، وتنظم وسادتينا التوأمين. وكانت أول من يستيقظ صباحاً، فتذهب لإعداد الفطور في مطبخ مؤجرنا وتحمله لي بنفسها على طبق. وقد كانت تقوم بهذه الأمور جميعاً في صمت، من

غير أن تثير التنبّه، ولكن في تركيز وعناية مدروسة. ومع ذلك، فإن الغرفة المفروشة، رغم جهودها المؤثرة، كانت تظل غرفة مفروشة، ولم يكن الوهم الذي كانت تسعى إلى اكتسابه وإلى إكسابي إياه، كاملاً أبداً. وإذ ذاك، بين الفينة والفينة، في لحظات التعب والاستسلام، كانت تشكو. صحيح أنها كانت تشكو بتلك العذوبة وتلك الدعة اللتين هما طبعها العميق، ولكنها كانت تشكو كذلك بمرارة واضحة، وهي تسألني إلى متى يظلّ هذا الطراز من الحياة المؤقتة الوضيعة. وقد كنت أحسّ في تلك الرغبة المعبَّر عنها باعتدال ألماً حقيقياً، فأعاني من التفكير بأنّ عليّ عاجلاً أو آجلاً أن أُحققها لها.

وقررت أخيراً، كما ذكرت، أن أشتري شقّة؛ ولم أكن بالتأكيد أملك الوسائل الضرورية لذلك، ولكنني كنت أدرك أن أميلي كانت تتألم، وأنه قد يأتي يوم ينفد فيه صبرها. وكنت قد وضعت في هذين العامين، بعض المال جانباً؛ واستطعت من جهة أخرى أن أستدين مبلغاً أتاح لي أن أدفع القسط الأول. وإذ فعلت ذلك، لم أكن أحسّ بالشعور اللذيذ الذي يحس به رجلٌ يؤمّن منزلاً لزوجته الشابة: كنت قلقاً بل كنت أعاني الضيق أحياناً، لأني لم أكن أتصور على الإطلاق كيف سأتدبر الأمر بعد بضعة شهور، حين يستحق دفع القسط الثاني. وكان يتفق لي أن أكون من شدة اليأس بحيث كنت أحس ما يشبه الحقد على أميلي التي كانت حماستها الدابة قد أجبرتني على أن أتصرف تصرفاً غير حكيم.

على أن فرحة أميلي الكبرى لدى إعلان نبأ هذا الشراء، وفيما بعد العواطف الغريبة بنوعها وكثافتها والتي أبدتها أول مرة زرنا فيها الشقة التي كانت ما تزال خالية، كل ذلك جعلني أنسى ضيقي ردحاً

من الزمن. وقد سبق أن ذكرت أن حب أميلي لبيتها كان يتلبس جميع خصائص العاطفة المهووسة؛ وأضيف هنا أن هذه العاطفة قد بدت لي، في ذلك اليوم، مرتبطة ومختلطة بالشهوانية، كما لو أن منحي إياها شقة قد جعلني في عينيها، ليس أجدر بالحبّ وحسب، بل كذلك ـ وبمعنى جسدي ـ أقرب وأشد صميمية.

كنّا قد ذهبنا نرى الشقّة، فاكتفت أميلي أولاً بأن تعبر الغرف الباردة العارية، فيما كنت أشرح لها مهمة كل من هذه الغرف ومشاريعي المتعلقة بترتيبها. وكانت زيارتنا على وشك أن تنتهي حين اقتربت من إحدى النوافذ وفي نيتي أن أفتحها لأري زوجتي المنظر الذي تشرف عليه، ودنت أميلي فالتصقت بي، وطلبت مني بصوت خافت أن أعانقها. وكان هذا لديها، هي المتحفّظة عادةً والحيّية تقريباً في علاقاتنا الغرامية، أمراً جديداً غاية الجدّة. وهاجني هذا الجديد بالإضافة إلى رنّة صوتها، فضممتها كما كانت تطلب. ولكن فيما كانت قبلتنا تتعمق، وكانت من أرقّ قبلاتنا وأشدها التهاباً، شعرت بأن جسدها يزداد التصاقاً بجسدي، كما لو أنها كانت تدعوني إلى مزيدٍ من الصميمية. ثم نزعت تنورتها بحركة مفاجئة، وفكت أزرار قميصها وتمددت لصقي. وحين افترقت شفاهنا، تمتمت في أذني، في نَفَسٍ لم يكد يبين:

ـ خذني!

وكان ثقل جسدها كله يجرني نحو الأرض. وقمنا بفعل الحب على البلاط المغبر، تحت تلك النافذة التي أردت أن أفتحها. على أنني استشعرت في حميا تلك الضمة العجيبة شيئاً آخر غير الحب الذي كانت أميلي تُحسه في تلك اللحظة نحوي؛ كان يمتزج فيه كل اندفاع عاطفتها المكبوتة كربة بيت كانت تعبّر عن شعورها عبر شهوانية

غير مألوفة. كانت في تلك الضمة المستهلكة على الأرض المغبرة، في ظلٍ مثلوجٍ لغرفة ما تزال فارغة، إنما تستسلم للواهب، لا للزوج، وإن تلك الغرف العارية المصدية التي تحمل رائحة البرنيق والجص القريب العهد، قد حركت في أعمق أحشائها شيئاً لم تستطع أية مداعبة من مداعباتي حتى ذلك الحين أن توقظه.

وبين هذه الزيارة للشقة الفارغة ويوم انتقالنا إليها انقضى شهران درسنا خلالهما عقود البيع المصنوعة كلها باسم أميلي، لأني كنت أعلم أن ذلك كان يسرها، وجمعنا الأثاث القليل الذي مكنتني وسائلي المحدودة من شرائه. وإذ انقضى سروري الأول، كنت أحسني ـ كما سبق أن قلت ـ قلقاً من المستقبل، بل خامد الحمية في بعض الأوقات. كنت طبعاً أكسب ما يتيح لنا أن نعيش بتواضع وأدخر بعض المال جانباً؛ ولكن هذه التوفيرات لم تكن كافية لتسديد القسط التالي من ثمن الشقة. وكانت خيبتي من المرارة أني لم أكن أستطيع تخفيفها بمصارحة أميلي التي لم أكن أريد أن أفسد فرحتها. وإني لأذكر تلك الفترة كما لو أنها عهد من الضيق الشديد ومن الحب الناقص لزوجتي. ولم أكن أستطيع الامتناع عن التفكير بأنها لم تكن تهتم قط بمعرفة الطريقة التي أتمكن بها من الحصول على هذا المال كله، بالرغم من أنها عرفت وضعنا الواقعي معرفة عميقة. وكانت هذه الفكرة تؤلمني بغموض، وتوحي لي أحياناً ببعض الحنق إزاءها هي التي لم تكن الآن، في انهماكها وفرحها، تفكر إلا بالتنقل بين الحوانيت بحثاً عن أشياء تنقص البيت. وكانت تبلغني كل يوم، بأهدأ لهجة تملكها، عن أثاث جديد قد اشترته. وكنت أتساءل كيف أنها، هي التي تحبني ذلك الحب الكبير، لم تكن تحدس بالهموم الفظيعة التي كانت ترهقني. لقد كانت تفكر على الأرجح بأني ما دمت قد اشتريت تلك الشقة، فلا بد

أني تدبرت الأمر للحصول على المال اللازم. ولكن هدوءها وفرحها، المتناقضين مع ألوان قلقي البائسة، كانا يبدوان لي علامة أنانية، أو على الأقل علامة عدم التحسس.

كنت من شدة الانهماك والهم بحيث إن الصورة التي كنت أكوّنها عن نفسي قد تغيرت. كنت حتى ذلك الحين أعتبر نفسي مثقفاً، وكاتباً للمسرح، وهو نوع من الفن كنت قد غذّيت له دائماً حماسة كبيرة، وكنت أحسبي مرصوداً له. وهذه الصورة المعنوية، إذا صح التعبير، كانت تنعكس على صورتي الجسمية: فقد كنت أراني شاباً يشهد هزاله ونظره الحسير وعصبيته وامتقاعه وهيئته المهملة بالمجد الأدبي الذي كان ينتظره. ولكن هذه الصورة الملأى بالسحر والوعود انزاحت في تلك الفترة من حياتي لتحل محلها صورة أخرى مختلفة كل الاختلاف، هي صورة إنسان مسكين، مأخوذ أخذاً مأساوياً في شرك بائس، وهو لم يستطع أن يصمد لحبه لزوجته، فتصرف تصرفاً أعمى، وهو يوشك أن يضطر إلى التخبط فترة لا يعلم إلا الله مداها في أهوال الفاقة المميتة. وكنت أراني متغيراً، حتى جسدياً: إنني لم أكن بعد عبقري المسرح الشاب، الذي ما يزال مجهولاً، بل الصحافي الجائع، المحرر في المجلات والجرائد الثانوية؛ أو ربما ـ وهذا أسوأ ـ المستخدم المسكين في إحدى المؤسسات الخاصة أو الموظف في دائرة حكومية. كان ذلك الرجل يخفي عن زوجته، حتى لا يقلقها، همومه بالذات؛ وكان طوال النهار يعدو في المدينة بحثاً عن عمل لم يكن ليجده غالباً. أما في الليل، فقد كان يستيقظ مذعوراً وهو يفكر في ديونه. إنه بالإجمال لم يكن يفكر إلا في المال، ولا يرى غير المال. وربما كانت صورة كهذه مؤثرة، ولكنها بلا بهاء، ولا كرامة. إنها صورة بائسة، اصطلاحية، كتلك التي ترى في الكتب،

وقد كنت أكرهها، لأني كنت أتصور أني بمساعدة الزمن، وببطء وبلا إحساس، سينتهي بي الأمر إلى أن أشبهها. ولكن الأمر كان كذلك: إنني لم أتزوج امرأة تستطيع أن تشاركني أفكاري وميولي ومطامحي وتفهمها؛ وإنما كنت قد تزوجت ضاربة على الآلة الكاتبة، صحيح أنها جميلة، ولكنها غير مثقفة، وهي ممتلئة، على ما يخيل إلي، بجميع الأفكار المسبقة والأماني التي تتميز بها الطبقة المتحدرة منها. وقد كان من المستحيل معها أن أواجه شظف حياة فقيرة وبوهيمية، في مكتب أو غرفة مفروشة، بانتظار ألوان النجاح التي لا مفر من أن أصيبها في الكتابة للمسرح. بل لقد كان عليّ، بالعكس، أن أحصل لها على بيت أحلامها، حتى ولو اضطرني الأمر، كما فكرت في يأس، إلى التخلي عن مطامحي الأدبية الأثيرة.

وأسهم شيء آخر آنذاك في مضاعفة انطباع القلق والعجز تجاه مصاعبي المادية. وعلى غرار قضيب من الحديد يلين حين تمسه نار ملتهبة، كنت أحسّ روحي تلين وتنثني تحت الهموم التي كانت تتآكلها. وكنت أراقب في نفسي حسداً غير إرادي تجاه أولئك الذين لم يكونوا يعانون الهموم نفسها، تجاه الأغنياء وذوي الامتياز، وكان هذا الحسد مصحوباً رغماً عني بضغينة، ضغينة ليست موجهة نحو مواقف أو أشخاص بصورة خاصة، بل كانت تميل، كما بقوة لا تُقهر، إلى أن تتعمَّم وأن تتلبَّس السمة التجريدية لمفهوم معين للحياة. وبالإجمال، كنت أحسّ في تلك الأيام الشاقة، أن حنقي واشمئزازي من الحياة يصبحان رويداً رويداً ثورةً على الظلم الذي كنت ضحيته وكان ضحيته كثير من الكائنات الشبيهة بي. وهذا التحول اللامحسوس لمشاعري الشخصية إلى حالة نفسية وآراء عامة كنت أكشفه في أفكاري التي كانت تتخذ، دائماً ومن غير تغيير المجرى نفسه، وفي

كلامي الذي كان يعود أبداً إلى الموضوع نفسه. وكنت أحس في الوقت ذاته ودّاً متنامياً لهذه الأحزاب السياسية التي تعتز بمكافحة أمراض هذا المجتمع الذي انتهى بي الأمر إلى أن أنسب إليه آلامي. كنت أعتقد، وأنا أتأمل حالتي الخاصة، أنه مجتمع يترك لأفضل أبنائه أن يأسنوا فيه، ويحمي أسواهم!

إن تطوراً مثل هذا يجري لدى الأشخاص البسطاء اللامثقفين بصورة لاشعورية، في أعماق النفس المظلمة التي تتحول فيها الأثرة، بنوع من الكيمياء العجيبة، إلى إيثار، والحقد إلى حب، والخوف إلى شجاعة. أما بالنسبة لي، أنا الذي ألفت تحليل نفسي وتحديدها، فإن التطور كان من الوضوح وصفاء الرؤية كما لو أني كنت قد راقبته لدى إنسان آخر. ومع ذلك، فإني لم يكن يسعني الامتناع عن إطاعة تحديدات مادية متحيزة، وعن تحويل دوافعي الشخصية المحض إلى أسباب عامة. وخلافاً لكثير من الأشخاص، في تلك الفترة المضطربة لما بعد الحرب، لم أرد قط أن أدخل في أي حزب، لأنه كان يبدو لي مستحيلاً أن أشتغل في السياسة لأسباب ذاتية، بل بسبب اقتناع كنت أفتقده حتى ذلك الحين. وكنت منزعجاً بأن أحس أفكاري وأحاديثي ومسلكي تمضي بلا وعي نحو التهور، في مجرى مصالحي، مغيرة لونها وفق صعوبات اللحظة. وكنت أفكر في غيظ «بأني كنت مصنوعاً إذن كهذا الجمع كله، ويكفيني مثلهم أن تكون الجعبة فارغة لا حلم بالانبعاث الجديد للإنسانية؟»، ولكن هذا التبصُّر كان عاجزاً، وحدث أخيراً ذات يوم كنت أحسني فيه أكثر يأساً وأقل صموداً من المعتاد، أن أقنعني صديق كان يحوم حولي منذ حين، فتسجلت في الحزب الشيوعي. وما كدت أفعل ذلك حتى عاودني الشعور بأني تصرفت مرة أخرى، لا كالعبقري الشاب

المجهول، بل كالصحافي الجائع أو كالمستخدم الصغير الذي كنت أخشى أن أصبحه على مر الزمن. ولكن الأمر كان قد تمّ، فكنت عضواً في الحزب، وما كنت أستطيع أن أرجع القهقرى. وأذكر بالمناسبة أن استقبال أميلي لنبأ انضمامي للحزب كان ذا مغزى: «إنك لن تجد بعد الآن عملاً إلا عند الشيوعيين؛ أما الآخرون فسيقاطعونك»، ولم أملك الجرأة لأحدثها عن رأيي، أعني أني ما كنت على الأرجح لأنخرط في الحزب لو لم أصبح، من أجل إرضائها، مالكاً لهذه الشقة باهظة الثمن. ولم يتجاوز الأمر هذا الحد.

وانتقلنا في آخر الأمر، وفي اليوم التالي، بمصادفة بدت لي محاطة بالعناية الإلهية، التقيت باتيستا الذي عرض عليّ، كما سبق أن رويت، أن أعمل في سيناريو فيلمه. وتعزيت فترة من الزمن، وكنت مسروراً كما لم أكن منذ فترة طويلة؛ وكنت أؤمل أن أؤلف أربعة سيناريوات أو خمسة لأسدد ثمن الشقة ثم أعود بعد ذلك إلى الصحافة وإلى مسرحي المفضّل. وكنت قد استعدت حبي لأميلي أقوى من أي وقت مضى، بل كنت أحياناً أؤاخذ نفسي، في ندم عميق، أن أكون قد أسأت الظن بها يوماً إذ اعتبرتها أنانية وغير متحسسة. غير أن هذا الانقشاع كان قصير المدى. فإن سماء حياتي ما لبثت أن تلبَّدت. ولم يكن الأمر، في البدء، سوى غيمة صغيرة، ولكن ما كان أشد ظلامها!

الفَصل الرَّابع

تم لقائي مع باتيستا يوم الإثنين الأول من تشرين الأول. وبعد ذلك بأسبوع، كنا نقيم في منزلنا الجديد. ولم تكن هذه الشقة، التي هي سبب هذه المتاعب كلها، لا كبيرة ولا باذخة. كانت تتألف من غرفتين: قاعة جلوس واسعة، طويلة أكثر منها عريضة، وغرفة نوم لا بأس بمساحتها. وبالمقابل، كان الحمام والمطبخ وغرفة الخادمة صغيرة جداً، قاصرة كما في المنازل الحديثة على الحد الأدنى. وكان ثمة بالإضافة إلى ذلك علّية صغيرة بلا نافذة كانت أميلي تريد أن تجعل منها منشراً للغسيل. وكانت الشقة قائمة في الطابق الأخير من بيت ذي بناء حديث، بواجهة ملساء بيضاء كالطبشور، واقع في شارع صغير ذي انحدار خفيف. وكان يحف بالشارع، من جهة، صف من البيوت الشبيهة ببيتنا، ومن جهة أخرى سور لحديقة مقصورة كانت أشجارها الكبيرة الكثيفة تدلّي أغصانها إلى الخارج. وكان ذلك منظراً جميلاً، وكان بإمكاننا، كما قلت لأميلي، أن نتصور أن ليس ثمة ما كان يفصلنا عن تلك الحديقة التي كنّا نلمح هنا وهناك، عبر الأشجار، ممراتها المتعرجة وأحواضها ودوائرها، وسيكون بإمكاننا أن نتنزه فيها على هوانا.

وتسلمنا الشقة بعد الظهر؛ وكان لديّ عملٌ طول النهار، وقد نسيت أين تناولنا العشاء ومع من. وكل ما أذكره أني قرابة منتصف

الليل كنت واقفاً في وسط غرفة النوم، أنظر إلى نفسي في المرآة ذات الوجوه الثلاثة وأحلّ ربطة عنقي. وفجأة، رأيت في المرآة أن أميلي تتناول وسادة من على سريرنا وتتوجه نحو غرفة الاستقبال، فسألتها مندهشاً:

- ماذا تفعلين؟

تكلمت من غير أن أتحرك، فرأيتها عبر المرآة كذلك تتوقف عند العتبة وتلتفت وهي تقول بلهجة بسيطة:

- لن يغضبك أن أنام هناك على الديوان؟

فقلت مذهولاً، غير فاهمٍ بعد:

- هذه الليلة؟

فأجابت بسرعة:

- لا، بل دائماً، ابتداء من الآن. والحقيقة أني من أجل هذا كنت أرغب في تغيير المسكن... إنني لا أريد بعد أن أنام والنافذة مفتوحة، كما تريد أنت... إنني كل صباح أستيقظ على صياح الديك، فلا أستطيع أن أعود إلى النوم، وأظل طول النهار مملوءة الرأس بالنعاس... قل لي، إن ذلك لا يغضبك؟... إنني أعتقد أن من الأفضل أن ينام كلّ منا على حدة...

كنت مشدوهاً، ولم أحس في البدء إلا غضباً غامضاً أمام هذا التدبير الجديد غير المنتظر. وقلت لأميلي:

- ولكن هذا مستحيل... ليس لدينا إلا غرفتان، وسريرنا في هذه، وفي تلك الأرائك والديوان... فأية فكرة! إن النوم على الديوان، حتى ولو غيرت شكله، غير مريح إطلاقاً.

فقالت وهي تخفض عينيها من غير أن تنظر إلي:

- إنني لم أملك قط الجرأة على أن أقول لك هذا...

فألححت بقولي:

- إنك حتى الآن لم تعلني أية شكوى... وقد كنت أحسب أنك تعودت...

فرفعت رأسها وقد سرّها، كما بدا لي، أن تحرف حجّتُها الحديث:

- إنني لم أتعود قط، بل كان نومي مؤرقاً دائماً... وفي هذه الفترة الأخيرة، لم أكن أنام تقريباً، ربما لأن أعصابي ثائرة... ليتنا على الأقل ننام باكراً... ولكن الذي يحدث هو العكس، لهذا السبب أو ذاك.

وقطعت كلامها، ثم خطت خطوة نحو غرفة الاستقال، فأمسكتها وقلت لها بكل سرعة:

- انتظري، إن بوسعي إذا شئت، أن أعدل عن النوم والنافذة مفتوحة... لقد اتفقنا... فابتداء من اليوم، سنغلق النافذة.

ولم يكن هذا العرض من جهتي هزيمة ودودة فحسب، فالواقع أني كنت أريد أن أضع أميلي في التجربة. وقد رأيتها تهز رأسها وتجيب ببسمة خفيفة:

- ولكن لا... لماذا تتحمل هذه التضحية؟ لقد قلت لي إنك كنت تختنق حين تكون النافذة مغلقة.. فمن الأفضل أن ننفصل ليلاً.

- أؤكد لك أن هذه ستكون تضحية صغيرة جداً... سوف أعتاد.

فبدت مترددة، ثم قالت بتصميم لم أكن أتوقعه:

- لا، إنني لا أريد أية تضحية، لا كبيرة ولا صغيرة... سأنام في غرفة الاستقبال.

- وإذا قلت أنا لك إن هذا يسؤوني، وإني أريد أن أنام معك، فترددت من جديد، ثم قالت بلهجة مصالحة:

- هل ترى كيف أنت، يا ريشار؟ إنك لم ترد أن تقوم بهذه التضحية منذ عامين، حين تزوجنا... وها أنت الآن تريد أن تقوم بها بأي ثمن... فماذا يمكن أن يؤثر ذلك عليك؟ إن هناك كثيراً من الأزواج ينامون منفصلين، من غير أن يضعف الحب بينهم.. وستكون أوفر حرية في الصباح لتذهب إلى عملك، فلا توقظني بعد...
- ولكنك زعمت أنك تستيقظين دائماً على صياح الديك... وأنا لا أذهب في تلك الساعة!

فانفجرت في نبرة نافذة الصبر:

- أوه! كم أنت عنيد!

وخرجت من الغرفة، من غير أن تصغي إلي أكثر من ذلك.

وبقيت وحدي، جالساً على السرير الذي كان، بوسادته الوحيدة، قد بدأ يوحي بالفراق والهجر، وظللت حالماً أنظر بشرود إلى الباب المفتوح الذي خرجت منه أميلي. وخطر لذهني سؤال: «إذا لم تكن أميلي تريد أن تنام معي بعد، أبسبب ضوء النهار الذي يزعجها، أم لأنها ببساطة لم تكن تريد بعد أن تقاسمني فراشي؟»، وكنت أميل إلى الفرض الثاني، بالرغم من أني أردت من صميم قلبي أن أعتقد بالفرض الأول. وكنت أقول لنفسي إني حتى ولو كنت أقبل تفسير أميلي، فسيبقى لي نوع من الشك. ومن غير أن أصارح نفسي، كان السؤال النهائي: «أتكون زوجتي قد كفّت عن حبي؟».

وفيما كنت مستغرقاً في أفكاري، تاركاً عيني تزوغان في الغرفة، كانت أميلي تروح وتجيء، حاملة إلى غرفة الاستقبال الوسادة وزوجاً من الشراشف المطوية سحبته من الخزانة، وغطاء، وثوب نومها، وكنّا في مطلع تشرين الأول، ولما كانت الحرارة لطيفة، فقد كانت أميلي تتجول في البيت بثوب شفاف.

إنني لم أصف أميلي بعد، وسأفعل الآن ذلك، حتى ولو لم يكن القصد إلا أن أشرح عواطفي تلك الليلة.

لم تكن أميلي طويلة القامة، ولكني بسبب العاطفة التي كنت أكنّها لها، كانت تبدو لي أكثر طولاً ومهابة من جميع النساء اللواتي سبق أن لقيتهن. ولا أستطيع القول إن كانت هذه المهابة موجودة حقاً أو أن نظراتي المبهورة كانت تزينها بها مجاناً، غير أني أذكر أنّي ليلة عرسنا، بينما كانت تخلع حذاءها ذا الكعب الطويل، أخذتها بين ذراعي وضممتها فدهشت أن أرى أن جبينها كان لا يكاد يبلغ مستوى كتفيّ وأني كنت أشرف عليها تماماً. ولكن فيما بعد، حين تمددتْ إلى جانبي، أُصبت بمفاجأة جديدة: فقد بدا لي جسمها كبيراً، عريضاً، قوياً، في حين أني كنت أعرف جيداً أن ليس لديها ما هو كثيف. وكان كتفاها وذراعاها وعنقها أجمل ما رأيت في حياتي، ممتلئة، أنيقة، لدنة في حركاتها. وكان لها وجه أسمر ذو أنف مرسوم بدقة وبشكل صارم، وفم ريان، رطب، ضاحك بأسنان ذات بياض مشع كان يبدو دائماً رطباً براقاً؛ أما عيناها الكبيرتان بلونهما الكستنائي المذهب وتعبيرهما الشهواني فقد كانتا، في لحظات الاستسلام، زائغتين، مسترخيتين. لقد سبق أن قلت إن أميلي لم تكن آية في الجمال، ولكنها كانت تترك أثر من كان كذلك، لست أدري لماذا؛ ربما بسبب رقة قامتها اللدنة التي كانت تُكسب استدارة كشحيها وصدرها مزيداً من البروز؛ وربما بسبب مظهها الفخور المليء بالاعتزاز؛ أو ربما بسبب قوة ساقيها الطويلتين الممشوقتين والصلبتين في وقت واحد. كانت تملك تلك الهيئة من الحسن والمهابة اللاإرادية والتلقائية التي لا يمكن أن تصدر إلا عن الطبيعة وتبدو من أجل ذلك أشد سحراً وأقل قابلية للتعريف.

والحال أني في ذلك المساء، بينما كانت تروح وتجيء من الغرفة إلى الصالون وأنا أتأملها بعينيّ من غير أن أدري ماذا أقول، مغتاظاً ومرتاباً في الوقت نفسه، كانت أنظاري تنتقل من وجهها الهادئ إلى جسمها الذي كان يُبرز خلال غلالة القميص لونها واستداراتها بين الفينة والفينة، وفجأة هاجم فكري الشك في أنها لا تحبني بعد، مع الشعور يعجز التماسّ والاتصال بين جسمها وجسمي. ولم يسبق لي أن أحسست بمثل هذا الشعور وظللت لحظة دائخاً بذلك، غير مصدّق. إن الحب بالتأكيد وقبل كل شيء إحساس؛ ولكنه كذلك اتصال للأجسام شبه روحي، اتصال كنت قد تمتعت به بلا وعي تقريباً، كما لو أنه شيء عادي وطبيعي تماماً. وهأنذا الآن أفهم، كما لو أن عينيّ قد انفتحتا أخيراً أمام أمر واضح، وقد كان ذلك غير مرئي حتى ذلك الحين. إن مثل هذا الاتصال كان يمكن ألّا يوجد، وأنه لم يكن بعد موجوداً بيننا. وعلى غرار أي شخص يلاحظ فجأة أنه معلّق فوق هاوية، كنت أحس نوعاً من الغثيان المؤلم لدى التفكير بأن صميميتنا قد أصبحت، من غير سبب، بعداً وغيبوبة وانفصالاً.

توقفت عند هذه الفكرة التي تزرع الاضطراب بينما كانت أميلي تغتسل في الحمام وكنت أسمع الماء يجري من الصنابير. وكان شعور حاد بالعجز ورغبة عنيفة بالتغلب عليه يتنازعان نفسي في وقت واحد. كنت حتى تلك الساعة قد أحببت أميلي بلا جهد، ولا محاكمة عقلية؛ كان حبي قد تفتّح، كما يفعل السحر، دفقة غير واعية، مندفعة، ملهمة، منبثقة على ما خيِّل إلي من ذاتي، ومن ذاتي وحدها. كنت ألاحظ للمرة الأولى أن هذه الدفقة كانت تتغذّى وتتوقف على اندفاع من أميلي، شبيه باندفاعي، وإذ رأيتها متغيرة هذا التغير، كان الخوف يأخذني أن أكون بعد الآن غير قادر على أن أحبها بتلقائية الماضي

وطبيعته. كنت بالإجمال أخشى أن يلي هذا الاتصال الرائع الذي اكتشفته عملُ فرضٍ من جهتي، ومن جهة زوجتي... كنت أتساءل ما عساه يكون موقفها في المستقبل، ولكني كنت أُدرك أني إذا اكتفيت بأن أفرض نفسي، فلن أستطيع بعد أن ألقى لديها إلا سلبيةً أو أسوأ من ذلك.

في هذه اللحظة، مرّت أميلي بقربي وقد عادت إلى الغرفة. فانحنيت فجأة وأمسكتها من ذراعها:

- تعالي هنا، أريد أن أكلمك..

فكان رد فعلها الأول أن ابتعدت عني، ثم ما لبثت أن استسلمت وأقبلت تجلس على السرير، ولكن بعيداً عني بعض الشيء:

- تكلمني... ماذا تريد أن تقول لي؟

لماذا أصاب حلقي المنقبض ضيق مفاجئ؟ ربما كان ذلك بسبب الخجل، وهو شعور كان حتى ذلك الحين غائباً عن علاقاتنا، وكان ظهوره يبدو لي وكأنه يؤكد التغير المفاجئ.

قلت:

- نعم، أريد أن أكلمك، فإن لديّ شعوراً بأن شيئاً ما قد تغير بيننا.

فرمتني بنظرة جانبية وأجابت بوثوق:

- إنني لا أفهمك... أي تغير؟ لم يتغير شيء..
- بالنسبة لي، لا، أما أنت...
- لم أتغير في شيء... إنني ما زلت إياي.
- لقد كنت في الماضي تحبينني أكثر من ذلك... كنت تشعرين بالأسف حين كنت أتركك وحدك.. ثم إنه لم يكن يزعجك أن تنامي معي... بل على العكس!

فهتفت، ولكني لاحظت أنها فقدت بعض وثوق لهجتها:

- آه! من أجل هذا! كنت أعرف جيداً أنك تفكر بشيء من مثل هذا... ولكن لماذا تستمر في تعذيبي هكذا؟ إنني لا أريد أن أنام معك لأني بكل بساطة أريد أن أنام، وأني لا أتوصل إلى ذلك وأنا بقربك، هذا كل ما في الأمر!

كنت أحس الآن بحججي ومزاجي السيئ تذوب سريعاً وتنحلّ كالشمع إذا ما لامس النار. وكانت أميلي بقربي وهي بذلك القميص المثير، الخفيف، الذي كان يشفّ عن ألوان جسمها وأشكاله الأشد صميمية؛ وكنت أنا أشتهيها وأجد من الغريب ألا تحس ذلك، وألا تصمت، وألا ترتمي على عنقي، كما كان يحدث في السابق كلما كانت نظراتنا المهتاجة تلتقي. ومن جهة أخرى كانت هذه الرغبة توقظ فيّ الأمل بأني سألتقي ثانية باندفاع الماضي، بل سأثير فيها كذلك الاندفاع نفسه. وقلت لها بصوت خافت:

- إذا لم يتغير شيء، فأثبتي لي ذلك!
- ولكني أثبته لك كل يوم، في كل ساعة...
- لا، أقصد الآن..

وفيما كنت أتحدث ملت عليها فأخذتها بعنفٍ تقريباً من شعرها بحثاً عن شفتيها. فاستسلمت بوداعة. ولكنها في اللحظة الأخيرة تحاشت قبلتي بحركة خفيفة من رأسها، بحيث إن فمي وقع على عنقها. وتركتها:

- ألا تريدين. أن أقبلك؟

فتمتمت وهي ترتب شعرها في لامبالاة:

- ليس الأمر كذلك، فلو لم تكن إلا قبلة لمنحتك إياها طوعاً.. ولكني أعرف إلى أين سيقودنا هذا، وقد تأخر الوقت الآن.. فأحسستني مُهاناً بهذه الطريقة في الصرف باللجوء إلى العقل.

- هذه الأمور لا تعرف تأخيراً في الوقت إطلاقاً!

وإذ حاولت أن أقبلها من جديد بجذبها إليّ من ذراعها، أطلقت صرخة:

- آي! إنك توجعني!

لم أكن قد فعلت أكثر من أن أمسها؛ وقد كنت في أوقات حبنا أضمها أحياناً بين ذراعي بقوة من غير أن أنتزع منها أدنى تنهيدة. وقلت مغتاظاً:

- في الماضي، لم أكن أوجعك!

فأجابت: - إن لك يدين من حديد، وأنت لا تحس بذلك... وسوف يترك هذا أثراً في ذراعي...

قالت ذلك كله في ما يشبه الخدر، من غير أي تدلل.

وفجأة ألححت بقولي:

- قولي لي إذن: أتريدين أم لا أن تمنحيني هذه القبلة؟

فانحنت ولامست جبيني بقبلة أمومية خفيفة وهي تقول:

- خذ. ودعني الآن أذهب للنوم. إن الوقت متأخر.

ولم يكن هذا يكفيني، فإذا بيديّ الاثنين تقبضان عليها من قامتها، عند خاصرتيها، وقلت بينما كانت ترتدّ إلى خلف:

- أميلي.. ليست هذه هي القبلة التي أريدها منك...

فدفعتني وكررت بلهجة عدائية حقاً:

- آي! دعني، إنك توجعني!

- هذا غير صحيح، غير صحيح!

هذا ما تمتمت به بين أسناني وأنا أرتمي عليها.

وفي هذه المرة تخلصت بفضل حركتين أو ثلاث، بسيطة وقوية، وقفزت على قدميها، ثم صممت فجأة، ثم قالت بلا أية حشمة:

- إذا كنت تريد أن تقوم بفعل الحب، فلنفعله... ولكن لا توجعني.. إنني لا أستطيع أن أتحمل أن أحسّني مشدودة على هذا النحو!

لبثت منقطع الأنفاس. كان صوتها هذه المرة مثلوجاً، مبتذلاً، ولم أستطع أن أمتنع عن التفكير بذلك، من غير ظلّ لعاطفة. وظللت لحظة جامداً، وأنا جالس على السرير، مشتبك اليدين، خافض الرأس. وجاءني صوتها من جديد:

- ما دمت تريد الآن، فلنقم بفعل الحب... أليس كذلك؟

فقلت بصوت منخفض، من غير أن أرفع رأسي:

- نعم.

ولم أكن صادقاً، فأنا لم أكن أشتهيها الآن بعد، ولكني كنت أريد أن أتألم حتى نهاية هذا الشعور الجديد الغريب بأن زوجتي أجنبية بالنسبة لي. وقالت وهي تمر خلفي:

- حسناً.

وسمعتها تسير من الجهة الأخرى من السرير. وفكرت بأنها لم يكن لها إلا أن تنزع قميصها، وتذكرت أني في الماضي كنت أتأمل هذه الحركة البسيطة بعينين مسحورتين، كما في تلك القصة التي يرى فيها اللص، بعد أن يكون قد نطق بكلمته السحرية، باب المغارة ينفتح على مهل، كاشفاً عن عظمة الكنوز المدهشة. ولكني هذه المرة لم أشأ أن أنظر، لأني كنت أدرك أن ذلك سيتم بعينين قاسيتين وغير جديرتين بها، بسبب لا مبالاتها. وظللت جامداً، منحنياً، ويداي على ركبتي، منخفض الرأس. وبعد لحظة، أنّت نوابض السرير تحت جسم أميلي التي تمددت على الغطاء. وسمعت صوت الثياب وهي تُنزع، ثم صوتها، صوتها الغريب الفظيع:

- هيّا، تعال! ماذا تنتظر؟...

فلم ألتفت ولم أتحرك؛ ولم أكن أكفّ عن التساؤل: أكان كل شيء يجري هكذا من قبل؟ وسرعان ما أجبت نفسي أن نعم، كل شيء كان كما هو اليوم، وقد كانت تنزع ثيابها وترتمي على السرير؛ وكيف يمكن أن يكون الأمر مختلفاً؟ ولكن كل شيء كان، في الوقت نفسه، مختلفاً. إنه لم يسبق لي قط أن عرفت هذه الوداعة الآلية، الباردة، اللاشخصية، التي كانت تكشف عنها نبرة صوتها وحتى أنين نوابض السرير واندعاك الغطاء. في الماضي، كان كل شيء يجري كما في غيمة اندفاع حماسي، ولا وعي ثمل، ومشاركة مسحورة. إنه يحدث، لك أحياناً، إذ يكون ذهنك تائهاً في فكرة عميقة ما، أن تضع حاجة من الحاجات، كتاباً أو فرشاة أو حذاء، في مكان ما، فإذا ذهب الشرود، فإنك عبثاً ما تبحث عن تلك الحاجة طوال ساعات، ثم تجدها أخيراً في أغرب مكان، في مكان غير معقول تقريباً، يقتضي جهداً حقيقياً لبلوغه، على ظهر خزانة، أو في زاوية منعزلة، أو في جوف درج... وهذا ما حدث لي مع الحب. كان كل شيء يتمّ بلا تنبُّه سريع، مجنون، مسحور، وكنت أجدني بين ذراعي أميلي، من غير أن أذكر تقريباً ما الذي حدث، وماذا فعلنا، بين اللحظة التي كنا فيها جالسين وجهاً لوجه، هادئين وبلا شهوات، وبين اللحظة التي تعانقنا فيها العناق الأعظم.

أما الآن، فإن هذه الغفلة كانت غائبة تماماً من مسلك أميلي، وبالتالي من مسلكي. أيكون بإمكاني، حتى تحت سلطة إثارة الحواس، أن أراقب حركاتها بنظرة باردة، كما يكون بإمكانها هي أيضاً، من غير شك، أن تنظر بدورها إلى حركاتي؟

وفجأة تجسد الإحساس الذي كان يتضح أكثر فأكثر في نفسي المغتاظة، تجسَّد في صورة دقيقة: إنني لم أكن موجوداً بعد تجاه

امرأة كانت تحبني وكنت أحبها، بل تجاه مومس غير مجربة، ونافذة الصبر، وهي تتهيأ لأن تخضع سلبياً لعناقي، آملةً أن يكون هذا العناق قصيراً وقليل التعب. لقد برزت هذه الصورة أمامي لحظة، كأنها التجلي، ثم تخيلت أنها مرت خلفي لتتحد مع أميلي المتمددة على السرير.

ونهضت فجأة، من غير أن ألتفت، وقلت:

- لننسَ هذا، فإني لم أعد راغباً فيه.. وأنا ذاهب لأنام وحدي، فابقيْ أنت، هنا...

وتوجهت، على رؤوس أصابعي، نحو غرفة الاستقبال.

كان الديوان مهيأ، والغطاء مبسوطاً، وقميص أميلي ملقىً على السرير، منشور الكمين. وتناولت هذا القميص، والمشاية الموضوعة على الأرض، والروبديشامبر الملقى على أريكة، وعدت إلى الغرفة، فوضعتها جميعاً على كرسي. ولكني لم أستطع هذه المرة الامتناع عن النظر إلى أميلي.

كانت ما تزال على الوضع الذي اتخذته لتتمدد وتقول لي «هيا، تعال»، وكانت عارية، وذراعها مطوية تحت رقبتها، ورأسها ملتفت نحوي، مفتوحة العينين اللامباليتين، كما لو أن النظر غائب عنهما، بينما كانت ذراعها الأخرى متمددة على جسمها تغطي عانتها بيدها. وفكرت آنذاك بأنها ليست بعدُ المومسة، وإنما هي صورة رؤيت في سراب، يحيطها جو حنيني لا واقعي، بعيدة كما لو أنها لم تكن على بعد خطوتين مني، وإنما كانت في منطقة ضائعة، فيما وراء الواقع وخارج أحاسيسي.

الفَصل الخامِسْ

لا شك في أني شعرت ذلك المساء بأن عهداً مليئاً بالمصاعب كان يبدأ أمامي، ولكني ـ وهذا ما قد يبدو غريباً ـ لم أستنتج من سلوك أميلي النتائج التي يمكن أن يتصورها المرء. صحيح أنها ظهرت باردة ولامبالية ما دمت قد فضلت التخلي عن امتلاكها على أن أمتلكها بذلك الشكل. ولكني كنت أحبها، وفي الحب طاقة كبيرة لا على الوهم وحسب، بل على النسيان. ففي اليوم التالي، لا أدري لماذا فقد حادث الليلة الماضية، الذي كان ينبغي أن يبدو لي مليئاً بالمعاني، كثيراً من أهميته في نظري، وتخفف من عبء العداء وتناقص إلى منازعة عابرة. والواقع أن المرء ينسى بسهولة ما لا يريد أن يتذكره؛ وبالإضافة إلى ذلك، أعتقد أن أميلي شاركت في هذا النسيان، لأنها لم تمتنع على عناقي، من غير أن تتخلى عن أن تنام وحدها. وصحيح أنها، هذه المرة أيضاً، تصرفت بالطريقة الباردة والسلبية نفسها التي كانت قد أهاجت ثورتي؛ ولكن ما كان يبدو لي غير محتمل في المساء الأول، كان يبدو لي بعد بضعة أيام، لا محتملاً فحسب، بل مغرياً كذلك. لقد كنت قائماً، من غير أن أعترف بذلك، على المنزلق الذي تصبح فيه برودة الأمس حباً لاهباً في اليوم التالي، بفضل الميول الصوفية والإرادة الصادقة للنفس النهمة للأوهام. كنت قد فكرت، ذلك المساء الأول، بأن أميلي كانت

تتصرف كمومس؛ وبعد أقل من أسبوع، كنت أقبل أن أحبها وأن أكون محبوباً منها هكذا؛ ولأني في أعماق نفسي كنت قد خشيت أن ترفض تماماً أن تكون ملكي، حمدت لها سلبيتها الباردة النافدة الصبر، كما لو أنها كانت الجو الطبيعي لعلاقاتنا الغرامية.

ولكن إن كنت قد ظللت أهدهد نفسي بوهم أن أميلي كانت تحبني كالسابق، أو بالأحرى إن كنت قد فضلت ألا أضع حبنا موضع التساؤل، فإن شيئاً ما من جهة أخرى كان يكشف في قلبي التغير الذي طرأ في ما بيننا. وهذا الشيء كان عملي. فلئن كنت قد تخليت موقتاً عن مطامحي المسرحية وكرست نفسي للسينما، فإن ذلك لم يكن إلا إرضاءً لرغبة أميلي في أن تملك منزلاً لها. وطالما كنت واثقاً من حب زوجتي، فإن عملي كسيناري لم يكن يبدو لي أثقل على الاحتمال مما ينبغي؛ ولكن بعد حادث ذلك المساء، بدا لي مرةً واحدة أن شعوراً من الخيبة والقلق والنفور يغمرني. والواقع أني كنت قد قبلت ذلك العمل كما كنت سأقبل عملاً آخر أشد عقوقاً وأقل أهمية، وذلك من أجل حب أميلي وحسب. أما وإن هذا الحب يغيب الآن، فإن عملي كان يفقد معناه وتبريره، ويتخذ في نظري خصائص عبودية محض.

وينبغي لي أن أقول بعض العبارات عن مهنة السيناري هذه، ولو لم يكن القصد من ذلك إلا أن أفهم فهماً أفضل الأحاسيس التي كنت أشعر بها في تلك الفترة. فالمعروف أن السيناري هو الذي يكتب، مع مساعد له غالب الأحيان ومع المخرج، السيناريو، أي التصميم الذي يُستخرج منه الفيلم بعد ذلك. وحسب تطور الحركة، توصف في السيناريو الأفعال والكلمات التي يقوم بها الممثلون وصفاً دقيقاً، واحداً واحداً، وكذلك حركات آلة التقاط المناظر المختلفة. وإذن، فإن السيناريو يستقطب كل شيء معاً، الدرامة وانفعالات الوجه

والتكنيك السينمائي والإخراج إلخ.. والحال أن دور السيناري في الفيلم، بالرغم من أنه ذو أهمية أولى وأنه يأتي في المكان الثاني بعد دور المخرج، يظل دائماً معلقاً وغامضاً، لأسباب تمت إلى التطور الحالي للسينما.

وبالفعل: فإننا إذا حكمنا على الفنون من وجهة تعبيرها المباشر ـ ولا أرى كيف يمكن الحكم عليها بصورة مختلفة ـ فإن السيناري فنان يعطي الفيلم أفضل ما في نفسه، وهو مع ذلك لن يملك عزاء أن يعرف إن كان سيعبّر حقاً عن شخصيته الذاتية. إنه لا يستطيع أن يكون، بالرغم من الصفة الخالقة لعمله، إلا واهب لقطات، واختراعات، ومهارات تكنيكية وبسيكولوجية وأدبية؛ والمخرج هو الذي يستعمل هذه المواد وفق عبقريته الخاصة، أي أنه بالإجمال، هو الذي يملك أن يعبّر عن نفسه. أما السيناري، فهو الرجل الذي يبقى دائماً في الظل، واهباً أفضل ما في عقله من أجل نجاح الآخرين؛ وبالرغم من أن انتصار الفيلم متوقف عليه بنسبة الثلثين، فإنه لا يرى اسمه على الإعلانات الدعائية التي تحمل، بالمقابل، اسم المخرج والمنتج والممثلين. إن بوسعه طبعاً ـ وهذا يحدث غالباً ـ أن يبلغ الشهرة ويقبض تعويضات كبيرة؛ ولكنه لا يستطيع أبداً أن يقول: «أنا الذي صنعت هذا الفيلم... وفي هذا الفيلم عبّرت عن نفسي... وهذا الفيلم هو أنا نفسي بعض الشيء»، وعلى العكس من ذلك يستطيع المخرج أن يعتز بذلك ويفاخر ويكون في الواقع الوحيد الذي يوقع الفيلم. وفي هذه الأثناء، على السيناري أن يكتفي بأن يعمل مقابل المال الذي يُدفع له، بحيث إن المال يصبح في آخر المطاف الغاية الوحيدة لعمله. ولا يبقى له إلا أن يُفيد من الحياة، إذا كان قادراً على ذلك، بفضل هذا المال الذي هو النتيجة الوحيدة لجهوده، وهو

سينتقل من سيناريو إلى آخر، من مهزلة إلى درامة، من «وسترن» إلى فيلم عاطفي، بلا انقطاع، وبلا هدنة، شبيهاً بهاتيك الوصيفات اللواتي ينتقلن من أسرة إلى أخرى، وهن لا يكدن يجدن الوقت للتعلق بطفل من الأطفال، حتى يجب عليهن أن يتركنه ليبدأن من جديد مع غيره، تاركات ثمرة جهودهن في آخر الأمر للأمهات اللواتي يملكن وحدهن الحق في أن يسمّين هؤلاء الصغار أولادهن.

ولكن مهنة السيناري، بالإضافة إلى هذه المساوئ الأساسية، والتي لا مفر منها، تعرف مساوئ أخرى تتباين وفق نوعية الفيلم ونوعه وشخصية المساعدين، ولكنها ليست دون ذلك إضجاراً. فبعكس المخرج الذي يتمتع إزاء المنتج ببعض الاستقلال والحرية، لا يستطيع السيناري إلا أن يقبل أو يرفض السيناريو المقترح عليه؛ وحين يعطي موافقته لا يستطيع في أي حال أن يختار مساعديه: إنه يُختار، وهو لا يُعطى الاختيار. ولهذا يحدث أن يرى السيناري نفسه مضطراً، وفق أهواء المنتج أو المناسبات أو المصادفة بكل بساطة، إلى أن يعمل مع أشخاص يجدهم كريهين أو هم دونه ثقافة أو طبقة اجتماعية، وهم يثيرون غيظه بملامح من شخصياتهم أو تصرفاتهم. والحال أن العمل المشترك في سيناريو لا يشبه في شيء العمل في فرقة كالذي يوجد مثلاً في مكتب أو مصنع، حيث يكون لكل فرد مهمة يقوم بها مستقلاً عن جاره، وحيث يمكن للعلاقات أن تتقلص إلى أشياء قليلة أو ألا توجد أصلاً. فالعمل المشترك في سيناريو يعني أن يعمل المرء من الصبح حتى المساء مشاركاً، مذوباً ذكاءه الخاص، وحساسيته الخاصة وروحه الخاصة بروح المساعدين. وهذا ما يقتضي قبول صميمية اصطناعية لا غاية لها، طوال شهرين أو ثلاثة يستغرقها إنجاز السيناريو، إلا صنع الفيلم، وبالتالي، في التحليل

الأخير، كسب المال. ثم إن هذه الصميمية هي من أردأ الأنواع، وأكثرها إثارة للأعصاب وإزعاجاً، لأنها بدلاً من أن تعتمد على عمل صامت يشبه عمل العلماء المكرسين أنفسهم معاً لتجربة من التجارب، فهي تقوم على الكلام. فبصورة عامة، يجمع المخرج مساعديه منذ الساعات الأولى من الصباح حتى الليل الهابط، بالنظر إلى قصر الوقت المعطى لتأليف المخطوطة؛ ومن الصباح إلى المساء، لا يفعل السيناريون شيئاً إلا أن يتكلموا، عن عملهم معظم الوقت، ولكن غالباً بدافع من سرعة التكلم أو الضجر، متحدثين جميعاً عن مختلف الموضوعات. يروي أحدهم حكايات خلاعية، ويعرض آخر آراءه السياسية، ويتحدث ثالث عن رأي علم النفس في هذا الشخص أو ذاك الذي يعرفه الآخرون، والبعض يتكلمون عن الممثلين والكواكب، وآخرون يقفون طويلاً عند وضعهم الخاص. وفي هذه الأثناء، تمتلئ القاعة المعدَّة للعمل بدخان السكاير، وتصطف فناجين القهوة على الطاولات قرب أوراق المخطوطة؛ أما السيناريون الذين يكونون قد وصلوا في الصباح نضرين مرتبين، مسرحي الشعر جيداً، فإنهم يُلفون أنفسهم في المساء مشمري الأكمام، مشعثي الشعر، يسيل عرقهم، كما لو أنهم قد اغتصبوا امرأة باردة عنيدة. والواقع أن الطريقة الآلية الروتينية التي يؤلَّف بها السيناريو تشبه كثيراً نوعاً من إفراط الذهن الناتج عن الإرادة والضرورة أكثر منه عن الإلهام أو الميل. ويمكن طبعاً أن يكون الفيلم ذا نوعية رفيعة، وأن يكون المخرج والمساعدون مشدودين في ما بينهم باحترام وصداقة متبادلين، وأن يجري العمل أخيراً في تلك الظروف المثالية التي يمكن أن تقوم في بعض النشاطات البشرية، حتى العاقة منها؛ ولكن مثل هذه الظروف المؤاتية إلى هذا الحد نادرة، ندرة الأفلام الجيدة.

وبعد أن وقّعت عقداً من أجل فيلم آخر، لا مع باتيستا بل مع منتج آخر، تخلت عني الشجاعة والإرادة، وبدأت أشعر في حنق ونفور متزايدين بجميع المساوئ التي عدّدتها. كان النهار منذ طلوعه أشبه بصحراء قاحلة لا ظل فيها للتأمل والفراغ، بل هي قائمة تحت شمس غريبة من الإلهام المغتصب. وما كدت أدخل مكتب المخرج حتى استقبلني بإحدى تلك العبارات الغريبة:

- ما الذي أسفرت عنه تأملاتك في الليل؟ هل وصلت إلى حل؟

وكان كل شيء بعد ذلك، في أثناء العمل، يستنفد صبري ويثير اشمئزازي: الاستطرادات المختلفة التي كان المخرج والسيناريون يحاولون بها أن يخففوا ساعات المناقشات الطويلة، وعدم الفهم والافتقار إلى الدقة بل حتى مجرد اختلاف وجهات النظر بين مساعديّ في أثناء كتابة المخطوطة... بما في ذلك عبارات الثناء التي يطلقها المخرج لدى كل لفتة أو فكرة تصدر عني، وهو ثناء كان له بالنسبة لي مذاق مرّ لأنه، كما سبق أن قلت، كان يبدو وهو يعطي أفضل ما لديّ من أجل شيء لم يكن في حقيقته يخصني وكنت أشارك به على مضض. بل إن هذه السيئة الأخيرة هي التي بدت لي، في تلك اللحظة، غير محتملة إطلاقاً. وكلما كان المخرج يقفز على كرسيه ويهتف قائلاً بلغته الشعبية المألوفة التي كان يستعملها كثيرون منهم:

- هنيئاً لك! إنك قائد!

لم أكن أستطيع الامتناع عن التفكير: «حبذا لو كان بإمكاني أن أستعمل هذا في درامة أو مهزلة لي أنا!»، ومع ذلك، فإنني بفعل تناقض فريد ومرير، لم أكن أستطيع التخلي عن مهنتي كسيناري، رغم نفوري منها. ولقد كان إنجاز هذه السيناريوات يشبه قليلاً تلك الدواب

المقرونة التي كان فيها بعض الخيل الأقوى والأوفر شجاعة تقوم بعمل الجر، بينما يتظاهر البعض الآخر أنه يجر، وهو في الواقع يستسلم لرفاقه يجرونه. وبالرغم من نفاد صبري ومن كراهيتي، أدركت بسرعة أني كنت دائماً الحصان الذي يجر؛ أما الآخرون، المخرج وزميلي، فقد كانا ينتظران دائماً أمام الصعوبات أن آتي بالحل. وفيما كنت أزدري داخلياً وساوسي وقريحتي، كنت أحمل الحل المطلوب، من غير أن أُرجئ. ولم أكن مدفوعاً إلى ذلك بروح المنافسة، بل بحركة إخلاص أقوى من أية إرادة معاكسة: لقد كان عليّ أن أعمل، ما دمت أقبض. ولكني كنت أخجل من نفسي كل مرة، وأشعر بإحساس من المرارة والأسف كما لو أني بذرت شيئاً لا ثمن له وكان بوسعي أن أستغله استغلالاً أفضل.

جميع هذه السيئات لم تبدُ لي على حقيقتها إلا حين وقّعت بعد شهرين اتفاقي الأول مع باتيستا ولم أفهم في بادئ الأمر كيف أني لم أرها قبل ذلك وكيف أنفقت هذا الوقت كله لأدركها. ولكن أمام استمرار هذا الشعور بالكراهية وعدم الكرامة الذي كان يوقظه فيّ عملٌ كنت راغباً فيه أول الأمر، لم يكن بوسعي إلا أن أربطه منطقياً بهمومي الزوجية. لقد فهمت أخيراً أن عملي إذا كان حقاً ينفّرني، فلأن زوجتي كفّت عن أن تحبني، أو تبدو على الأقل وكأنها لا تحبني بعد؛ لقد واجهته بجرأة وثقة ما كنت واثقاً من حب أميلي. ومنذ أن افتقدت هذا الحب، تخلت عني الجرأة والثقة كذلك، وكف العمل عن أن يبدو لي إلا عبودية، وانتهاكاً لحرمة الفكر، ومضيعة للوقت.

الفَصْل السَادس

أخذت أعيش إذن إنساناً يحمل في ذاته آلام مرضٍ في الحضانة، ولكنه لا يعزم على الذهاب لرؤية الطبيب؛ أعني أني كنت أبالغ في تحاشي التركيز على موقف أميلي مني ومن عملي. كنت أعلم أن عليّ يوماً أن أواجه هذا التأمل، ولكن لأني إنما كنت أحسه لا مفر لي منه، كنت أجهد في تأجيله ما أمكنني ذلك؛ فالقليل مما كنت قد أحسست به جعلني أبعد هذه الأفكار، لفرط خوفي منها بلا وعي. وإذن، فقد استمرت أميلي في هذه العلاقات التي بدت أول الأمر غير محتملة، والتي أجهد الآن، وأنا أخشى الأسوأ، في أن أعتبرها طبيعية، من غير أن أنجح تماماً في ذلك: ففي النهار، أحاديث لا مبالية، تافهة، تهربية؛ وفي الليل، فعلُ الحب بين حين وآخر، مع كثير من الارتباك، مع وحشية من قبلي، ولكن من غير أدنى مشاركة حقيقية من قبلها. وفي الوقت نفسه كنت ماضياً في عملي بهمة، بل حتى بضراوة، بالرغم من أن ذلك كان يحدث بإرادة تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، واشتمئزاز يزداد قوة يوماً بعد يوم. ولو أوتيت آنذاك الجرأة على أن أحدد لنفسي الموقف الذي كنت أجدني فيه، لتخليت بالتأكيد عن العمل وعن الحب، مقتنعاً كما حدث فيما بعد، بأن كل حياة قد امحت منهما. ولكن تلك الجرأة كانت تنقصني؛ وربما كنت أؤمل بأن الزمن سيتكفل بحل مشكلاتي، بلا أدنى جهد أبذله. والزمن هو الذي

حلها فعلاً، ولكن لا في الاتجاه الذي كنت أرغبه! وهكذا كانت الأيام تنقضي بين أميلي التي كانت ترفضني والعمل الذي كنت أرفضه في جو من الانتظار المعتم الأصم.

على أن السيناريو الذي كنت أعمله لحساب باتيستا كان يشرف على نهايته، وفي الوقت نفسه أومأ باتيستا إلى عمل جديد، أهم من الأول، كان يريدني أن أشارك فيه. وكجميع المنتجين، كان باتيستا رجلاً مستعجلاً دائماً وتهربياً، ولم تكن إيماءاته السريعة تذهب قط إلى أبعد من عبارات أمثال:

- بمجرد أن تنتهي يا مولتيني، من هذا السيناريو، فسنعمل سيناريو آخر على الفور.. وهو أكثر أهمية.

أو يقول:

- كن مستعداً في يوم من هذه الأيام، يا مولتيني، فإن لديّ عرضاً سأطرحه عليك...

أو يقول بكلام أوضح:

- لا توقع اتفاقات، يا مولتيني؛ فمن الآن حتى خمسة عشر يوماً، ستوقع عقداً معي.

وأعترف أني رغم كرهي المتزايد لهذا النوع من العمل، فإن الأمور الأولى التي فكرت بها غريزياً هي الشقة، والمبالغ التي كنت ما أزال مديناً بها؛ فلهذا كنت سعيداً بعرض باتيستا. والحق أن الأمور تجري على هذا النحو، في مهنة السيناري هذه: إن أي عرض جديد ـ حتى ولو كان المرء لا يحبه ـ كما هو شأني، يُتقبل تقبلاً حسناً، وإذا لم يُعرض عليك شيء، قلقت وخشيت أن تُبعد عن الساحة.

ولكني لم أنبس ببنت شفة أمام أميلي عن هذا العرض الجديد من باتيستا، وذلك لسببين: لأني أولاً لم أكن قد عزمت بعد على أن

أقبله، ولأني ثانياً كنت قد فهمت أن عملي لا يهمها، وكنت أؤثر ألا أحدثها عنه خشية أن أسبب توكيداً جديداً لبرودة ولا مبالاة كنت أصر ألا أعلق عليهما أية أهمية. والحق أن الأمرين جميعاً كانا مشدودين برباط كنت أحسه إحساساً غامضاً: إنني لم أكن على يقين بأن أقبل هذا العمل لأني كنت أشعر بأن أميلي لا تحبني بعد. ولو أنها أحبتني لأطلعتها على هذا العرض، وحديثي إليها عنه كان يعني في الحقيقة قبوله.

وذات صباح، خرجت للقاء المخرج الذي كنت أعمل معه في سيناريو رقم واحد، سيناريو باتيستا. وكنت أعرف أن هذه هي آخر مرة أقصده فيها، لأن المخطوطة كانت على وشك أن تنتهي، وسأكون من جديد حراً، نصف نهار على الأقل. ثم إن شهرين من العمل كانا كافيين لكي أبغض موضوع الفيلم وشخصياته. وكنت أعرف أني لن ألبث طويلاً حتى أشتبك مع موضوع وشخصيات أخرى ستصبح هي أيضاً غير محتملة؛ ولكني في هذه اللحظة كنت أتخلص من الأولين، وهذا المنظور كان يكفي للإيحاء بعزاء كبير لي.

وبفضل هذا الأمل في حرية وشيكة، اشتغلت ذلك اليوم بسهولة غريبة. ولم يكن ينقص السيناريو إلا بعض رتوش غير ذات أهمية، ولكننا كنا منذ بضعة أيام نعمل فيها بلا نتيجة. واستخفتني قريحتي، فاستطعت منذ البدء أن أجد الحجج الصحيحة وأحل الصعوبات الأخيرة واحدة بعد الأخرى، حتى أدركنا بعد زهاء ساعتين فقط أن السيناريو قد انتهى حقاً هذه المرة. وكما يحدث في بعض تمارين الركض المرهقة، والتي لا تنتهي في الجبل، حين يبدو فجأة في أحد المنعطفات الهدف الذي كان المرء يائساً من بلوغه، كنت أكتب عبارة من الحوار حين صرخت في دهشة:

- ولكن لماذا لا ننهي السيناريو بهذه الكلمات نفسها؟

وكان المخرج، فيما كنت أكتب، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، فنظر إلى الصفحة من فوق كتفي وقال بدوره، في لهجة دهشة وعدم تصديق:

- أنت على حق. إن بالإمكان إنهاءه هكذا!

وإذ ذاك سطرت كلمة «النهاية» في أسفل الصفحة، وأغلقت الملف، ونهضت.

وظللنا لحظة صامتين، ونحن ننظر كلانا إلى المكتب الذي كانت المخطوطة المنتهية مستريحة عليه، أشبه ببطلين من أبطال تسلّق الجبال، يتأملان، وقد نفدت قواهما، البحيرة الصغيرة أو الصخرة التي بلغاها بعد كثير من الجهد والتعب. ثم تنهد المخرج وقال:

- أوف! انتهى الأمر!

قلت: - نعم. لقد انتهى.

وكان هذا المخرج يُدعى «بازيتي»، وكان شاباً أشقر بارز القسمات، جافاً، دقيقاً، مرتباً، وهو أشبه بمهندس أو بمحاسب موسوس منه بفنان. وكان في مثل سني تقريباً، ولكن العلاقات فيما بيننا، كما يحدث عادة في مهنتنا، كانت علاقات رئيس ومرؤوس، لأن المخرج له السلطة دائماً على معاونيه. وقد استطرد، بعد لحظة، بلطفه البارد الأخرق:

- يجب أن نقول، يا ريشار، بأنك تشبه الحصان الذي تنبعث منه رائحة الأسطبل... إنني كنت سأراهن أنه كان علينا على الأقل أربعة أيام أخرى من العمل، وها نحن قد تخلصنا في ساعتين... ها! ها! لا بد أن تخيلك التوجه إلى الصندوق هو الذي أعطاك الإلهام!

لم أكن أكره بازيتي رغم أنه متوسط الذكاء وغير حساس نفسياً. وكانت قد قامت بيننا علاقات تعويض، إذا صح التعبير: كان هو رجل لا خيال له ولا أعصاب، ولكنه كان عارفاً حدوده ومتواضعاً في الحقيقة؛ أما أنا، فكنت ثائر الأعصاب والخيال، انفعالياً معقداً. وقد أجبته بلهجة المزاح نفسه:

- نعم، كما تقول تماماً... تخيُّل التوجُّه إلى الصندوق...

ومضى يقول وهو يشعل سيجارة:

- ولكني لا أعتقد أن القضية قد انتهت.. لقد قمنا بأهم عملنا، ولكن يجب أن نعيد النظر بالحوار... فلا تنم على غارك!

ولاحظت مرة أخرى طريقته في التعبير بجمل مبتذلة وعبارات جاهزة، وألقيت بنظرة خفية إلى ساعتي: فكانت الواحدة تقريباً. وقلت:

- اطمئن، إني باقٍ تحت تصرفك لأي تصحيح تراه...

فهز رأسه:

- إنني أعرفكم جميعاً كما أنتم.. وحتى لا تنام سأقول لباتيستا أن يبقي ما يتوجب لك معلقاً...

كانت له طريقة في المزاح بلهجة حماية تثير لدى رجل في هذه السنّ الشابّة، لهجة تحث مساعديه بالتناوب بين العقاب والمديح، والتحفظات والتشجيعات، والرجاء والأمر؛ ويمكن اعتباره، من هذه الناحية، مديراً صالحاً، ما دامت الإدارة تتلخّص في قسم كبير منها بمعرفة استخدام الآخرين استخداماً بارعاً.

وأجبت وأنا أستجيب لمعانيه كالعادة:

- لا، بل ستأمر بأن تصرف لي كل حقي، وأنا أعدك بأن أكون تحت تصرفك..

وقال وهو يلح إلحاحاً ثقيلاً:

- ولكن ما عسى هذا المال كله أن ينفعك؟ إنك لا تشبع منه.. ومع ذلك، فليست لك عشيقة، ولا تلعب القمار، وليس لك أولاد!

فأجبته جاداً وأنا أخفض عيني، وقد انزعجت قليلاً من قلة تحفظه:

- إن عليّ أن أدفع أقساط شقّتي.
- ألا يزال عليك دين كثير؟
- المبلغ كله تقريباً...
- أفترض أن زوجتك هي التي تعذبك لكي تطلب الأجر.. يخيل إلي أني أسمعها تقول: ريشار، لا تنس أن تصفي حساب تعويضك!

فأكدت قائلاً:

- إنها طبعاً زوجتي، ولكنك تعرف النساء والأهمية التي يعلّقنها على بيوتهنّ...

وأخذ يحدثني عن زوجته التي كانت تشبهه كثيراً، ولكن كان يخيّل إليّ أنه يعتبرها مخلوقاً غريباً مليئاً بالأهواء والمفاجآت، يعتبرها امرأة بالإجمال. وكنت أتظاهر بأني كنت أصغي بتنبُّه، ولكن فكري كان في مكان آخر. وانتهى إلى القول:

- هذا كله جيد، ولكني أعرفكم أنتم السيناريين، فكلكم من طينة واحدة.. حين تقبضون، لا يراكم بعدُ أحد... لا، لا... سأقول لباتيستا أن ينتظر قبل أن يدفع لك...
- كفى يا بازيتي، كن لطيفاً...
- حسناً، سأرى... ولكن لا تعتمد على هذا أكثر مما ينبغي...

واسترقت نظرة أخرى إلى ساعتي. لقد أتحت للمخرج فرصة أن يبدي سلطته، فأبداها، وكان بإمكاني أن أمضي:

- حسناً! إنني مسرور أن أنهيت هذا العمل، أو كما تقول، معظم هذا العمل.. ولكني أعتقد أنه آن الأوان لكي أذهب.

فصاح بحيوية:

- إطلاقاً! يجب أن نشرب نخب الفيلم.. ولن تذهب هكذا...

قلت مستسلماً:

- إذا كانت القضية قضية شرب، فإني أبقى..
- إذن، لننتقل إلى الطرف الآخر.. أعتقد أن زوجتي ستكون مسرورة بأن تشرب معنا.

وتبعته إلى خارج المكتب عن طريق ممرّ ضيق أبيض كانت تنبعث منه رائحة مطبخ وخرق أطفال. وسبقني إلى قاعة الاستقبال وهو ينادي:

- لويز، لقد انتهينا، أنا ومولتيني، من سيناريونا؛ وسنشرب الآن نخب انتصار الفيلم.

وتركت السيدة بازيتي أريكتها لتأتي إلى لقائنا. وكانت امرأة قصيرة ذات رأس كبير، ووجه متطاول شديد البياض تؤطره عصابات ملساء سوداء. وكانت لها عينان كبيرتان ممتقعتان غير معبِّرتين لم تكونا تنتعشان إلا لحضور زوجها، فلا تنفصلان في هذه الحالة عنه، كما تنظر بعض الكلاب المحبَّة إلى سيدها. أما في غياب زوجها، فقد كانت تخفضهما بهيئة تواضع. وكانت قد رُزقت في أربع سنوات أربعة أولاد، فكانت تبدو رخصة العود دقيقة.

قال بازيتي بمرحه المربك:

- هيا.. إنني سأعدّ كوكتيلاً.

فقاطعته السيدة بازيتي:

- ليس لي، يا جينو، فأنت تعرف أني لا أشرب منه!

- ولكننا، نحن، سنشرب.

وجلست على أريكة يغطيها نسيج مزهر، أمام مدخنة من القرميد، وجلست السيدة بازيتي قبالتي على أريكة مماثلة. ونظرت حولي: كانت غرفة الاستقبال مصنوعة على غرار صاحبها، فهي مرتبة، ملمعة، منظمة تماماً، ولكنها في الوقت نفسه مسكينة بعض الشيء، كمنزل مستخدم أو محاسب. وقد ظللت أفحص الغرفة، لأن السيدة بازيتي لم يكن يبدو أنها تشعر بحاجة إلى الحديث. كانت جالسة قبالتي منخفضة العينين، ويداها على ركبتيها، لا تبدي حراكاً. وفي هذه الأثناء، كان بازيتي قد اتجه إلى الركن المقابل من الصالة، نحو قطعة أثاث قبيحة متنافرة، هي في وقت واحد مشرب وجهاز راديو؛ ورأيته ينطوي فوق ساقيه الهزيلتين، فيستخرج منه بحركة دقيقة بارزة زجاجتين، إحداهما زجاجة فرموت والأخرى زجاجة دجن، وثلاثة أقداح ووعاء. وقد وضعها كلها على صينية حملها إلى طاولة تقوم قرب المدخنة. وقد لاحظت أن الزجاجتين كانتا مسدودتين لم تُمسّا. لا بد أن بازيتي لم يكن يسمح لنفسه أن يشرب؛ وحتى الوعاء اللامع كان يبدو جديداً. وقال لنا إنه ذاهب يأتي بالثلج، ثم خرج.

وظللنا طويلاً في صمت أحسست الحاجة إلى قطعه، فقلت:

- لقد انتهينا أخيراً من السيناريو!

فأجابت السيدة بازيتي:

- نعم، لقد قال جينو لي ذلك.
- وأنا متأكد من أن الفيلم سيكون جيداً.
- وأنا أيضاً متأكدة، والحق أن جينو ما كان ليفعله لو كان الأمر خلاف ذلك.
- هل تعرفين موضوعه؟

- نعم، لقد رواه لي جينو.
- وهل يروق لك؟
- إنه يروق لجينو، فهو إذن يروق لي.
- هل أنتما متوافقان؟
- أنا وجينو؟ دائماً...
- من يأمر فيكما؟
- جينو بالتأكيد.

ولاحظت أنها كانت قد تفننت بترديد اسم زوجها كلما فتحت فمها. وكنت قد تكلمت بلهجة غير مبالية، فأجابتني دائماً بأكبر حظ من الجدية. وعاد بازيتي بدلو الثلج وناداني:

زوجتك على التلفون، يا ريشار.

ولا أدري لماذا نفر الدم عنيفاً إلى قلبي كما لو أنه ارتداد مفاجئ لضيق مألوف. ونهضت آلياً وتوجهت نحو الباب، فأضاف بيزاتي:

- إن جهاز التلفون في المطبخ، ولكنك تستطيع إذا شئت أن تتحدث من هنا، فقد وصلتُ المخابرة.

وبالفعل كان ثمة جهاز تلفون على صندوق بالقرب من المدخنة. وقد تناولت السماعة وسمعت صوت أميلي:

- اعذرني، يا ريشار يجب أن تتدبر أمرك اليوم لتتغدى خارج البيت.. فإني سأتغدى مع أمي.
- ولكن، لماذا لم تقولي لي ذلك قبل الآن؟
- لم أكن أريد أن أزعجك في عملك.

قلت ـ حسناً، سأذهب لتناول الغداء في المطعم.

- إلى اللقاء.

وقطعت المخابرة، فالتفتُّ إلى بازيتي، فسألني:

- ألا تأكل في بيتك يا ريشار؟
- لا.. بل سأذهب إلى المطعم.
- ولكن، ابق فتناول الغداء معنا... بلا تكليف... وسيسرّنا ذلك.

وكان إحساس من الخيبة قد غمرني بشكل غير قابل للتفسير عندما فكرت بأني سأتناول الطعام وحدي في المطعم؛ ولا شك في أن ذلك لأني قد تلذذت مقدماً بفرحة إبلاغ أميلي انتهاء السيناريو. وربما كنت امتنعت لو تذكرت أن أعمالي لم تعد تهمها، ولكني في تلك اللحظة كنت قد استجبت لعادة ماضينا القديمة. لقد سرتني دعوة بازيتي، وقد قبلتها بعرفان يتجاوز حدوده. وكان في هذه الأثناء قد فتح الزجاجتين، وأخذ، بحركات صيدلي يدقق في قدر دواء يصنعه، يصبّ الدجن والفرموت، ويفرغهما في وعاء المزج. وكانت السيدة بازيتي ماضية في التهام زوجها بعينيها. أما هو، فبعد أن خض الوعاء بقوة، كان يتهيأ لملء القدحين. وقالت له زوجته:

- أرجوك، مقدار إصبع لي فقط. وأنت أيضاً، يا جينو، خذ منه قليلاً، فقد يؤذيك هذا.
- إن المرء لا ينهي كل يوم سيناريو!

وملأ قدحينا، وأفرغ قليلاً من الكوكتيل في القدح الثالث. ورفعنا نحن الثلاثة أقداحنا، فقال بيزاتي:

- العقبى لمئة سيناريو كهذا!

وبلّل شفتيه فقط، ثم وضع قدحه على الطاولة. أما أنا، فأفرغت كأسي جرعة واحدة. وشربت السيدة بازيتي جرعات صغيرة ثم نهضت وهي تقول:

- إنني أريد أن ألقي نظرة على المطبخ، هل تسمحان؟

وخرجت، فاحتل بازيتي مكانها على الأريكة المزهرة وأخذنا

نثرثر. أو أنه بالأحرى أخذ يحاور نفسه، بصدد السيناريو خصوصاً، وكنت أستمع إليه وأنا أقرّة على كل شيء بهمهمات أو بهزات من رأسي، فيما ظللت أشرب. وظل قدح بازيتي على حاله، نصف ممتلئ، وكنت أنا قد أفرغت كأسي ثلاث مرات. ولا أدري لماذا كان شعور كثيف بالضيق يتسلل إلى نفسي، وكنت أشرب على أمل أن يذهب السكر بهذا الضيق. ولكني شديد الصمود للكحول، وكان كوكتيل بازيتي خفيفاً، كثير الماء. ولهذا لم تنفع ثلاثة أقداح أو أربعة في مضاعفة ضيقي المبهم. وتساءلت فجأة: «كم أحسني بائساً، ولماذا؟».

وتذكرت آنذاك أن أول ضربة من ضربات الألم إنما كنت قد أحسست بها وأنا أسمع في التلفون صوت أميلي، بارداً، لا شخصياً، متحفظاً، وخصوصاً مختلفاً عن صوت السيدة بازيتي حين كانت تنطق باسم «جينو» السحري. ولكن لم يمكنني أن أعمّق هذه التأملات لأن السيدة بازيتي ظهرت من جديد وأعلنت أن بوسعنا أن ننتقل إلى الطعام.

كانت قاعة طعام آل بازيتي من نوع المكتب والصالون نفسه: أثاث برّاق لطيف رخيص الثمن من الخشب المدهون باللون الأبيض، وصحون من خزف ملوّن، وزجاجيات قيمة خضراء، وخوان وفُوط من القنّب الخام. وكانت الغرفة صغيرة، وكانت الطاولة تملأها كلها تقريباً بحيث إنه كان على الخادمة، حين تدور لتقدّم الطعام، أن تزيح أحد المدعوين من مكانه؛ وقد أخذنا نتناول الطعام في صمت ورزانة. ثم غيرت الخادمة الصحون وانتهزت الفرصة لأسأل بازيتي عن مشاريعه للمستقبل. فأجابني بصوته البارد، الدقيق، الذي كان التواضع وقصر الخيال يبدوان وكأنهما هما اللذان يوحيان باختيار الكلمات فيه

وتغيير النبرات. وكنت أصمت، غير واجد ما أقوله، لأن مشاريع بازيتي لم تكن تهمني إطلاقاً، وحتى لو همتني، فقد كان هذا الصوت الأبيض كافياً لجعلها مضجرة. وإذ كان نظري الشارد يتنقل بغموض من حاجة إلى حاجة، من غير أن يجد شيئاً يمكن أن يجتذبه، توقف عند وجه السيدة بازيتي التي كانت تصغي هي أيضاً، مسندة ذقنها بيدها، وعيناها مثبتتان كالعادة على زوجها. وإذ ذاك دهشت لتعبير العينين في ذلك الوجه: إنه تعبير رقيق، محرق، ممزوق بإعجاب متواضع وافتتان جسدي وحياء يكاد يكون كئيباً. كنت من شدة الدهشة بحيث إن العاطفة التي كانت تنعكس فيهما كانت تبدو لي حقاً غير قابلة للفهم. إن بازيتي ذاك الذي يبلغ هذا الحد من فقدان اللون وضعف الصحة وتوسط الذكاء، والحرمان من جميع المزايا التي يمكن أن تفتن امرأة، كان يبدو لي شيئاً لا يُصدَّق بالنسبة لمثل هذه العناية. ثم قلت لنفسي إن كل رجل ينتهي به الأمر إلى وجود المرأة التي تقدره وتحبه، وإن الحكم على مشاعر الآخرين وفقاً لمشاعر الإنسان الخاصة خطأ جسيم. وأحسست آنذاك بنوع من الودّ لهذه المرأة إلى ذلك الحد لرفيقها، وباحترام له، هو الذي كان يوحي لي، رغم قلة ذكائه، بصداقة ساخرة حتى ذلك الحين. ولكن، فيما كانت نظراتي الشاردة تنتقل إلى مكان آخر، اخترقت ذهني فكرة أو حدس مفاجئ: «إن في هاتين العينين جماع حبّ هذه المرأة لزوجها، وإنما هو راضٍ عن نفسه وعما يعمل لأنها تحبه؛ أما عينا أميلي فقد كفتا منذ وقت طويل عن أن تعكسا مثل هذا الشعور.. إن أميلي لا تحبني بعد، وهي لن تحبني أبداً...».

وأيقظت هذه الفكرة في نفسي ألماً عميقاً، فأحدثت لي صدمة جسدية إلى حدّ أني كشرت في وجهي، وأن السيدة بازيتي، المليئة

بروح المشاركة سألتني، هل اللحم الذي كنت آكله قاس. فطمأنتها: لقد كان اللحم طريّاً. على أني فيما كنت أتظاهر بالإصغاء إلى بازيتي الذي كان ماضياً في تعداد مشاريعه، كنت أجهد في تعميق هذا الإحساس الأول الذي كان حادّاً إلى ذلك الحدّ، وغامضاً في الوقت نفسه. وفهمت آنذاك أني منذ شهر كنت قد حاولت أن أعوّد نفسي على وضع غير محتمل، من غير أن أنجح في ذلك؛ والواقع أني لم أكن أستطيع بعدُ أن أحتمل أن أعيش هكذا بين أميلي التي لم تكن تحبني بعد، وبين عمل لم أكن أحبه بعد، بسبب من أميلي. وقلت في نفسي: «إنني لا أستطيع بعد المضيّ في هذا الطريق، ويجب علي مرة أخيرة أن أتفاهم مع زوجتي.... وإذا لزم الأمر، انفصلت عنها وتركت عملي...».

على أني رغم هذا القرار اليائس، لاحظت أني لم أكن أنجح في الإيمان به تماماً: فالحق أني لم أكن مقتنعاً بعد كل الاقتناع بأن أميلي قد ابتعدت عني نهائياً، ولا أني سأجد القوة على الانفصال عنها، وعلى التخلي عن عملي كسيناري، وعلى أن أعيش وحدي. كنت بعبارة أخرى أحس شعوراً من عدم التصديق جديداً كل الجدّة بالنسبة لي، ومؤلماً، تجاه أمرٍ كان ذهني قد يعتبره أكيداً. فما دامت أميلي قد كفت عن أن تحبّني، فكيف تأتي لها أن تصل إلى هذه اللامبالاة؟ كنت أحس، وقلبي منقبض بالضيق، أن هذا التأكيد الأول، المؤلم، كان يتطلب لإقناعي إقناعاً تاماً ألف دليل آخر أشد خصوصية وأكثر إيلاماً. كنت أعرف أن أميلي لا تحبني بعد، ولكني كنت أجهل أسباب هذا التغير ومراحله، ولكي أقتنع بذلك مطلق الاقتناع، فلا بد من أن أتفاهم معها، وأن أبحث وأحلل، وأدخل مسبار التحقيق الدقيق القاسي في جرح كنت قد جهدت حتى الآن في نسيانه. وكانت

تلك الفكرة ترعبني، على أني كنت أدرك أني لن أجد الجرأة على الانفصال عن أميلي، إلا بعد أن أقوم بتحقيقي، كما أوحى لي بذلك إحساسٌ يائس من أحاسيس روحي.

غير أني ظللت آكل وأشرب وأصغي إلى بازيتي من غير أن أشعر تقريباً بما أفعل. وانتهى طعامنا أخيراً، ولله الحمد. وانتقلنا من جديد إلى الصالون حيث كان لا بد من ملء الشكليات المختلفة للاستقبالات البورجوازية: القهوة ـ قطعة أو قطعتان من السكر؟ ـ وتقديم المشروب ـ قوي أم خفيف؟ ـ والرفض المألوف لهذا المشروب، والأحاديث الفارغة التي تُزجي الوقت...

وحين حسبتني قادراً على الاستئذان بالانصراف، من غير أن أعطي انطباعاً بالاستعجال، نهضت. ولكن في تلك اللحظة أدخلت الخادمة كبرى أولاد بازيتي لتبلغ الأبوين أنها ستأخذها في النزهة اليومية. كانت صبية سمراء ممتقعة ذات عينين كبيرتين جداً، ولكنها بالجملة عادية وتافهة كأبويها. وفيما كنت أنظر إليها وأمها تقبلها وتدللها، خطرت في ذهني فكرة: أنني لن أكون أبداً سعيداً مثل هؤلاء الناس... ولن نرزق، أنا وأميلي، أي صبي... وما لبثت فكرة أخرى، أشد مرارة، أن راودتني: كم أتلبس وضع جميع الأزواج الذين خيبتهم نساؤهم! هأنذا أحسد زوجين عاديين يأكلان بالقبلات ذريتهما... تماماً كأي زوج يجد نفسه في وضعي... وأرهقتني هذه الفكرة وجعلت المشهد العائلي الذي كنت أشهد مشهداً لا يطاق. وأعلنت فجأة أن عليّ أن أنصرف. فرافقني بازيتي، والغليون في فمه، إلى الباب. وداخلني الشعور بأن انصرافي المستعجل قد أدهش وفاجأ زوجته التي كانت تنتظر بلا ريب أن تراني أتعطف وأرق أمام المشهد العميق الذي يعبر عن حبها الرؤوم.

الفَصْل السَابع

كان المفروض أن يشغلني سيناريوي الثاني ابتداء من الساعة الرابعة، وقد كان ما يزال أمامي ساعة ونصف الساعة؛ وحين أصبحت في الشارع، توجهت بصورة غريزية إلى منزلي. وكنت أعلم أن أميلي كانت غائبة، باعتبار أنها قد تناولت الغداء مع أمها، ولكني كنت أرجو، وأنا مليء بالضيق، حائر، أن أجدها في البيت. وكنت أقول في نفسي إني في هذه الحالة ستكون لي الجرأة على أن أحدثها بصراحة، وأن أجرها إلى تفسير نهائي. وكنت أشعر أن علاقاتي بأميلي ستتوقف على هذا التفسير، وكذلك عملي، من جهة أخرى. فبعد هذه الترددات والذبذبات الكثيرة، كنت أحسبني أؤثر أي كارثة على استمرار وضع يتضح مع الأسف أكثر فأكثر ويقل احتماله أكثر فأكثر. ربما كان علي أن أنفصل عن زوجتي، وأن أرفض سيناريو باتيستا الثاني... ولن يكون ذلك إلا أفضل. إن الحقيقة، مهما كانت، تبدو لي منذ الآن أجدر بالقبول من هذا الوضع المعتكر القذر، بين الكذب وشعور العطف الذي كنت أكنّه لنفسي.

ولكني إذ بلغت شارعنا، عاودني تململي: إن أميلي لا يمكن أن تكون في هذا البيت وفي هذه الشقة الجديدة التي كانت في نظري الآن أشدّ كرهاً وغرابة، وكنت سأحسني أكثر حيرة وألماً مما لو كنت في مكان عام. وأُغريت لحظة بأن أبتعد وأن أذهب فأقضي هذه الساعة

ونصف الساعة من الانتظار في مقهى. ثم في لحظة برق مفاجئ من ذاكرتي، ذكرت أني كنت مساء أمس قد وعدت باتيستا أن أكون في بيتي في تلك الساعة من النهار، لأتواعد معه على اللقاء بالتلفون، وكان ذلك وعداً مهماً، باعتبار أن باتيستا سيكلمني نهائياً عن سيناريوه الجديد، وأن يقترح لي عروضاً محسوسة وأن يقدمني إلى المخرج، وكنت قد أكّدت له أني سأكون في بيتي في الساعة الموعودة، على مألوف عادتي كل يوم. وكان بإمكاني طبعاً أن أتلفن لباتيستا من المقهى، ولكني لم أكن موقناً أن أجده في بيته لأنه غالباً ما يتناول الغداء في المطعم، ومن جهة أخرى، كنت وأنا في ضيقي الشديد بحاجة إلى حجة لكي أعود إلى البيت، وكانت مخابرة باتيستا المنتظرة تعطيني هذه الحجة بالذات.

وإذن، فقد عدت إلى المنزل، وتوجهت نحو المصعد، فأغلقت أبوابه وضغطت على زر الطابق الأخير الذي أسكنه. وفيما كنت أصعد، قلت لنفسي إني لم أكن في الحقيقة أملك حق تحديد موعد لباتيستا، وأنا غير واثق إطلاقاً أن أقبل عرضه الجديد. وكان كل شيء متوقفاً على تفاهمي مع أميلي. كنت أعرف أنها إذا صارحتني أنها لم تعد تحبني، فإني لن أكتفي بعدم تأليف هذا السيناريو، بل إني لن أؤلف بعده أي سيناريو آخر في حياتي. ولما كانت أميلي غائبة عن البيت حين سيتلفن باتيستا، فلن أكون بمستطيع أن أقبل أو أرفض أو أذهب لمناقشة عرضه. أما معالجة القضية ثم الانسحاب بعد ذلك، فأمر يبدو أنه عبث من أشد أنواع حياتي عبثاً. وأمام هذه الفكرة استولى عليّ اشمئزاز وغضب ضارٍ، فأوقفت المصعد فجأة وضغطت زر الهبوط. وقلت لنفسي إن من الأفضل ألّا يجدني باتيستا في الطرف الآخر من الخط حين يتلفن. وفيما بعد، في المساء، سأتفاهم مع

أميلي، وفي اليوم التالي، أعطي المنتج جواباً يتطابق مع الجواب الذي أكون قد تلقيته منها.

في هذه الأثناء، كان المصعد يهبط، فكنت أرى الطوابق تجري عبر الزجاج المغبر، بعيني سمكة ترى مستوى الماء في الحوض الذي تسكنه يهبط شيئاً فشيئاً. وأخيراً، توقف المصعد فوضعت يدي على مقبض الباب. ولكن فكرة مفاجئة أوقفت حركتي: أجل، صحيح أن قبولي هذا العمل الجديد يتوقف على نتيجة مناقشتي مع أميلي، ولكن لنفرض أن أميلي طمأنتني، في المساء، على ثبات حبها لي، ألا أوشك، إذا غبت عن بيتي، أن أثير استياء باتيستا وأن أفقد السيناريو؟

لقد كنت أعرف بالخبرة أن للمنتجين أهواء الطغاة الصغار، وهذا النوع من معاكسة القدر يمكن أن يكفي لجعل باتيستا يغير رأيه ويدفعه لاختيار سيناري آخر.

كانت هذه الأفكار تتصارع في رأسي الحزين، فتخلف لدي شعوراً عميقاً من الضيق الحاد: وكنت أفكر بأني إنسان مسكين، يتمزق بين مصالحه وعواطفه، وهو عاجز عن الاختيار والتقرير. والله وحده يعلم كم كنت سأقضي من الوقت في المصعد، متردداً ضائعاً، لو لم تفتح امرأة شابة الأبواب، وذراعاها محملتان بالرزم. وخنقت صرخة ذعر إذ اكتشفتني مسمراً في مكاني أمامها، ثم استدركت نفسها، فدخلت وهي تسألني أي طابق أقصد، فقلت:

- الطابق الأخير.

فقالت وهي تضغط على الزر:

- أما أنا، فالثاني.

وصعد المصعد.

وخرجت إلى العتبة في شعور من العزاء العميق، ولم أستطع الامتناع عن محاكمة عقلي: «حقاً، في أية حالة أنا حتى أتصرف على هذا النحو؟ كيف وصلت إلى هذا؟»، فدخلت منزلي، وأنا أفكر بهذا، ودفعت باب قاعة الجلوس. وإذ ذاك رأيت أميلي متمددة على الديوان، في الروبدشامبر، وبيدها كتاب. وعلى مقربة من الديوان، كانت ثمة طاولة صغيرة تحمل صحوناً وبقايا طعام. إن إميلي لم تخرج، وهي لم تتناول الغداء في بيت أمها، لقد كذبت عليّ...

ولا بد أن وجهي كان ذا هيئة غريبة، لأنها سألتني، بعد أن ألقت علي نظرة:

- ما بك؟ ماذا حدث لك؟

فقلت بصوت مخنوق:

- ألم يكن المفروض أن تتغدي في منزل أمك؟ فكيف حدث أنك هنا؟ لقد قلت لي إنك ستتناولين الغداء في الخارج...

فأجابت في هدوء:

- لقد تلفنت لي في اللحظة الأخيرة... وقد فكرت بأنك لم تكن بعدُ عند بازيتي.

كنت واثقاً من أنها كانت تكذب، ولم أكن أدري علام كان هذا اليقين قائماً. ولكني كنت عاجزاً عن إعطائها دليلاً، وكذلك عن إعطاء نفسي، فسكت وجلست بدوري على الديوان. وبعد لحظة سألتني، فيما هي تقلب صفحات مجلتها، من غير أن ترفع إلي عينيها:

- وأنت، ماذا فعلت؟

- لقد دعاني بازيتي وزوجته إلى تناول الغداء.

وفي هذه اللحظة، رن جرس التلفون في الغرفة المجاورة. وفكرت: «إنه باتيستا، وسأقول له إني عزمت على ألا أشتغل بهذا

السيناريو.. فليذهب كل شيء إلى الجحيم! إنه من الواضح تماماً أن هذه المرأة لا تملك ذرة من الحب لي..».

ولكن أميلي، بلا مبالاتها العادية، استعجلتني تقول:

- اذهب فانظر من يتلفن، إنها مخابرة لك بكل تأكيد.

فنهضت وخرجت. وكان جهاز التلفون في الغرفة المجاورة على طاولة السرير. وقبل أن أرفع السماعة، ألقيت نظرة على السرير بوسادته الوحيدة، فشعرت بقراري يتوكد: لقد انتهى الأمر، إنني سأرفض السيناريو، ثم أترك أميلي.

ورفعت السماعة إلى أذني، ولكن بدلاً من صوت باتيستا، سمعت صوت حماتي تسألني:

- ريشار، هل أميلي هنا؟

وقبل أن أفكر أجبت:

- لا، ليست هنا... لقد قالت لي إنها تتناول الطعام عندك... لقد خرجت، وكنت أظن أنكما معاً...

فقال الصوت مندهشاً:

- عجباً، ولكني تلفنت لها أن ذلك لم يكن ممكناً، لأن هذا هو يوم عطلة خادمتي.

وفي تلك اللحظة، رفعت عيني فرأيت عبر الباب الذي ظل مفتوحاً أميلي متمددة على الديوان وهي تنظر إليّ، ولاحظت أن عينيها المحددتين فيَّ كانتا محملتين بكراهية إرادية واحتقار بارد أكثر مما كانتا محملتين بالدهشة. وأدركت أنني أنا الذي كذبت، وأنها كانت تعرف سبب كذبي. وتمتمت إذ ذاك ببضع كلمات توديع، ثم صرخت فجأة في جهاز التلفون، كما لو أني أستدرك قائلاً:

- لا... انتظري... لقد وصلت أميلي في هذه اللحظة... سأعطيك إياها.

وفي الوقت نفسه أومأت لأميلي أن تأتي إلى التلفون. فنهضت عن الديوان، واجتازت القاعة خافضة الرأس، وتناولت السماعة من يدي من غير أن تنظر إلي ولا أن تشكرني. وتوجهت نحو قاعة الاستقبال، فرأيتها تقوم بحركة تنم عن نفاد صبر كما لو أنها كانت تأمرني بأن أغلق الباب. فأطعت، وجلست على الديوان ممتلئاً بالاضطراب، وأخذت أنتظر.

ظلت أميلي مدة طويلة على التلفون، وقد خيل إلي، وأنا في وضعي من نفاد الصبر المؤلم القلق، أنها كانت تتقصد ذلك تقصداً. ولكن محادثاتها التلفونية مع أمها كانت دائماً طويلة جداً. كانت شديدة التلعق بأمها التي ظلت أرملة والتي لم يكن لها سواها بعد، ويبدو أنها قد جعلت منها كاتمة أسرارها.

وفتح الباب أخيراً، فظهرت أميلي مرة ثانية. وظللت أبكم جامداً، وفهمت من تعابير وجهها الشديدة القسوة أنها كانت غاضبة علي. وسرعان ما هاجمتني وهي تصفّ الصحون الباقية على الطاولة الصغيرة:

- هل أصبحت مجنوناً؟ لماذا قلت لأمي إني كنت في الخارج؟

وظللت مغلق الفم، منزعجاً باللهجة التي كانت تستعملها. وأضافت تقول:

- لقد كان ذلك لكي ترى هل قلت الحقيقة؟ ولتتأكد هل من الصحيح أن أمي كانت قد أخبرتني أنها لم تكن تستطيع أن تتغدى معي؟

فأجبت في جهد:

- ربما بسبب هذا، في الواقع..

- أرجوك إذن ألا تعيد هذا... إنني أقول الحقيقة، وليس لدي ما أخفيه.. إنني لا أستطيع أن أحتمل هذا النوع من التصرف...

ونطقت بهذه الكلمات بلهجة حاسمة ثم خرجت من القاعة.

وظللت وحدي، وتذوقت لحظةً الشعور المرير بالانتصار. لقد كان ذلك صحيحاً إذن: إن أميلي لم تعد تحبني، ولو كنا في الماضي، لما حدثتني قط بهذه اللهجة، بل كانت تقول لي في رقة ممزوجة بالدهشة المرحة:

- ولكن هل كنت تظن حقاً بأني كذبت عليك؟

ولكانت ضحكت، كما لو أن المسألة خطأ طفولي يغتفر، ولربما أظهرت بعد ذلك روحاً دعابية:

- لعلك تشعر حقاً بالغيرة؟ ألا تعرف إذن أنك غرامي الوحيد؟

ولكان كل شيء ينتهي بقبلة شبه أمومية، أو بملامسة من يديها الكبيرتين الطويلتين على جبيني كما لتطرد كل همّ أو ريبة.

ومن الصحيح أني في ذلك العهد ما كنت أفكر قط بأن أراقبها، ولا أن أشك في كلامها. ولكن كل شيء قد تغيّر: هي في حبها، وأنا في حبي، وكان كل شيء يبدو متجهاً نحو تغيّر أسوأ.

ولكن الإنسان يريد دائماً أن يؤمل، حتى حين يكون مقتنعاً بأن ليس ثمة بعد من أمل. لقد حصلت على الدليل بأن أميلي لم تكن تحبني بعد، ومع ذلك، فقد كان ما يزال في نفسي شك، أو بالأحرى أملٌ بأني قد فسرت تفسيراً خاطئاً حادثاً لا أهمية له في الحقيقة. وقلت لنفسي إنه كان ينبغي لي ألا أستعجل الأمور، وإن على أميلي نفسها أن تؤكد لي أنها لم تكن تحبني بعد: هي وحدها من يستطيع أن يعطيني الأدلة التي كنت مفتقراً إليها بعد.

كانت جميع هذه الأفكار تتتابع بسرعة في ذهني بينما كنت أنظر

في الفراغ، وأنا جالس على الديوان. ثم دخلت أميلي، وعادت تتمدد خلفي، واستأنفت قراءة مجلتها، وقلت لها إذ ذاك من غير أن ألتفت:

- سيتلفن لي باتيستا بعد قليل ليعرض عليّ سيناريو جديداً... وهي عملية مربحة جداً هذه المرة...

- ستكون مسروراً كما أعتقد؟

- بإمكاني أن أربح من هذا السيناريو مالاً كثيراً، ما يتيح لي أن أواجه تسديد قسطين على الأقل من ثمن الشقة...

فلزمتْ الصمت هذه المرة. واستطردت أقول:

- ثم إنه يمثل أهمية كبيرة لي، لأني إذا وضعته، فسيكون عليّ أن أضع سواه بعد ذلك... إنه فيلم كبير.

فسألتْ أخيراً، بصوتها الشارد، صوت من يتكلم وهو يقرأ، ومن غير أن يغادر الصفحة بعينيه:

- أيّ فيلم؟

فأجبت بصوت احتفالي:

- لا أدري، والحقيقة أني قررت أن أرفض هذا العرض.

فسألتْ بصوت ما يزال هادئاً، لا مبالياً:

- ولماذا؟

فنهضت واستدرت حول الديوان وأتيت أجلس قبالتها. وخفضت أميلي المجلة التي كانت تقرأها، ونظرت إليّ، فمضيت أقول بكل إخلاص:

- لأنك كما تعلمين أكره هذا النوع من العمل، ولا أقوم به إلا محبة لك... لندفع أقساط هذه الشقة التي تحرصين عليها أو تبدين أنك تحرصين عليها إلى هذا الحد... ولكني تيقنت أنك لا تحبينني بعد.. ولهذا فإن ذلك كله يصبح بلا فائدة..

كانت تنظر إليّ بعينين كبيرتين، من غير أن تنبس بكلمة:

- إنك لا تحبينني بعد.. وعلى ذلك، فإني سأترك هذه المهنة.. أما البيت.. فإني سأرهنه أو أبيعه.. إنني لا أستطيع الاستمرار في العيش على هذا النحو، وأشعر أن الأوان قد آن لأقول لك ذلك.. أنت تعرفين الآن... إن باتيستا سيتلفن عما قليل، وسأرسله إلى الشيطان.

انقضى الأمر وتكلمت، وقد آذنت ساعة الشرح والتوضيح التي كنت أريدها وأخشاها في وقت واحد. وكنت أحس عزاء لهذه الفكرة، وكنت أحدق في أميلي بصراحة جديدة كل الجدة، منتظراً جوابها. ولم تجب في الحال. إن تصريحي المفاجئ قد أخذها طبعاً على حين غرة، ثم قالت بحذر، كما لو أنها تريد أن تكسب وقتاً:

- هل هناك ما يجعلك تفكر بأني لا أحبك بعد؟

فأجبت بعنف مهووس:

- كل شيء.
- مثلاً؟
- قولي لي أولاً إن كان هذا صحيحاً أم لا؟

فألحت بعناد:

- عليك أنت أن تقول لي ما الذي يجعلك تفكر هكذا؟

فقلت مردداً:

- كل شيء، طريقتك في الحديث معي، وفي النظر إليّ، وفي تصرفك تجاهي... كل شيء... بل لقد عبّرت منذ شهر عن رغبتك في أن ننفصل في غرفة النوم.. وأنت لم تريدي ذلك قط في الماضي!

كانت تنظر إليّ، غير واثقة، ثم رأيت فجأة في عينيها بريق عزم

سريع، وكنت واثقاً من أنها قد حددت الموقف الذي ستتخذه مني، ولن يغير شيءٌ خط سيرها، مهما قلت أو فعلت. وقد أجابت في رقة:

- أؤكد لك، وأستطيع أن أقسم بشرفي، أني لا أستطيع أن أنام والنافذة مفتوحة... إني بحاجة إلى الظلام والصمت... أقسم لك...
- ولكني عرضت عليك أن تغلقي النافذة ليلاً.
- ثم إن هناك شيئاً آخر (وترددت) فأنت لا تكون صامتاً وأنت نائم...
- ماذا تقصدين؟
- إنك تشخر (وابتسمت بسمة خفيفة وأضافت) كنت توقظني كل ليلة، ولهذا قررت أن أنام وحدي.

وأدهشني أن أعلم أني كنت أشخر، وكدت لا أصدق ذلك، لقد نمت من قبل إلى جانب نساء أخريات: فلم تشكُ أية واحدة من شخيري. واستطردت:

- إنك لا تحبيني بعد لأن امرأة محبة (وترددت منزعجاً) لا تقوم بفعل الحب كما تقومين أنت به معي منذ حين...

وسرعان ما احتجت، بمرارة تقريباً:

- إنني أتساءل حقاً ماذا تريد؟ فنحن نقوم بفعل الحب كلما رغبتَ في ذلك.. هل رفضتُ يوماً هذا؟

كنت أعلم أنني، في هذا النوع من الحديث الحميم، كنت أنا أوفر على الاثنين حشمة وحياء وارتباكاً. أما أميلي التي هي في العادة شديدة التحفظ، فقد كانت تبدو وكأنها تفقد في الصميمية كل حشمة وكل انزعاج، بل كان يحدث لها أحياناً ـ وهذا ما كان يدهشني بغموض ويجذبني في الوقت نفسه بما لا أدري من البراءة ـ أن تتكلم قبل فعل الحب وفي أثنائه وبعده، عن الحب نفسه، بلا تحفظ ولا حنان مغطى، بل بفجاجة وحرية محيّرتين.

وتمتمت بين أسناني:

- صحيح أنك لم ترفضي، ولكن...

فقاطعتني واستمرت تقول بحيوية:

- في كل مرة أردت أن تقوم بفعل الحب، استجبت لك.. ولستَ رجلاً يكتفي بمجرد الفعل... إنك تحسن القيام بفعل الحب جداً...

قلت وقد أثارني الغرور، بالرغم مني:

- صحيح؟

قالت بجفاف من غير أن تنظر إليّ:

- نعم... إذا كنت لا أحبك.. فإن تفننك نفسه كان يبدو لي مضجراً، ولسعيت إلى التهرب.. إن بوسع المرأة أن تجد دائماً أعذاراً للتمنع، أليس كذلك؟

قلت: ـ مفهوم... إنك لم تتمنعي قط.. ولكن طريقتك في فعل الحب هي التي تثبت لي أنك لا تحبينني!

- وما هي هذه الطريقة؟

كان عليّ أن أجيبها: «إنك تقومين بفعل الحب كالمومس الخاضعة لزبونها، والتي تتمنى بكل بساطة أن يتم الأمر بسرعة...»، ولكني احتراماً لها ولي، فضلت أن أصمت. ولو قلت ذلك لأنكرت وربما ذكرتني، بدقة تكنيكية، بعض اندفاعاتها الشهوانية التي كان يتجلى فيها كل شيء: المرونة والتماس اللذة والضراوة والعنف الغرامي، كل شيء ما عدا الحنان والاستسلام الصادرين عن عطاء الذات الحقيقي. وما كنت أعرف ما الذي أقابلها به، وبالإضافة إلى ذلك، فإني سأخطئ خطأً جسيماً إذا جرحتها بتشبيه مذل. وأدركت أن التوضيح الذي كنت أريد أن أفسح له المجال قد تلاشى، وقد حزنت واكتفيت بالقول:

- بالإجمال، ومهما كان السبب، فأنا مقتنع بأنك لا تحبينني بعد، هذا كل شيء...

فحددت فيّ نظرها قبل أن تجيبني أو قبل أن تقوم بحركة، كما لو أنها تريد أن تعرف من تعبير وجهي الموقف الذي يحسن أن تتخذه. ولاحظت آنذاك عندها تفرداً كنت أعرفه من قبل: لقد كان وجهها الجميل الأسمر الهادئ، المنسجم، يُصاب وهي في التردد الذي يمزق نفسها، بنوع من التحلل، فتصبح وجنتاها متنافرتين، إذ تبدو إحداهما وقد هزلت فجأة، وينجذب فمها من جهة، وتبدو عيناها الزائغتان المعتمتان وكأنهما تذوبان في محجريهما كما في شمع مظلم. لقد قلت إني كنت أعرف هذا التفرد، والواقع أنه كان يظهر كل مرة كانت تتخذ فيها قراراً لم يكن يروق لها أو هو ينافي طبعها.

لقد ألقت فجأة ذراعيها حول عنقي، في اندفاعة مفاجئة من شخصها كله، وهي تهتف بصوت بدا غريباً في مسمعي:

- لماذا تتكلم هكذا يا ريشار؟ إنني أحبك لا أكثر ولا أقل من الماضي!

وشعرت بنَفَسها الحار على رأسي، ولامست يدها جبيني وصدغي وشعري، وجذبت رأسي إلى صدرها وضمته بذراعيها.

ولكن خطر في ذهني أنها كانت تعانقني على هذا النحو لتخفي عني وجهها الذي ربما كان فقط منزعجاً متوتراً كما يحدث حين يُعمل شيء ما بلا أدنى مشاركة روحية، بل بمحض الإرادة. وفيما كنت أضغط رأسي على صدرها نصف العاري الذي كان يعلو ويهبط بأنفاسها الهادئة، لم أستطع الامتناع، وأنا في حنيني اليائس إلى الحب، عن التفكير: «ليست هذه إلا حركات... أمن الممكن ألا تخون نفسها فتعبّر عن نيتها بعبارة أو بلهجة؟».

وكنت أنتظر، وأنتظر، حين سمعت صوتها يقول في تحفظ:

- ما الذي ستفعله لو كففتُ حقاً عن حبك؟

لقد كشفت عن نفسها: كنت إذن على حق، وكنت أستطيع أن أتذوق انتصاري المرير. كانت أميلي تريد أن تعرف ما عساه يكون رد فعلي إذا كفت عن حبي، لكي تعيش الأخطار التي تنتج عن صراحة كاملة. ومن غير أن أتحرك، تمتمت ورأسي ما يزال في صدرها العذب الدافئ:

- لقد سبق أن أجبتك على هذا السؤال... سأرفض أولاً عرض باتيستا.

وكنت أود أن أضيف: «وسأنفصل عنك»، ولكني لم أملك الشجاعة لأن أقول ذلك في تلك اللحظة، وخدي على نهدها ويدها على جبيني. وكنت أؤمل في أعماقي أن تظل متعلقة بي، وأخشى على هذا الانفصال المقبول نظرياً، أن يصبح حقيقياً.

وسمعتها تتنهد وهي ما تزال تضمني إليها:

- ولكني أحبك، وهذا كله عبث... أتدري ما الذي ستفعله؟ حين يتلفن لك باتيستا ستحدد له موعداً، فتوافيه إليه وتقبل هذا العمل...
- ولكن لماذا، ما دمت لا تكنّين لي بعد أي عاطفة؟

فأجابتني هذه المرة بلهجة تعقل:

- أحبك، لا تجعلني أكرر ذلك... وأنا حريصة على أن أبقى هنا.. أما إذا كان هذا العمل لا يروق لك، فلن أناقش في الأمر.. ولكن إذا كنت تريد أن تتخلى عنه لأنك تتصور أني لست متعلقة بك بعد ولا بمنزلنا، فاعلم إذن أنك على خطأ...

وداعبني أملٌ غامض في أنها لا تكذب عليّ، وشعرت في الوقت نفسه أنها قد أقنعتني، لهذه اللحظة على الأقل. ولكن كم كنت أود الآن أن أعرف المزيد، وأن أطمئن كل الاطمئنان!

وإذ ذاك رأيتها تتكلم ببساطة، كما لو أنها حدست برغبتي، فتتمتم:

- قبِّلني. هل تريد؟

فاستويت وتأملتها لحظة قبل أن أعانقها، وتوقفت عند تعبير التعب الذي كان يطبع وجهها المتحلل المتردد أكثر من أي وقت مضى، كما لو أنها إذ حدثتني وداعبتني وعانقتني إنما بذلت جهداً فوق الجهد البشري. وكانت تتهيأ وهي تضمني لبذل جهد أشد قسوة. وقد أخذتها من ذقنها، وأدنيت شفتي من شفتيها حين رن جرس التلفون، فقالت وهي تتخلص بعزاء واضح:

- إنه باتيستا.

وركضتْ نحو الغرفة. ومن الديوان الذي ظللت جالساً عليه، رأيتها عبر الباب المفتوح تتناول السماعة وتقول:

- نعم، إنه هنا، وسأعطيك إياه... كيف حالك؟

كلمات أخرى من الجهة المقابلة من الخط. وقالت وهي تومئ لي بيدها إيماءة ذكية:

- كنا بالفعل نتحدث عنك وعن فيلمك الجديد...

عبارات أخرى مجهولة... ثم من جديد صوتها الرصين:

- ولكن طبعاً، سنلتقي كالسابق، إنني أعطيك ريشار.

وذهبت أتناول السماعة. وكما توقعت من قبل، أخبرني باتيستا أنه سينتظرني في اليوم التالي في مكتبه، بعد الظهر. فأجبته أني سأقصده، وتبادلت معه بضع كلمات أخرى ثم وضعت السماعة.

وإذ ذاك فقط لاحظت أن أميلي، بينما كنت أتكلم، كانت قد خرجت من الغرفة. وفكرت تفكيراً طبيعياً بأنها ذهبت لأنها اطمأنت إلى أني قبلت موعد باتيستا، فلم يكن وجودها وملاحظاتها بعد الآن ضرورية!

الفَصل الثَّامِن

في اليوم التالي اتجهت إلى الموعد المحدد في الساعة المحددة. وكان مكتب باتيستا يشغل كامل الشقة الأولى من بيت قديم، سبق أن سكنته أسرة أرستقراطية، وأصبح الآن، كما يحدث ذلك في أيامنا، مقرّ عديد من الشركات التجارية. وكان باتيستا قد قسم بحواجز خشبية الصالونات الواسعة ذات السقوف المدهونة، والجدران المغطاة بالملاط، وجعل منها عدداً من الغرف الصغيرة المؤثثة بشكل نفعي. وحيث كان معلقاً في الماضي لوحات قديمة ذات موضوع ميثولوجي أو مقدس، كانت تُرى اليوم إعلانات دعائية كبيرة ذات ألوان صارخة؛ وكان مسمراً في كل مكان صور ممثلين وممثلات، وصفحات من مجلات مصورة، وشهادات مؤطرة لجوائز مهرجانات وزينات أخرى أصبحت كلاسيكية في مراكز الشركات السينمائية.

وكان يقوم في الغرفة الملحقة، على أرضية من التصاوير الخضراء الذاهبة اللون، مقعد معدني كبير مطليّ باللون الأخضر، وكانت خلفه ثلاث سكرتيرات أو أربع يستقبلن الزائرين.

كان باتيستا منتجاً شاباً استطاع خلال هذه السنوات الأخيرة أن يشق طريقه بفضل أفلام ذات نوعية مسطحة بما فيه الكفاية، ولكنها ذات نجاح تجاري مرموق. وكانت شركته المسماة بتواضع «أفلام النصر» تتمتع في ذلك الحين بحظوة ممتازة.

في تلك الساعة، كانت الغرفة الملحقة غاصّة؛ وبنظرة واحدة صنّفتُ بلا تردد، بما كنت قد كسبته من خبرة في هذه المادة، الزائرين إلى فئات: السينارين الذين كانوا يُعرفون من مشيتهم المنهمكة المتعبة في وقت واحد، ومحافظهم التي يشدونها تحت الذراع، وثيابهم المتكلفة والمهملة في وقت واحد؛ وإمبرازاريو سينمائي قديم، شبيه بساعي بريد قروي أو دلّال خيل؛ وفتاتان أو ثلاث، ممثلات، ربما كنّ جذابات، ولكنهن فاسدات فساداً مبكراً بتعبير مدروس وماكياج مبالغ به، وزينة متكلفة ومطامح واضحة؛ وأخيراً بعض الأفراد غير القابلين للوصف، من النوع الذي لا يغيب أبداً في الغرفة الملحقة للمنتجين: ممثلون بلا عمل، كتّاب مرتجلون، متسولون من كل نوع. ولقد كان جميع هؤلاء الأشخاص يذرعون الأرض الفسيفسائية المسودة ذهاباً وإياباً، أو يغوصون في المقاعد المذهبة المصطفة بإزاء الجدران، متثائبين أو مدخنين أو متحدثين بصوت خافت.

وكانت السكرتيرات، إذا لم يُجبن على المخابرات التلفونية العديدة، يبقين جامدات خلف المقعد، وهن يحدقن في الفراغ بأعينهن التي كان السأم وغياب الأفكار يجعلانها زجاجية وشبه حولاء. وكان صوت جرس حادّ ومزعج يُسمع بين الفينة والفينة؛ فكانت السكرتيرات ينتفضن، ويقذفن باسم من الأسماء، فينهض أحد الزوار على عجل ويختفي خلف باب ذي مصراعين أبيضين مذهبين.

وأعطيت اسمي وذهبت بدوري أجلس في جوف القاعة. وكنت في حالة نفسية في مثل يأس حالة الأمس، ولكن كنت أحسني أكثر هدوءاً. فبعد محادثتي مباشرة مع أميلي، كنت قد فكرت طويلاً واقتنعت نهائياً أنها قد كذبت عليّ إذ أكدت لي حبها؛ ولكني كنت في هذه المرة، بدافع من ذهاب الحماسة، ومن إرادة قوية في إجبار

زوجتي على التفسير الكامل الصريح الذي لم أكن قد حصلت عليه بعد، كنت قد تخليت، موقتاً على الأقل، عن التصرف وفق مخططاتي. إنني إذن لن أرفض اقتراح باتيستا، بالرغم من أني أعرف أن عملي بعد الآن لم يكن له من هدف بعد، شأنه في ذلك شأن حياتي كلها. ولن يفوت الأوان فيما بعد، حين أنتزع الحقيقة من أميلي، على إيقاف عملي والاستغناء عن كل شيء. بل إن هذا الحلّ الأكثر مسرحية، كان أكثر ملاءمة لي، على نحو ما: فإن الفضيحة والضرر الناتجين إذا وقعا سينمّان عن يأسي، وفي الوقت نفسه عن إرادتي في وضع حد للترددات والتسويات.

كنت أحسني، كما قلت، هادئاً، ولكن هدوءاً قريباً من الخمود والسكون؛ إن ألماً غير محدود يخلق ألواناً من القلق لأن المرء يؤمل حتى النهاية ألا يكون هذا الألم حقيقياً؛ أما الألم الأكيد فهو يوحي، فترة من الزمن، بطمأنينة كئيبة. كنت أحسني هادئاً، ولكني كنت أعرف أن ذلك لم يكن لمدة طويلة؛ كانت المرحلة الأولى، وهي مرحلة الشك، قد انتهت ـ أو هكذا كنت أظن على الأقل ـ وستبدأ عما قليل مرحلة الألم والثورة والندم. ولم أكن أجهل أن هدوءاً مميتاً، أشبه بهذا السكون المزيف الخانق الذي يسبق آخر انفجارات العاصفة، كان يقوم بين هاتين المرحلتين.

وفيما كنت أنتظر أن أدخل على باتيستا، خطر لبالي أني حتى ذلك الحين كنت قد اكتفيت بالتأكد من وجود حبّ أميلي أو عدم وجوده. أما وأني كنت أحسبني أعرف الآن أنها لا تحبني بعد، فقد كان بإمكاني ـ وقد أدهشني هذا الاكتشاف ـ أن أعالج مشكلة أخرى، هي مشكلة سبب لامبالاتها. فإذا ما اكتُشف هذا السبب، أصبح من الأسهل عليّ أن أجبر زوجتي على توضيح موقفها.

ويجب عليّ أن أقول إن هذه المسألة الجديدة قد أيقظت فيّ عدم التصديق وبدت لي مستحيلة، غير قابلة للوقوع. إن أميلي لا يمكنها أن يكون لديها أيّ سبب للانفصال عني. ومن أين كان يأتيني يقيني بهذا الموضوع؟ إنني لا أدري؛ ولكني من جهة أخرى، لم أكن أستطيع أن أشرح لماذا؛ فبينما كانت في رأيي لا يمكن أن يكون لها أي مبرر لأن تكف عن حبي، فإن كونها لا تحبني بعد لم يكن أقل من ذلك يقيناً. وكنت أفكر، وأنا تائه بسبب هذا التناقض بين قلبي وفكري؛ ثم انتهى بي الأمر إلى القول، كما يحدث حين يواجه المرء بعض مسائل الهندسة: «لنفكر بدءاً من اللامعقول: إن هناك سبباً؛ ففي هذا الفرض، ما عسى أن يكون هذا السبب؟».

ولاحظت أن المرء بقدر ما يكون مغموراً بالشك، يشتد تعلقه بتبصر زائف للفكر، على أمل أن يوضّح بالحجة ما جعلته العاطفة معتكراً وغامضاً. وفي تلك الساعة التي لم تكن فيها غريزتي تعطيني إلا أجوبة متناقضة، أردت أن ألجأ إلى تحقيق مبني على الحجج، منظَّم على طريقة التحري في الرواية البوليسية: لقد قُتل شخص ما، والقضية هي البحث عما سبّب القتل، ومن هناك ننتقل بسهولة إلى القاتل... وقد كانت الأسباب، بالنسبة لأميلي، يمكن أن تكون من نوعين: الأول يتعلق بها، والثاني بي. ولكن الأسباب الأولى تتلخص في سبب واحد، كما لاحظت بسرعة: إن أميلي لم تكن تحبني بعد، لأنها كانت تحبّ شخصاً آخر.

لقد حسبت لأول وهلة أن بإمكاني أن أُبعد في تصميم، هذا الفرض. فليس في سلوك أميلي الحديث ما يمكّن من التفكير بوجود رجل آخر في حياتها؛ بل لقد كنت ألاحظ، على العكس، انتكاساً في وحدتها وفي تبعيتها لي. كانت تلازم بيتها بصورة دائمة تقريباً، وكانت

تقضي وقتها في المطالعة وفي مخابرة أمها أو في الانصراف إلى أعمالها المنزلية؛ أما بشأن ألوان التسلية عندها، كالسينما والنزهات وتناول العشاء في المطعم فقد كانت مرتبطة بي ارتباطاً وثيقاً. صحيح أن حياتها كانت من قبل أكثر تنوعاً، وبصورة متواضعة، أكثر اتصالاً بالناس في العهود الأولى من زواجنا، حين كانت ما تزال تحتفظ بصداقاتها كفتاة. ولكن هذه الصداقات ما لبثت أن انحلّت، وزاد تعلقها بي، في تبعيّةٍ كانت من فرط الوثوق أحياناً بحيث غدت تزعجني. ولم تكن هذه التبعية قد خفّت مع برود عاطفتها تجاهي. إنها لم تسع إلى أن تحلّ محلّي، حتى ولا أن تفعل أي شيء خارجاً عني. كانت تنتظر الآن، بلا حب، عودتي من العمل، كما في الماضي، وتسلياتها الوحيدة التي كان تحققها معي. وفي هذه التبعية الخالية من الحب، كانت ثمة ما هو مؤثر وكئيب، موقف مخلوق يملك نزعة الإخلاص ويبقى مخلصاً بالرغم من أن أسباب إخلاصه قد انتفت. لقد كان بوسعي أن أؤكد في يقين أنها لم يكن لها في حياتها إلّاي، بالرغم من أنها لم تعد تحبني.

ومن جهة أخرى، كنت أعرفها أو أحسب أني أعرفها معرفة كافية لأعلم أنه لم يكن بإمكانها أن تكون مغرمة برجل آخر. كنت أعلم أنها غير قادرة على الكذب؛ كانت تملك قبل كل شيء صراحة خشنة لا هوادة فيها يبدو أمامها كل زيف مضجراً ومتعباً وصارماً. ثم إنها كانت تفتقر كلياً إلى الخيال، إلى حد أنها لم تكن تستطيع الاهتمام بأي شيء إذا لم يكن محسوساً وحقيقياً مئة بالمئة.

وإذن فقد كنت واثقاً أنها إذا أحبت شخصاً آخر، وهي تملك هذا الطبع، فإنها لن تجد أفضل من أن تخبرني بذلك على الفور، وبوحشية قاسية هي خاصية طبقتها كبورجوازية صغيرة. لقد كانت

تستطيع بلا ريب أن تكون ـ وقد كانت بالفعل الآن ـ كتومة وصامتة في ما يخصّ تغيّر عواطفها تجاهي؛ ولكن كان يكون شاقاً عليها إن لم يكن مستحيلاً أن تعيش حياة مزدوجة فتخفي الخيانة، أي تخترع تلك المواعيد لدى الخياطة، وتلك الزيارات لأهل لها أو صديقات، وتلك الألوان من التأخر بسبب مشهد وقفت عنده أو ازدحام الشوارع ـ تلك الأعذار التي تلجأ إليها النساء عادة في مثل هذه الظروف. لا، إن برودتها تجاهي لم تكن تعني أنها كانت تلتهب بالنسبة لرجل آخر. فلئن كان ثمة من سبب ـ ولا بد أن يكون هناك سبب ـ فلا ينبغي التماسه في حياتها، بل في حياتي.

كنت من شدة استغراقي في أفكاري بحيث لم ألاحظ على الفور أن إحدى السكرتيرات كانت واقفة أمامي وهي تردد لي مبتسمة:

ـ يا سيد مولتيني، إن السيد باتيستا ينتظرك.

فانتفضت وتركت قضيتي موقتاً معلقة، ودخلت مسرعاً إلى مكتب المنتج.

وفي جوف صالة واسعة ذات سقف مطليّ، وجدران مغطاة بالأوراق المذهبة، كان باتيستا جالساً خلف مكتب معدني مطليّ بالأخضر، شبيه بالذي يقوم في الغرفة الملحقة. وأنا ألاحظ أني بالرغم من حديثي الكثير عن باتيستا، لم أصفه بعد، وإنه ليس من غير المجدي أن أفعل ذلك.

كان باتيستا واحداً من هؤلاء الرجال الذين يعطيه مساعدوه ومرؤوسوه، حين يدير ظهره، أوصافاً جميلة من مثل «الوحش»، «القرد الأكبر» «الغوريلا». ولا أستطيع أن أنكر حظ الحقيقة الموجود في هذه الأوصاف، على الأقل بالنسبة لمظهر باتيستا الجسدي، ولكني أكره أن أنبذ أيّ إنسان بأي لقب، ولم يسبق لي أن استعملت

مثل هذه التسميات، لا سيما أنها كانت مخطئة في كونها لا تحسب حساباً لسمة من شخصية باتيستا شديدة البروز، أقصد دهاءه، حتى لا أقول براعته، الذي يكمن وراء وحشيته الظاهرية. صحيح أنه كان وحشاً كبيراً، ذا حيوية مستمرة متدفقة، ولكن هذه الحيوية لم تكن تبدو فقط في قابلياته المتعددة. بل كانت تتبدى في التفنن الدقيق الذكي الذي كان يلجأ إليه لإرضاء هذه القابليات.

كان باتيستا ذا قامة ربع، وكتفين واسعين جداً، ونصف أعلى طويل ذي ساقين قصيرتين؛ ومن هنا تشابهه مع قرد كبير، هذا التشابه الذي استحق عليها تلك الألقاب. وقد كان في وجهه كذلك شيء قرديّ: فقد كان شعره الذي ينجل عن صدغيه مزروعاً في منخفض جبينه؛ وكان ذا حاجبين كثيفين متحركين، وعينين صغيرتين، وأنف قصير عريض، وفم واسع متقدم الفكين بعض الشيء، بلا شفتين تقريباً، وهو دقيق كأنه الحزّة. ولم تكن لباتيستا بطن، بل معدة، أقصد أنه كان يحمل إلى أمام الصدر وأعلى الجوف. وكانت يداه القصيرتان الصلبتان يغطيهما شعر أسود كان يمضي إلى أبعد من الرسغين، حتى إلى ما تحت أكمامه؛ وقد سبق لي أن لاحظت، إذ كنا يوماً معاً على شاطئ البحر، أن صدره وكتفيه كانت مقنفذة بالشعر الذي كان يتدلى حتى البطن.

وقد كان هذا الرجل ذو المظهر الوحشي يتكلم بصوت رقيق، مليء بالإيماءات، مصالح بلهجة مائعة، ذات لكنة، لأنّه كان مولوداً في الأرجنتين. وفي ذلك الصوت اللامتوقع الأخاذ، كنت أرى دليلاً على تلك البراعة والدقة اللتين تحدثت عنهما. ولم يكن باتيستا وحده، فقد كان جالساً أمام المكتب رجلٌ قدّمه لي تحت اسم «رينغولد».

وكنت أعرف من يكون هذا الشخص، ولكني كنت أراه للمرة

الأولى. كان رينغولد مخرجاً ألمانياً سبق له، في عهد السينما السابقة للنازية، أن أخرج عدة أفلام من نوع الـ «كولوسال» التي أحرزت نجاحاً هائلاً. صحيح أن رينغولد لم يكن من مستوى أمثال «بابسيت» أو «لانغ»، ولكنه كان مخرجاً ذا وزن ولم تكن له روح تجارية، وكانت مطامحه جادة، بالرغم من أنها قابلة للمناقشة. وبعد صعود هتلر، سقط هو في النسيان. وقد رُوي أنه كان يعمل في هوليوود، ولكن لم يُعرض أيّ فيلم من إخراجه خلال السنوات الأخيرة في إيطاليا، وها هو يعود إلى الظهور بصورة غريبة في مكتب باتيستا.

وفيما كان باتيستا يتحدث، كنت أنظر إلى رينغولد في فضول. هل سبق لك أن رأيت على إحدى القواعد القديمة صورة غوته؟ كان وجه رينغولد النبيل، الأولمبي، يذكّر بتلك الصورة، وبذلك الرأس ذي العينين الفضيتين اللامعتين. كان حقاً رأس رجل عظيم؛ على أن امتحاناً أدق جعلني ألاحظ أن هذه الجلالة وذلك النبل لم يكونا ثابتين؛ كانت الملامح خشنة بعض الشيء وفيها شيء ليفيّ وخفيف، كما في الأقنعة المصنوعة من الورق المقوى المعجن؛ وكان ذلك الوجه يوحي إجمالاً بأنه لم يكن ثمة خلفه شيء، كما في تلك السِحن الكئيبة التي تحملها تلك الرؤوس الضخمة التي يتقنّع بها البلهاء في الكرنفالات.

ونهض رينغولد ليصافحني وهو يحني رأسه ويصفق عقبيه بدقة، فلاحظت إذ ذاك أنه كان قصيراً، ذا كتفين عريضتين تؤكدان جلالة الوجه. ولاحظت كذلك أنه كان وهو يصافحني يبتسم بود كبير، ابتسامة نصف قمرية، كاشفاً لي عن صفين من الأسنان البيضاء شديدة الانتظام، جعلاني أفكر، لا أدري لماذا، بطقم أسنان مستعار. ولكنه إذ جلس، اختفت هذه البسمة دفعة واحدة من غير أن تخلف أثراً،

كما ينطفئ القمر حين تلمّ به غيمة، تاركة المجال لتعبير قاسٍ مستاء ومتسلط في الوقت نفسه.

وتناول باتيستا الأمور من بعيد، على عادته. فقال لي وهو يشير إلى رينغولد:

- كنا نتحدث عن كابري... هل تعرف كابري، يا مولتيني؟

فأجبت: - قليلاً.

فتابع باتيستا:

- إنني أملك فيها مقصورة، وكنت بالفعل أمتدح لرينغولد سحر كابري.. فحتى رجل أعمال مثلي يشعر فيها شعوراً خفيفاً أنه يصبح شاعراً!

وكانت تلك صفة من صفات باتيستا تظهر غالباً: تلك الطريقة في أن يبعث إعجابه بالأشياء الجميلة الطيبة، وبكل ما ينتمي إلى حقل المثالي؛ وكان أكثر ما يحير أن هذه الحماسة كانت صادقة بالرغم من ارتباطها على نحو أو آخر بمقاصد قليلة التجرد. واستطرد بعد لحظات، كما لو أنه قد انفعل بكلماته بالذات:

- طبيعة معطاء.. سماء رائعة.. بحر دائم الزرقة، وزهور وزهور في كل مكان.. أعتقد أني لو كنت كاتباً، مثلك يا مولتيني، فإني أحب أن أعيش في كابري لأستلهمها.. ولا أدري لماذا لا يرسم الرسامون تلك المناظر، بل يعطوننا على العكس لوحات بشعة لا يفهم منها المرء شيئاً.. إن اللوحات في كابري ناجزة إذا صحّ التعبير.. ويكفي أن يقف المرء أمام الطبيعة وأن ينقلها.

ولم أقل شيئاً؛ وكنت أنظر إلى رينغولد بطرف عيني، فرأيته يومئ برأسه موافقاً، ببسمة معلقة في وسط وجهه كهلال في سماء لا غيم فيها. ولكن باتيستا كان يتابع:

- إن في نيتي أن أسافر لأقضي فيها بضعة أشهر، بعيداً عن الأعمال، وللراحة وحدها، ولكني لا أنجح في ذلك... إن لنا نحن سكان المدن حياة ضد الطبيعة.. إن الإنسان لم يُصنع ليعيش في مكتب، بين الإضبارات.. إن أهالي كابري يبدون أسعد منا.. ويكفي أن تراهم مساء حين يخرجون للنزهة: شبان وفتيات ضاحكون، هادئون، فرحون، على غاية اللطف.. ذلك أن لهم حياة تخلو من الأحداث الكبيرة، ولهم مطامع متواضعة، ومصالح صغيرة، ومصاعب صغيرة.. آه! كم أنهم محظوظون!

وساد صمت من جديد. ثم استطرد باتيستا:

- إن لي هناك مقصورة، كما ذكرت لك... ولكني مع الأسف لا أسكنها قط.. ولعلني لم أمكث فيها شهرين منذ أن اشتريتها.. وكنت أقول لرينغولد إن هذه المقصورة ستكون المكان المرتجى لتأليف سيناريو الفيلم.. إن المناظر الطبيعية ستلهمكما، لا سيما أنها من لون الفيلم نفسه، كما أوضحت لرينغولد.

وتدخل رينغولد ليقول:

- إن بإمكان المرء، يا سيد باتيستا، أن يعمل في أي مكان.. واختيار كابري يمكن بالتأكيد أن يكون مناسباً، لا سيما إذا التقطنا المناظر الخارجية في خليج نابولي، كما أعتقد.
- تماماً... على أن رينغولد يقول لي إنه يفضل الإقامة في الفندق بسبب عاداته، وهو يحب من جهة أخرى أن يكون وحيداً في بعض الساعات ليفكر بهدوء في عمله.. وبالمقابل، أعتقد أن بإمكانك أنت، يا مولتيني، أن تسكن المقصورة مع زوجتك.. إن فيها كل وسائل الراحة، ولن يكون من الصعب وجود امرأة لتقوم بأعمال البيت.

وكالعادة، فكرت أولاً بأميلي: إن قضاء فترة من الزمن في كابري، في مقصورة جميلة، يمكن أن يحل أموراً كثيرة. وتيقنت فجأة، بلا سبب، أن كل شيء هناك سيتضح. وكان أن شكرت باتيستا بحرارة صادقة:

- شكراً... أعتقد أنا أيضاً أن كابري مناسبة لكتابة سيناريو... وسنكون أنا وزوجتي سعيدين بالإقامة في مقصورتك.
- حسناً.. اتفقنا إذن!

قالها باتيستا مع حركة من اليد جرحتني في غموض، كما لو أنه كان يود إيقاف سيل من الشكر لم يكن في نيتي قط أن أعبر له عنه. وأضاف:

- اتفقنا.. ستذهبون إلى كابري، وسألحق بكم.. والآن، لنتحدث قليلاً عن الفيلم...

وفكرت: «لقد آن الأوان!» وترصدت باتيستا في تنبّه. وكنت أحس الآن ندماً غامضاً أني قبلت دعوته بهذه السرعة. كنت أحدس، من غير أن أدري السبب، بأن أميلي ستنكر عليّ عجلتي. وفكرت وأنا مغيظ بعض الشيء: «كان ينبغي أن أقول إني سأفكر بالأمر، وإن عليّ أن أستشير زوجتي...»، وكانت الحرارة التي تقبلت بها ذلك العرض تبدو لي في غير محلها، وكنت أستشعر من ذلك بعض الخجل. على أن باتيستا كان يضيف:

- إننا جميعاً متفقون على أننا يجب أن نجد شيئاً جديداً، لقد انتهت فترة ما بعد الحرب، وأصبحت الحاجة ماسة إلى صيغة جديدة... لقد أضجرت الواقعية الجديدة، على سبيل المثال، معظم الناس.. والحال أننا إذا حللنا الدوافع التي أدت إلى هذه التخمة، فإننا لا شك بالغون استنتاج هذه الصيغة الجديدة...

وكما سبق أن قلت، كنت أعرف أن باتيستا كان يفضل ألّا يطرق أية حجة بطريقة مباشرة. إنه لم يكن وقحاً، أو هو على الأقل لم يكن يريد أن يبدو كذلك. وإذن، فقد كان من الصعب عليه أن يقدم المسألة المادية، كما يفعل كثير من المنتجين الأكثر صراحة منه: فإن الاستفادة التي لم تكن أقل أهمية بالنسبة إليه مما هي بالنسبة للآخرين، بل ربما كان العكس هو الصحيح، كانت تظل دائماً في ظل خفي. فحين كان موضوع فيلم من الأفلام لا يبدو له مربحاً بما فيه الكفاية، لم يكن يقول قط: «إن هذا السيناريو لن يعود علينا بأي فلس!»، وإنما كان يقول: «إن هذا السيناريو لا يروق لي لهذا السبب أو ذاك» ـ وكانت هذه الأسباب دائماً فنية أو خلقية. على أن قضية الربح كانت تظل حجر الزاوية، وكان دليل ذلك يقوم حين يقع اختيار باتيستا دائماً على أكثر الحلول نزعة تجارية، بعد مناقشات عديدة حول الخير والشر في الفن السينمائي، عندما يتبدد ما كنت أسميه «ستار الدخان» لديه. ومن أجل هذا، كنت قد فقدت منذ زمن طويل كل اهتمام بآرائه التي لا تنتهي عن الجمال أو القبح، وعن الأخلاقية أو اللاأخلاقية في الأفلام، وكنت أنتظره عند النقطة التي كان ينتهي إليها بصورة حتمية: قضية الأرباح. وفي هذه المرة، فكرت أيضاً: «إنه بالطبع لن يقول إن الفيلم الواقعي الجديد قد أضجر المنتجين لأنه غير مربح.. فلنر قليلاً ما سوف يجدّ...».

وبالفعل، فإن باتيستا استطرد حديثه بعد لحظة تأمل، فقال:

ـ أرى أن الجميع إن كانوا قد ضجروا من الفيلم الواقعي الجديد، فلأنه غير صحي..

وتوقف لحظة، فأرسلت نظرة مواربة لرينغولد الذي لم يأت

بحركة. وانتقل باتيستا، الذي كان يريد بصمته أن يؤكد على كلمة «صحي»، إلى شرح فكرته، فقال:

- حين أقول غير صحي، أعني أن هذا النوع من الأفلام لا يشجع على الحياة.. لا يمنح الثقة بالحياة.. إنه مؤس، متشائم، أسود.. فبصرف النظر عن أنه يمثل إيطاليا على أنها بلد الفقراء ذوي الأسمال ـ وهذا ما يسرّ الأجانب الذين يهمهم أن يحكموا علينا كأمة للشحاذين ـ فإن الفيلم الواقعي يلحّ أكثر مما ينبغي على نواحي الحياة السلبية، على كل ما هناك من قبح وانحطاط وشذوذ في الحياة البشرية. وأكرر أنه فيلم متشائم غير صحي، يذكّر الناس بمصاعبهم بدلاً من مساعدتهم على التغلب عليها.

كنت أنظر إلى باتيستا وأنا أتساءل مرة أخرى إن كان يفكر حقاً بما كان يقول. لقد كان في كلامه إخلاص لا يمكن الشك فيه، بالرغم من أنه ربما كان إخلاص إنسان مقتنع بالأشياء التي تفيده، وقد تابع بهذا الصوت ذي الجرس اللاإنساني الفريد، المعدني حتى في عذوبته:

- لقد عرض عليّ رينغولد اقتراحاً بدا لي مهماً... لقد لاحظ أن الأفلام المستمدة من التوراة تحظى منذ حين بنجاح كبير.. وهي التي حققت بالفعل أكبر الأرباح (قال هذه العبارة بصوت منخفض، كما لو أنه كان يفتح هلالين بلا أهمية) ولماذا؟ لأن التوراة في رأيي هي أكثر الكتب صحة.. لقد قال لي رينغولد: «إن الأنغلوساكسون يملكون التوراة؛ وأنتم سكان البحر الأبيض المتوسط، تملكون هوميروس، أليس كذلك؟».

وهنا التفت إلى رينغولد، كما لو أنه كان غير واثق من استشهاده. ولكن رينغولد قال مؤكداً وقد انعكس على وجهه تململ خفيف:

- تماماً...

واستطرد باتيستا وهو ما يزال يستشهد برينغولد:

- إن هوميروس بالنسبة إليكم، أنتم سكان حوض المتوسط، كالتوراة بالنسبة للأنغلوساكسون... فلماذا لا نخرج فيلماً عن «الأوديسة» مثلاً؟

صمت. وكنت مندهشاً، وكنت أعتقد أني أكسب وقتاً فسألت في جهد:

- الأوديسة كلها، أم فصل من الأوديسة؟

وسرعان ما أجاب باتيستا:

- لقد ناقشنا القضية، وانتهينا إلى أن من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار مجموع الأوديسة بالذات.. ولكن ليس لذلك إلا أهمية بسيطة.. إن ما يهم (ورفع صوته) أني أدركت أخيراً وأنا أعيد قراءة هوميروس ما كنت أبحث عنه منذ وقت طويل من غير أن أشعر بذلك، وما كنت واثقاً من أني لن أعثر عليه في أفلام الواقعية الجديدة... شيء لم أجده مثلاً في الموضوعات التي طرحتها عليّ يا مولتيني... ذلك الشيء الذي كنت أشعر به من غير أن أفهمه، والذي هو ضروري للسينما ضرورته للحياة: الشعر!

ونظرت من جديد إلى رينغولد؛ كانت بسمته قد عرُضت، وكان يوافق برأسه. وقلت كيفما تأتى لي، وبلهجة أقرب إلى الجفاف:

- في الأوديسة.. كلنا يعلم أن في كل صفحة شعراً.. والمهم هو نقل هذا الشعر إلى الفيلم!

فقال باتيستا وهو يتناول مسطرة من على الطاولة ويوجّه طرفها نحوي:

- صحيح جداً.. صحيح جداً.. ولكنكما ستكونان اثنين من أجل

هذا: أنت ورينغولد.. إنني أعرف أن الشعر موجود هناك.. فعليكما أنتما أن تستخرجاه!

وأجبت:

- إن الأوديسة عالم برّمته.. وبإمكاننا أن نستخرج منه ما نشاء.. ويكفي أن يعرف المرء من أية وجهة نظر ينطلق..

فبدا على باتيستا أنه منزعج من قلة حماستي، وتأملني في تنبه ثقيل، كما ليحزر النوايا التي كانت تختفي وراء برودتي. وبدا أخيراً أنه يؤجل امتحانه إلى موعد آخر، فنهض واستدار خلف المكتب، وأخذ يذرع القاعة جيئة وذهاباً، عالي الرأس، ويداه في جيبي بنطاله. والتفتنا ننظر إليه، فإذا به يقول، وهو ما فتئ يمشي:

- إن ما استوقفني خاصة في الأوديسة هو أن شعر هوميروس هو دائماً مسرحي، وحين أقول مسرحي أعني ما يروق الجمهور حتماً.. لنأخذ مثلاً فصل «نوزيكا»: إننا نرى فيه جميع هاتيك الفتيات الجميلات العاريات اللواتي يسبحن في الماء تحت أنظار يوليوس المختبئ خلف أحد الأدغال.. إن هذا، مع فارق بسيط، هو مشهد من «حسناوات الحمّام».. ولنأخذ الآن «بوليفام»، المسخ ذا العين الوحيدة، العملاق.. إنه «كنغ ـ كونغ»، أحد أنجح أفلام فترة ما قبل الحرب.. و«سيرسه» في قصره، إنما هو «أنتينايا» في «الأتلنتيد».. هذا ما أدعوه بالمسرحي.. وهذا المشهد أيضاً هو شعري..

وتوقف باتيستا أمامنا، وهو مهتاج جداً، وأضاف في جلال:

- على هذا النحو أرى «أوديسة» أفلام «تريومف»!

ولزمت الصمت، وكنت أدرك أن الشعر في نظر باتيستا كان يعني شيئاً مختلفاً تماماً عما كان يعنيه في نظري؛ فأوديسة أفلام «تريومف»

في مفهومه، ستنقل نقلاً دقيقاً عن أفلام هوليوود التوراتية ذات المشاهد الفخمة، مع الشياطين والمسوخ والنساء العاريات ومشاهد الإغراء والغرام والحذلقات. لقد كانت نزعة باتيستا في حقيقتها أشبه بنزعة المخرجين الإيطاليين الذين ينتمون إلى عهد أنونزيو؛ وكيف كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟

وكان باتيستا في هذه الأثناء قد استدار حول المكتب، وعاد يجلس وهو يهتف بي:

- وإذن، فما قولك في هذا، يا مولتيني؟

إن كل من يعرف عالم السينما يعرف أن بعض الأفلام مضمون لها أن ترى النور، حتى قبل أن تُكتب أول كلمة في السيناريو؛ أما بعض الأفلام الأخرى، فبالإمكان المراهنة على أنها لن تُنجز، حتى ولو وقّع عقد بشأنها، وحُررت عدة مئات من صفحات مخطوطاتها. والحال أني بحاسة شمّي كسيناري محترف، كنت أحدس سريعاً، عبر كلمات باتيستا، أن هذه الأوديسة ستكون واحداً من الأفلام التي يتحدث عنها الناس كثيراً، ولكنها في نهاية المطاف لن تخرج إلى النور. لماذا؟ إنني لم أكن أستطيع الإجابة على ذلك.. ربما بسبب الطموح المتجاوز حده في هذا العمل، أو ربما بسبب المظهر الجسدي لرينغولد الذي يبدو جليلاً جداً حين يجلس، وصغيراً جداً حين يقف. كنت أشعر بأن هذا الفيلم، على غرار رينغولد، سيكون ذا بداية فخمة ونهاية غير ذات قيمة.. ولكن لماذا كان باتيستا يحرص على أن ينتج فيلماً كهذا؟

لقد كنت أعرفه حذراً جداً، في حقيقته، وعازماً على أن يربح من غير مجازفات. صحيح أنه كان يغذي أملاً خفياً في أن يجد تمويلاً كثيفاً، ربما كان أميركياً، وهو يستغل اسم هوميروس، توراة شعوب

البحر الأبيض المتوسط، كما كان يقول رينغولد. ولكني لم أكن أجهل، من جهة أخرى، أن باتيستا، شأنه في ذلك شأن المنتجين الآخرين، سيجد في حال عدم إنتاج الفيلم، حجة صالحة لعدم التعويض عليّ مقابل عملي. إن هذا ما يحدث دائماً: فإذا أخفق الفيلم أثناء الطريق، قُذف بالتعويضات إلى البحر، واقترح المنتج أن يحسب تعويض السيناريو الناجز على سيناريو آخر يأتي فيما بعد، فلا يجرؤ السيناري المسكين أن يرفض، مجبراً على ذلك بالحاجة. وإذن، فقد قلت لنفسي إنه كان عليّ، في مطلق الأحوال، أن أغطي نفسي بأن أطلب عقداً، وخصوصاً سلفة؛ ولم يكن ثمة لبلوغ غرضي إلا وسيلة: أن أخلق المصاعب، وأن أومئ إلى أن مساعدتي لم تكن أقل من مضمونة. وقد أجبت بلهجة جافة:

- رأيي أنها فكرة جميلة!
- ولكن لم يكن يبدو عليك أنك متحمس جداً..

فأجبت بما فيه الكفاية من الإخلاص:

- أخشى ألا يكون هذا هو النوع الذي يلائمني.. أن يكون هذا السيناريو خارج طاقتي..

فقال باتيستا:

- ولماذا؟ لقد سبق أن قلت لي مراراً إنك كنت راغباً في المشاركة بفيلم ضخم.. وها أنت الآن تنسحب إذ أتيح لك إمكانية ذلك!

وحاولت أن أفسر موقفي:

- أحسبني يا باتيستا مخلوقاً خصوصاً للأفلام البسيكولوجية، أما هذا الذي تتحدث عنه، فسيكون مسرحياً صرفاً، إذا فهمت الأمر جيداً.. من نوع الأفلام الأميركية المستمدة من موضوعات توراتية...

ولم يتح لباتيستا هذه المرة أن يجيب، إذ تدخل رينغولد على غير انتظار، فقال لي وهو يرسم على وجهه بسمته العادية الشبيهة بالهلال، كما يُلصق ممثلٌ شارباً مستعاراً تحت أنفه، منحنياً فوقي بتعبير إجلال يكاد يكون تملقاً:

- اسمع يا سيد مولتيني، لقد عبّر السيد باتيستا خير تعبير عن آرائه، ورسم لوحة كاملة للفيلم الذي أود أن أخرجه بمعونته... على أنه قد تكلم بصفته منتجاً، وهو يأخذ بعين الاعتبار خصوصاً الجانب المسرحي... ولكن إذا كنت تحسّ نفسك مخلوقاً للموضوعات البسيكولوجية فلا تتردد في وضع هذا السيناريو، لأن هذا الفيلم، لو تعلم، ليس شيئاً آخر غير تنمية العلاقات البسيكولوجية بين يوليسوس وبينيلوب... والفكرة التي أريد تصويرها هي فكرة رجل يحب امرأته وهي لا تحبه..

وظللت مشدوهاً، لا سيما أن مظهر رينغولد الذي كانت تضيئه بسمته المتكلفة كان يبدو وكأنه يمنع عليّ أيّ فرار: كان عليّ أن أجيب على الفور. وفي اللحظة نفسها التي كنت أهم بأن أحتج بقولي: «ولكن من غير الصحيح أن بينيلوب لا تحب يوليسوس» - ذكّرتني عبارة المخرج فجأة قضية علاقاتي مع أميلي، وقد كانت في الواقع علاقات رجل يحب زوجته وهي لا تحبه، وفي الوقت نفسه، بسبب من تداعي الأفكار، صعدت من أعماق ذاكرتي ذكرى أشبه بجواب مفاجئ على السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي خلال انتظاري في المدخل: لماذا كانت أميلي قد كفّت عن حبي؟

إن ما سأرويه الآن ربما بدا طويلاً، ولكن الواقع أن هذا الأمر قد مرّ في ذهني بسرعة البرق.

إذن، فيما كان رينغولد يميل عليّ بوجهه الباسم، تمثّلتُني فجأة

في صالون مؤجرنا، وأنا أملي بضع صفحات من سيناريو. وكان هذا العمل الذي يستمرّ منذ بضعة أيام على وشك أن ينتهي، وكنت ما أزال غير قادر على أن أقول إن كانت الضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت تعمل لحسابي جميلة على النظر أم لا، وآنذاك حدث حادث صغير فتح عيني، إذا صحّ التعبير. فقد كانت تضرب على الآلة جملة لا أذكرها، فلاحظت وأنا أنظر ما كانت تضربه من فوق كتفها أنها ارتكبت غلطة. وسرعان ما أردت أن أصححها، فانحنيت أشير بإصبعي إلى الغلطة، وحدث أن لامست على غير إرادة مني يد المرأة الشابة، وهي يد كبيرة قوية كانت تتناقض تناقضاً غريباً مع ضآلة جسمها، ولاحظت أنها لم تسحب يدها، وضربت كلمة أخرى، ولمست أصابعها وأنا غير بعيد عن تقصُّد ذلك. وإذ ذاك توجهت عيناي إليها، فرأيت أنها كانت تنظر إليّ بدورها في تعبيرٍ من الانتظار، ومن الدعوة تقريباً. وفوجئت كما لو أنني كنت أراها للمرة الأولى، فلاحظت أنها كانت امرأة جميلة تقريباً، ذات فم ريان، وأنف خبيث، وعينين كبيرتين سوداوين وشعر غزير أجعد يكشف عن جبينها. ولكن تعبير هذا الوجه الممتقع الدقيق كان تعبير كزازة واحتقار. وتفصيل أخير: حين قالت:

- المعذرة، لقد شردت قليلاً...

لاحظت نبرة صوتها الجافة المستاءة بوضوح.

لقد نظرت إليها إذن، فرأيت أنها كانت تصمد لنظرتي بطريقة شبه استعدائية. ولا شك في أني أظهرت بعض الاضطراب، وظنت هي أني كنت أردّ عليها بصمت، لأننا منذ ذلك اليوم، وخلال بضعة أيام، قضينا وقتنا ونحن نتبادل النظر. أو على الأصح كانت هي التي تحدِّق فيّ طويلاً، كلما استطاعت ذلك، في وقاحة مقصودة، باحثة عن

نظري حين كان يهرب منها، جاهدة في الاحتفاظ بعينيّ حين كانتا تلتقيان عينيها وفي ترصدهما حين كانتا تستقران عليها. وقد كان تبادل هذه النظرات نادراً في أول الأمر، ثم ازداد تدريجياً. وأخيراً، قررت بعد عجزي عن تفادي نظراتها أن أملي عليها من وراء ظهرها. ولكن الخبيثة وجدت وسيلة للتغلب على هذه الصعوبة بالنظر إليّ عبر مرآة كبيرة معلقة على الجدار تجاهها، بحيث إني كلما رفعت بصري رأيت عينيها في المرآة.

وتمّ أخيراً ما كانت ترغب في أن يتمّ: فبينما كنت ذات يوم أنحني فوقها لأصحح غلطة، التقت نظراتنا وتوحّد فمانا لحظةً في قبلة سريعة. وكانت كلماتها الأولى، بعد أن انفصلت شفاهنا، ذات دلالة:

- وأخيراً! لقد بدأت أعتقد حقاً أنك لن تقرر أبداً!

وكانت تبدو واثقة من أنها استولت عليّ، واثقة جداً حتى إنها بعد أن أخذت القبلة، ومن غير أن نطلب قبلة أخرى، عادت إلى العمل.

أما أنا، فكنت مضطرباً، ممتلئاً بالندم. صحيح أن الفتاة كانت تروق لي، وإلا لما قبلتها، ولكني كنت واثقاً من أني لا أحبها، وأنها في الحقيقة قد انتزعت هذه القبلة من غروري الرجالي بإلحاح آثار مَلقي.

وأخذت تضرب على الآلة بعد ذلك من غير أن تنظر إليّ، خافضة العينين، أشد فتنة من أي وقت مضى، بوجهها المستدير الممتقع وشعرها الكثيف المعتم. ثم ارتكبت، عن قصد بلا شك، غلطة أخرى، وكنت أتهيأ غريزياً لتصحيحها. وكانت هي تراقب حركاتي، وما كاد رأسي يقترب من رأسها، حتى التفتت فطوقت عنقي بذراعها

وأمسكت بأذني، فجذبت فمي إلى فمها. وفي تلك اللحظة، فُتح الباب، ودخلت أميلي.

وأعتقد أن عرض ما تلا ذلك بالتفصيل غير مفيد. لقد اختفت أميلي على التوّ، وبعد أن أعلنت للمرأة الشابة في سرعة:

- لقد انتهى العمل اليوم، يا آنسة... فتستطعين أن تتصرفي...

خرجت وأنا أكاد أعدو، ولحقت بزوجتي إلى الغرفة، وكنت أتوقع انفجار حادث من حوادث الغيرة، ولكن أميلي اكتفت بأن تقول لي إذ رأتني داخلاً:

- كان بوسعك على الأقل أن تمسح الأحمر عن شفتيك..

فمسحت فمي، وذهبت أجلس إلى قربها، وأردت أن أبرر موقفي بأن أروي لها الحقيقة كاملة. وقد أصغت إليّ بهيئة من الحذر المرتاب لا يمكن وصفها، ولكنها في واقعها رحيمة، وصرحت لي أخيراً أني إذا كنت أحب هذه السكرتيرة حقاً، فليس لي إلا أن أقول ذلك، لأنها كانت مستعدة لقبول الانفصال. ولكنها كانت تتكلم بلا مرارة، وبنوع من العذوبة الكئيبة، كما لو أنها كانت تدعوني في صمت إلى أن أنكر أقوالها. وأخيراً، وبعد تفسيرات طويلة واضطراب شديد (لأني كنت مذعوراً لدى التفكير بأن أميلي يمكن أن تتركني) بدت مقتنعة، وقبلت، مع ألوان كثيرة من المقاومة والرفض، أن تصفح عني.

وفي اليوم نفسه، بعد الظهر، تلفنت للسكرتيرة بحضور أميلي لأخبرها أني لم أعد بحاجة إلى خدماتها. وحاولت أن تنتزع مني موعداً خارج بيتي، ولكن جوابي كان هروبياً، ومنذ ذلك الحين لم أرها بعدُ قط.

ربما بدت هذه القصة، كما ذكرت، طويلة. ولكن هذه الذكرى إنما مثُلت لذاكرتي في الواقع بشكل صورة سريعة هي: صورة أميلي

تفتح الباب في اللحظة التي كنت أقبّل فيها الضاربة على الآلة الكاتبة. كيف تراني لم أفكر بذلك من قبل؟ وقلت في نفسي: لا شك في أن الأمور قد حدثت على النحو التالي: أن أميلي لم يبد عليها أنها قد علّقت، على الفور، أهمية كبيرة على ذلك الحادث، ولكن ربما ظلت في أعماق نفسها متأثرة بالغ التأثر به. وقد فكرت فيه، بعد ذلك، ولفرط عودتها إلى تلك الذكرى التي كانت تزداد قسوة وثقلاً، ذهب الوهم عنها تدريجياً وتفاقم غيظها. وهكذا، فإن تلك القبلة التي لم تكن بالنسبة لي إلا ضعفاً عابراً، كانت قد أحدثت في نفسها جرحاً عمّقه الزمن بدلاً من أن يلأمه.

كان لا بد لي، وأنا مستغرق في هذه الأفكار، من أن أبدو غائباً، ذلك أنني سمعت فجأة، عبر الغيمة الكثيفة التي كانت تسربل فكري، صوت رينغولد يسألني بلهجة لا تخلو من قلق:

- ولكن، هل تسمعني، يا سيد مولتيني؟

فبدّدت الغيوم دفعة واحدة، وعدت إلى وعيي، ورأيت وجه المخرج ممدوداً نحوي بلطف، فقلت:

- اعذراني... لقد شردت قليلاً... كنت أفكر بما قلته يا رينغولد.. رجل يحب زوجته التي لا تحبّه.. ولكن.. ولكن...

ولم أدر ما ينبغي أن أقول، فتمتمت بالاعتراض الذي خطر لذهني تلقائياً:

- عجباً، أن بينيلوب، في الملحمة، تحبّ يوليسوس.. والأوديسة كلها، بمعنى من المعاني، تدور حول حب بينيلوب هذا ليوليسوس.

فأبعد رينغولد اعتراضي ببسمة، وقال:

ليس هو الحب، يا سيد مولتيني، بل الأمانة... إن بينيلوب أمينة

ليوليسوس، ولكننا لا نعرف إلى أي حد تحبه.. وأنت تعرف أن بالإمكان أن يكون المرء أميناً كل الأمانة من غير أن يحب.. بل إن الأمانة، في بعض الأحوال، نوع من الثأر، والشانتاج، والانتقام للعزة والغرور.. أقول إنها أمانة، وليس حباً...

وزادت كلمات رينغولد هذه قلقي، وردّتني من جديد إلى أميلي. وتساءلت أتراني لا أفضّل على الأمانة واللامبالاة الخيانة وما يتبعها من ندم؟ أجل، لو أن أميلي تخونني وتشعر بندمها، فإنها تتيح لي أن أنظر إليها في أمان. والحال أني أثبّت لنفسي أنني أنا الذي خنتها، لا هي.

وغبت مرة أخرى، وأنا تائه في أفكاري، وأعادني إلى الوعي صوت باتيستا الذي كان يقول:

- حسناً! لقد اتفقنا يا مولتيني، إنك ستعمل مع رينغولد؟

فأجبت في مشقة:

- اتفقنا.

- حسناً جداً. هذا إذن ما سوف نفعله: إن على رينغولد أن يسافر إلى باريس صباح الغد ويبقى فيها أسبوعاً. وفي هذه الأثناء، ستقدم لي يا مولتيني ملخصاً للأوديسة... وما إن يعود مولتيني، حتى نسافر معاً إلى كابري، وتشرعان فوراً في العمل.

وبعد بضع كلمات لخصت محادثتنا، نهض رينغولد، فنهضت آلياً كذلك. وكنت أشعر أنها كانت اللحظة المناسبة للتحدث عن عقدي وعن السلفة التي كنت أطلبها، فإذا لم أنتهز هذه الفرصة، فإن باتيستا سيخدعني، ولكن فكرة أميلي كانت تبلبلني، وأكثر منها التشابه الغريب بين التفسير الهوميروسي لرينغولد وبين حالتي الشخصية. على أني تمكنت من أن أتمتم فيما كنا متجهين إلى الباب:

- والعقد؟

فقال باتيستا، مخالفاً توقعاتي، بلهجة يخالطها روح الكرم:

- وسلفتك تنتظرك أيضاً، يا مولتيني... وليس لك إلا أن تمر بالسكرتارية لتوقع العقد وتسحب السلفة.

وتركتني المفاجأة مذهولاً، فبالنظر لما حدث بالنسبة لسناريوهاتي السابقة، كنت أتوقع مساومات دقيقة من باتيستا غايتها تخفيض تعويضاتي وتأجيل دفعها، وها هوذا يدفع لي في التوّ، وبلا مناقشة. وفيما كنا ندخل القاعة المجاورة التي كانت تقوم فيها المكاتب الإدارية، لم أستطع الامتناع عن أن أتمتم:

- شكراً، يا باتيستا، لقد كنت بحاجة إلى المال، كما تعلم...

وعضضت على شفتي، فقد كان من الخطأ أولاً أني كنت بحاجة إلى المال، بصورة مستعجلة على الأقل، كما أومأت، وأحسست بغموض أنه لم يكن ينبغي لي أن أتكلم على هذا النحو. وأتى باتيستا يعزز ندمي إذ قال وهو يربت على كتفي بحركة أبوية حامية:

- لقد حزرت ذلك، يا نبيّ، حزرته واستجبت له.

ثم توجه إلى سكرتير جالس أمام مكتب:

- هذا هو السيد مولتيني، من أجل العقد والسلفة على تعويضه.

وكان السكرتير قد نهض ففتح ملفاً سحب منه عقداً جاهزاً كان مربوطاً به شك. وبعد أن صافح باتيستا يد رينغولد، وأرسل إلى ظهري تربية جديدة وهو يتمنى لنا عملاً طيباً، عاد إلى مكتبه.

واقترب رينغولد باسطاً يده، فقال لي:

- سنلتقي إذن يا سيد مولتيني لدى عودتي من باريس... وفي هذه الأثناء ستقوم بتلخيص للأوديسة تقدمه للسيد باتيستا وتناقشه معه.

فقلت وقد ساورتني بعض الدهشة إذ ظننت أني لاحظت أنه يغمز لي بعينه غمزة من فهم:

- اتفقنا.

ولاحظ رينغولد نظرتي فأخذني فجأة من ذراعي، ثم أدنى فمه من أذني وقال لي هامساً:

- اطمئن بالاً، ولا تأخذك الهموم... ودع باتيستا يتكلم... إنا سنعمل فيلماً بسيكولوجياً، وبسيكولوجياً فقط!

وبسم لي، وشد على يدي، ثم أمال رأسه وصفق عقبيه وخرج. ورأيته يبتعد، وارتعشت لصوت السكرتير. الذي كان يقول لي:

- أيها السيد مولتيني، هل تتفضل فتوقع هنا...؟

الفصل التَّاسِع

لم تكن الساعة تتجاوز السابعة، وحين عدت إلى منزلي ناديت أميلي بلا جدوى، وأنا أعبر غرف الشقة الخالية. كانت قد خرجت، ولن تعود قبل ساعة العشاء. وأحسستني خائباً خيبة شبه مريرة. وكنت آمل أن أجدها وأن أحدثها على التوّ عن حادث الضاربة على الآلة، وأنا واثق من أن تلك القبلة كانت أصل اختلافنا، وكنت أهيئ نفسي، وأنا ممتلئ بثقة جديدة، لأن أبدّد في بضع كلمات سوء تفاهمنا هذا، ثم أنقل إلى أميلي أخبار بعد الظهر الطيبة: عقدي من أجل الأوديسة، والسلفة المقبوضة، والذهاب إلى كابري. قد يُقال لي إن هذا سيؤجل فحسب مدة ساعتين، ولكني كنت أحس رغم ذلك شعوراً من الخيبة وما يشبه نذيراً بالشؤم. لقد كنت في هذه اللحظة واثقاً من قضيتي، فهل أكون بعد ساعتين مُقتنعاً بالدرجة نفسها؟ وكما يبدو، بالرغم من أني أردت إقناع نفسي بأني قد أوضحت الموقف أخيراً، أي وجدت السبب الحقيقي لابتعاد أميلي، فإني في الحق لم أكن واثقاً من نفسي. وكانت هذه المعاكسة تكفي لكي تملأني خوفاً وسوء مزاج.

وقصدت غرفة الاستقبال منزعجاً، ثائر الأعصاب، فبحثت آلياً على رفوف المكتبة عن ترجمة «الأوديسة» بقلم باندمونت. ثم جلست أمام مكتبي، فوضعت ورقة على الآلة الكاتبة وتهيّأت للبدء في التلخيص بعد أن أشعلت سيكارة. وكنت أظن أن العمل سيهدئ من

قلقي، أو يجعلني على الأقل أنساه موقتاً؛ وكنت قد جرّبت هذا العلاج من قبل.

وفتحت المجلد وقرأت على مهل النشيد الأول كله. ثم ضربت العنوان في أعلى الصفحة: «ملخص الأوديسة» وبعد أن تركت فراغاً تحته بدأت:

«كانت حرب طروادة قد انتهت منذ حين. وقد عاد جميع الأبطال اليونانيين الذين شاركوا فيها إلى منزلهم. جميعهم باستثناء يوليسوس الذي ظل بعيداً عن جزيرته وعن أهله».

وإذ بلغت هذه النقطة، ساورني شك في جدوى إدخال نصيحة الآلهة التي يقوم النقاش في أثنائها حول عودة يوليسوس إلى إيتاك؛ وتركت عملي معلقاً، للتفكير بهذا الأمر. لقد كان مجمع الآلهة ذاك مهماً، لأنه كان يدخل في القصيدة فكرة القدر واللاجدوى، وفي الوقت نفسه فكرة النبالة والبطولة في الجهود البشرية. وقد كان حذف هذا المجمع يعني إلغاء الجانب الخارق من القصيدة، إسقاط كل تدخل إلهي وحذف الحضور الشاعري اللذيذ لمختلف القوى الإلهية. ولكن باتيستا، بكل تأكيد، لم يكن يريد أن يعرف أي شيء عن الآلهة التي لم تكن تمثل في نظره إلا مجموعة من الثرثارين المنهمكين في اتخاذ قرارات يُمكن أن تترك المبادرة فيها للأبطال الرئيسيين. وأما رينغولد، فإن إشارته المبهمة إلى الفيلم البسيكولوجي لم تكن تبشر بأي شيء حسن بالنسبة للآلهة؛ إن البسيكولوجيا تُبعد إبعاداً واضحاً القدر والتدخلات السماوية، وقصاراها أن تجد القدر في قلب الروح البشرية، في طوايا نصف الوعي المظلمة. وإذن فإن هؤلاء الآلهة اللامسرحيين هم نافلة وضد البسيكولوجيا...

وكانت تأملاتي حول هذه النطقة تزداد اختلاطاً وبطئاً؛ وكنت بين

الفينة والفينة ألقي نظرة إلى الآلة الكاتبة وأنا أقول لنفسي إن عليّ أن أعود إلى العمل، ولكني لم أكن أنجح في اتخاذ قرار ولم أكن أحرك إصبعي. وانتهى بي الأمر، وأنا جامد أمام مكتبي، إلى أن أسقط في حلم عميق فارغ، محركاً في نفسي الطعم الحامز البارد للمشاعر المعقدة المزعجة التي كانت تنتابني؛ ولكن لم أكن أتوصل إلى تحديدها وأنا في دواري وتعبي وغيظي.

ثم فجأة خطرت لذهني هذه الفكرة، كفقاعة هواء تلامس صفحة مستنقع: «سأكون مضطراً الآن إلى أن أمسخ الأوديسة على غرار الموجزات السينمائية... وحين تنجز المخطوطة، يعود هذا المجلد إلى مكتبتي ليلتقي بجميع المجلدات الأخرى التي سبق أن استعملتها لسيناريوهاتي... وبعد بضعة أعوام، فيما أنا أبحث عن كتاب آخر أذبحه من أجل فيلم آخر، سأرى هذا وسأقول لنفسي: عجباً... كنت آنذاك أضع سيناريو الأوديسة مع رينغولد... وبعد أن أكون قد تكلمت كل يوم، صبحاً ومساء، طوال أشهر، عن يوليسوس وبينيلوب، وعن سيكلوب وسيريه وعن الحوريات، لم يتم الفيلم... بسبب نقص المال!».

ولدى هذه الفكرة انتابني مرة أخرى قرفٌ عميق من هذه المهنة التي فُرضت عليّ. ومن جديد، شعرت، في ألم حاد، بأن هذا القرف كان صادراً عن يقيني بأن أميلي لم تعد تحبني. إنني حتى ذلك الحين لم أكن قد عملت إلا إكراماً لها، فإذا افتقدت حبها، فلن يكون لعملي أية غاية.

لا أدري كم بقيت من الوقت جامداً، متقوقعاً على كرسيي، تجاه الآلة الكاتبة، وعيناي محدقتان في النافذة. وسمعت أخيراً باب الشقة

يصفق، وصوت خطى، ففهمت أن أميلي قد عادت. ولم أتحرّك. وفتح الباب أخيراً خلف ظهري، وسألني صوت أميلي:

- أنت هنا؟ ماذا تعمل؟ هل تشتغل؟

والتفتّ إليها. كانت واقفة على العتبة، وقبعتها على رأسها، ورزمة في يدها. وسرعان ما أجبتها في تلقائية أدهشتني بعد تلك الألوان الكثيرة من الشكوك والخوف:

- لا، لا أشتغل.. كنت أتساءل إذا كان عليّ أن أقبل سيناريو باتيستا الجديد أم لا.

فأغلقت الباب، وأقبلت تحدثني وهي واقفة قرب مكتبي:

- هل ذهبت إلى مكتب باتيستا؟

- نعم.

- ألم تتفقا؟ أليس ما يعرضه عليك كافياً؟

- بلى، هو كافٍ... وقد اتفقنا.

- وإذن؟ هل الموضوع هو الذي لا يروقك؟

- لا، إنه موضوع جيد..

- ما هي القضية إذن؟

فنظرت إليها لحظة قبل أن أجيب؛ وكانت تبدو كعادتها شاردة لامبالية، وكان واضحاً أنها تتكلم بدافع الواجب. وأجبت بإيجاز:

- إنها الأوديسة.

ووضعت رزمتها على المكتب ثم نزعت قبعتها على مهل، ونكثت شعرها بيدها. ولكن تعبير وجهها كان غامضاً شارداً؛ فإما أنها لم تكن قد فهمت أن القضية هي الملحمة الشهيرة، وإما أنها ـ وهذا هو الأرجح ـ لم تجد في العنوان الذي لم تكن تجهله تماماً ما يعني لها شيئاً. وقالت بنوع من نفاد الصبر.

- وإذن، ألا يروقك ذلك؟
- قلت لك إن بلى.
- الأوديسة، هي التي نتعلمها في المدارس، أليس كذلك؟ فلماذا لا تريد أن تضع هذا السيناريو؟
- لأن ذلك لم يعد يعني لي شيئاً.
- ولكنك كنت هذا الصباح بالذات قد عزمت على أن تقبل...

وأدركت دفعة واحدة أنه آن الأوان لتفاهم جديد، ونهائي هذه المرة. ونهضت طفرة واحدة وأمسكت أميلي من ذراعها:

- لنذهب إلى الغرفة المجاورة، يجب أن أكلمك.

فقامت بحركة تراجع، وهي أقل ذعراً من لهجة صوتي منها من القوة التشنجية التي كنت أشد بها على ذراعها:

- ما بك؟ هل أنت مجنون؟
- لا، لست مجنوناً، لنذهب إلى الغرفة المجاورة، أريد أن أحدثك...

وسحبتها قسراً إلى الصلة ودفعتها إلى أريكة:

- اجلسي.

وجلست قبالتها:

- والآن، سنتحدث.

فنظرت إليّ مترددة، وهي ما تزال قلقة قليلاً:

- تكلم. إنني مصغية إليك.

وبدأت بصوت بارد موحّد:

- تذكرين إني قلت لك أمس إني غير راغب بوضع هذا السيناريو، لأني لم أكن واثقاً من حبك... وقد أجبتني أنك كنت تحبينني، وأن عليّ أن أقبل العرض، أليس كذلك؟

- هذا صحيح...

فقلت في عزم:

- حسناً؛ إنني مقتنع بأنك قد كذبت عليّ... لماذا؟ لست أدري السبب... ربما بدافع الشفقة، وربما بدافع المصلحة...

فقاطعتني بمرارة:

- ولكن أية مصلحة؟

فشرحت قائلاً:

- المصلحة في أن تظلي في هذا البيت الذي تحبينه...

فأدهشني عنف ردّ فعلها. ذلك أنها نهضت فجأة وقالت بصوت مرتفع:

- ولكن ما أدراك بذلك؟ إنني لست حريصة على هذا البيت، على الإطلاق... إنني مستعدة تماماً للعودة إلى غرفة مفروشة.. ومن الواضح أنك لا تعرفني... إن هذا لدي سواء تماماً...

وأحسست من هذه الكلمات بشعور حاد من الألم، كما يحدث للمرء حين تُهان هبةٌ له كلّفته تضحيات مريرة. إن هذا البيت الذي تتحدث عنه بهذا القدر من الاحتقار كان في الحقيقة حياتي كلها خلال هذين العامين؛ لقد تركت من أجله عملاً كنت أحبه، وتخليت عن أعزّ مطامحي. وسألت، بلا صوت تقريباً، غير مصدق مع ذلك:

- كيف، لا تحرصين عليه؟

- على الإطلاق... (وكان صوتها ناشزاً تقريباً لقرط ما داخله من الاحتقار المغتاظ) هل فهمت؟ على الإطلاق!

- ولكنك حتى الأمس كنت ما تزالين تقولين إنك تحبينه كثيراً؟

- لقد قلت ذلك مرضاةً لك.. لأني كنت أعتقد أنك أنت حريص عليه..

وأسقط في يدي: وإذن، فأنا الذي تخليت عن مطامحي المسرحية، أنا الذي لم أعلّق أية أهمية على مثل هذه الأمور، أأكون أنا الحريص على هذا البيت؟ وأدركت أنها، بدافع من سبب كنت أجهله، كانت ذات نية سيئة، وأنه لن يجدي شيئاً إثارتها ومعاندتها وتذكيرها كم كانت راغبة في هذا الذي يبدو أنها تحتقره الآن إلى هذا الحد. والواقع أن ذلك لم يكن إلا تفصيلاً، وكان ما يهمني شيء آخر تماماً. وقد قلت وأنا أجهد في تمالك نفسي وفي اتخاذ لهجة مصالحة وتعقّل:

- لندع بيتنا جانباً، فإني لم أكن راغباً في أن أحدثك عنه بالذات، بل عن عواطفك تجاهي... لقد كذبت عليّ أمس، ولا أدري السبب، حين قلت لي إنك تحبينني... ولأنك كذبت عليّ لا أجد بعد القوة على العمل للسينما... لقد كنت أفعل ذلك من أجلك وحدك... وما دمت لا تحبينني بعد، فليس لدي أي سبب...
- لكن من قال لك إني كذبت عليك؟
- كل شيء ولا شيء... لقد ناقشنا ذلك بالأمس، ولست راغباً في العودة إلى هذا... فهذه أمور لا تُفسَّر، وإنما تُحَس... وأنا أحس أنك لا تحبينني بعد...

وللمرة الأولى قالت في اندفاع مخلص:

- ولكن لماذا أنت حريصٌ على أن تعرف بعض الأمور بالذات؟

قالت ذلك بصوت حزين متَعب، وعيناها تحدقان في النافذة، وأضافت:

- دع هذا... فذلك أفضل لنا كلينا.
- أترين؟ إنك تعترفين أني على حق!
- أنا لا أعترف بشيء... أود فقط أن تتركني بسلام... بسلام!

وكان في صوتها غصّة دامعة. وأضافت.

- والآن، أنا ذاهبة لتغيير ملابسي...

ثم أرادت أن تتجه إلى الباب، ولكني أمسكتها من معصمها. وكانت تلك حركة مألوفة بيننا، حين كانت تنهض لتذهب فتمرّ من أمامي: فكنت أوقفها من معصمها الذي كان دقيقاً وطويلاً. ولكني كنت أقوم بهذه الحركة فيما مضى، مدفوعاً برغبة مفاجئة كانت تنتابني تجاهها؛ وكانت تشعر بذلك فتقف بوداعة، منتظرة أن أحيط ساقيها بذراعي وأن أريح رأسي في صدرها، أو أن أجذبها إلى ركبتيّ. وبعد مقاومة ضعيفة ومداعبات كثيرة، كان الأمر ينتهي بفعل الحب، حيث تكون، على الأريكة، أو الديوان القريب. أما هذه المرة، فكان قصدي مختلفاً ولم أستطع أن أفعل أقلّ من أن أتسرجع ذكرى ذلك في مرارة. وهي لم تقاومني، وظلت واقفة تجاهي، وهي تنظر إليّ من فوق:

- هل أستطيع بالإجمال أن أعرف ما الذي تريده مني؟
- الحقيقة...
- إنك تريد أن تدفع الأمور إلى الأسوأ... هذا ما تريده!
- إنك تقرّين إذن إن هذه الحقيقة لا تروق لي؟
- أنا لا أقرّ شيئاً...
- ولكنك قلت الآن... إن هذا سينتهي نهاية سيئة...
- قلت هذا في الهواء... فدعني أذهب!

ولكنها مع ذلك لم تتخبّط منتظرة فقط أن أحلّ ضمتي عنها. وأعتقد أني كنت أفضل تمرّداً عنيفاً على هذا الصبر البارد المحتقر. وعلى أمل خفي في أن أثير لديها عاطفة من رقة، وجدت حركتي القديمة التي كانت تمهّد في الماضي للحب، فتركت معصمها،

وضممت ساقيها. وكانت ترتدي تنورة طويلة، متكسرة وعريضة جداً، وشعرت عبر هذه التنورة بساقيها الجميلتين المشيقتين تتصلبان، أشبه بسارية سفينة وسط أشرعة سخية. واستولت عليّ الشهوة، تكاد تكون مؤلمة بفورانها وبإحساس العجز اليائس الذي كان يرافقها. وقلت وأنا أرفع بصري نحوها:

- أميلي، ماذا لديك ضدّي؟

- ليس لديّ شيء... دعني أذهب.

وضغطت ذراعاي ضغطاً أشدّ على ساقيها، وقرّبت وجهي من صدرها. وكنت عادةً حين آتي بهذه الحركة أحس بعد لحظة يدها الكبيرة التي كنت أحبّها كثيراً تستريح على رأسي في ملامسة غرامية بطيئة. وكانت تلك علامة اهتياجها واستجابتها لشهوتي. أما هذه المرة، فقد ظلت يدها المتدلية جامدة. وقد أُصبت بضربة في قلبي من هذا الموقف المختلف عن الموقف الذي كنت أعرفه. وتركت ركبتيها ثم قبضت مجدداً على معصمها وأنا أصرخ:

- لا، لن تذهبي... يجب أن تقولي لي الحقيقة، في هذه اللحظة بالذات.. لن تذهبي قبل أن تقولي لي الحقيقة!

- فظلت تنظر إلي من فوق لتحت؛ ولم أكن أراها، ولكن كان يخيّل إليّ أني أشعر بنظرها المتردّد يثقل على رأسي المنحني. وقالت أخيراً:

- حسناً! أنت الذي أردت ذلك؛ إنني لم أكن أطلب أكثر من أن أظل أعيش كما في الماضي... ولكن ما دمت تريد ذلك، فهذا صحيح.. إنني لم أعد أحبك... هذه هي الحقيقة!

إن من الممكن تصوّر أفظع الأشياء وتخيلها إذ يعرف المرء بفطنة أنها موجودة. أما أن يرى هذه الفروض أو بالأحرى هذه اليقينيات

تتأكد، فإن ذلك يُحدث دائماً صدمة مؤلمة، كما لو أن المرء لم يسبق له أن واجهها قط. صحيح أني كنت قد عرفت دائماً أن أميلي لم تعد تحبني؛ ولكن أن أسمع ذلك من فمها، هذا ما جمّد الدم في عروقي. إنها لم تعد تحبني: إن هذه الكلمات التي ترددت مراراً في ذهني كانت تأخذ على شفتيها معنى جديداً. لم تكن القضية بعد قضية افتراض، ولو كان ممزوجاً باليقين، بل كانت قضية واقع. وقد كان لهذه الكلمات وزن وبُعدٌ لم يسبق أن كانا لها في ذهني. ولا أذكر كيف تلقيت هذا التصريح. لقد ارتجفت على الأرجح، كما يرتجف المرء حين يقف تحت «دوش» مثلج وهو يعرف مقدماً الشعور الذي سيحسُّه. ثم جهدت أن أتمالك نفسي وأن أظهر أني موضوعي ومتعقل، فقلت لأميلي بأهدأ لهجة أستطيعها:

- تعالي هنا، اجلسي واشرحي لي كيف حدث ذلك؟

فأطاعت وجلست على الديوان وأجابتني، كما لو أنها مدفوعة إلى النهاية:

- ليس ثمة ما يُشرح... إن كل ما في الأمر هو أني لا أحبك بعد... وبمقدار ما كنت أحاول أن أبدو متعقلاً، كانت شوكة هذا الألم الذي لا يوصف تنغرز في لحمي. وجهدت في مشقة أن أبتسم:
- أنت تقرّين على الأقل إن من واجبك أن تقدمي لي تفسيراً... فحتى حين يطرد الإنسان خادماً يقدم له الأسباب...
- لم أعد أحبك، ولا أستطيع أن أقول شيئاً آخر.
- ولكن لماذا؟ لقد كنت تحبينني في السابق، أليس كذلك؟
- نعم، كثيراً... أما الآن، فقد انتهى الأمر.
- لقد أحببتني كثيراً؟
- نعم، كثيراً... ولكن انتهى ذلك.

- ولكن... لماذا؟ إن هناك سبباً؟
- ربما... ولكني لا أستطيع أن أشرحه... إنني لا أعرف إلا شيئاً واحداً: هو أنني لم أعد أحبك.

فقلت وأنا أرفع صوتي رغماً عني:

- لا ترددي هذا بلا انقطاع!
- أنت الذي تجعلني أردّد... إنك لا تريد أن تقتنع.. ولذلك أردّده!
- لقد اقتنعت الآن بذلك.

وسقط الصمت. وكانت أميلي قد أشعلت سيكارة وأخذت تدخنها خافضة العينين. وكنت منحنياً فوق ركبتي، ورأسي بين يدي.

- وإذا قلتُ أنا لك سبب هذا التغير، هل تعترفين به؟
- ولكنني لا أعرفه، أنا نفسي...
- نعم، ولكن ربما استطعت الاعتراف به إذا قلته لك...
- حسناً، إذن قُلْه...
- لا تتحدثي بهذه اللهجة.

وكنت أوشك أن أصرخ لفرط ما جرحتني هذه الطريقة اللامبالية السريعة في الكلام، ولكني كنت أتمالك نفسي وأجهد في الاحتفاظ بلهجة رصينة، فبدأت أقول:

- إنك تذكرين الفتاة، الضاربة على الآلة التي جاءت إلى هنا منذ أشهر لتضرب لي سيناريو على الآلة... لقد فاجأتنا في اللحظة التي كنت أقبّلها فيها... وقد كان ذلك مني ضعفاً بليداً... ولكن تلك القبلة كانت الأولى والأخيرة، ولم يحدث شيء آخر، أقسم لك على ذلك... إنني لم أر تلك الفتاة ثانية... فقولي لي الحقيقة: أيكون ذلك الحادث هو الذي أبعدك عني؟ تكلمي بصراحة... أابتداء من تلك اللحظة بدأت تكفّين عن حبي؟

وكنت أنظر إليها في تنبُّه، فيما كنت أتكلم. وقد بدرت منها حركة مفاجأة وإنكار، وداخلني الشعور بأن افتراضي كان يبدو لها غير معقول. ثم رأيت ملامحها تتغير كما لو أن فكرة مفاجئة قد خطرت لها، فتقول:

- لنفترض أن السبب هو هذه القبلة... فهل اطمأننت الآن، بعد أن وضح الأمر لك؟

وسرعان ما فهمت أنها لم تكن صادقة، إن دافعها لم يكن تلك القبلة. كان افتراضي قد فاجأ أميلي لشدة بعده عن الحقيقة، ثم دفعها حسابٌ سريع إلى قبول هذا التفسير. ولا بد أن سبب ابتعادها كان أخطر بكثير من هذه القبلة التي لم تكن لها عواقب. وهي لم تكن تريد أن تكشفه لي، بسبب من بقية مراعاةٍ لي. وكنت أعرف أن أميلي لم تكن شريرة، ولم تكن تحبّ أن تشقّ عليّ. ولا بد أن السبب الحقيقي مهين مذل. وقد قلت في رقة:

- ليس صحيحاً يا أميلي، فتلك القبلة لا دخل لها بابتعادك...
- لماذا تقول ذلك؟ لقد قلت لك العكس!
- لا، ليست القضية قضية هذه القبلة... فهناك شيء آخر!
- إنني لا أفهم ما الذي تقصده.
- بل تعرفينه جيداً.
- لا، أقسم بكلمة الشرف، لست أعرفه.
- وأنا أقول لك بلى...

فبدت على وشك أن تفقد صبرها، ثمن قالت بلهجة شبه رؤوم كانت تتبناها أحياناً:

- لماذا أنت حريص على أن تعرف بعض الأشياء؟ إنك غريب.. فما جدوى إثارة هذا كله... ماذا يجديك؟

- إنني أفضل الحقيقة، أياً كانت، على الكذب... وبالإضافة إلى ذلك، إذا لم تكلميني بصراحة، فبإمكاني أن أتصور... شيئاً رديئاً جداً!

فنظرت إليّ من غير أن تنبس بكلمة نظرة نفّاذة فريدة، ثم قالت:

- لماذا تعذب نفسك؟ إنك مطمئن الضمير، أليس هذا صحيحاً؟
- أنا، بكل تأكيد!
- إذن، ماذا يهمك الباقي؟

فألححت: - هذا إذن صحيح، القضية قضية شيء بشع جداً؟

- إنني لم أقل ذلك... كل ما قلته لك إن الباقي هو بلا أهمية، ما دام ضميرك مرتاحاً...
- صحيح أن ضميري مرتاح.. ولكن ذلك لا يعني شيئاً.. فإنه يحدث أن الضمير نفسه يخطئ...

فقالت بلهجة ساخرة لم تفتني، بل بدت لي أكثر جَرْحاً من لامبالاته:

- ولكن ليس ضميرك، أليس كذلك؟
- بل حتى ضميري...

وقالت فجأة:

- هيا، يجب أن أذهب... هل لديك شيء آخر تقوله لي؟
- لن تذهبي قبل أن تقولي لي الحقيقة.
- لقد قلتها لك: إنني لم أعد أحبك.

هذه الكلمات الأربع: أيّ ألمٍ كانت تحدثه لي! لقد أحسستني أمتقع، وابتهلت إليها ابتهالاً معذباً بقولي:

- لقد رجوتك ألا ترددي هذه الكلمة... إنك تعذبينني!

- أنت الذي تضطرني إلى ترديدها... من المؤكد أن ليست لديّ أية سعادة في قولها.

فتابعت وأنا أمضي في خيط أفكاري:

- كيف تريدين أن أعتقد أنك لا تحبينني بعدُ بسبب هذه القبلة؟ إن القبلة شيء يسير... لقد كانت هذه الفتاة خبيثة، وأنا لم أرها بعد ذلك أبداً... أنت تعرفين ذلك كله وتفهمينه... كلا، إنك في الحقيقة لا تحبينني بعد بسبب...

وكنت أبحث عن كلماتي لأعبِّر عن حدسي الغامض الشاق، ثم تابعت:

- بسبب أنه حدث شيء ما، شيء ما قد أثر على عواطفك تجاهي، بل قد غيّر كليّاً الفكرة التي كونتها عني، وبالتالي فإن حبك...

فقاطعتني قائلة بلهجة مخلصة تكاد تكون لهجة إعجاب:

- يجب الاعتراف بأنك ذكي!

- إذن، فهذا صحيح؟

- لم أقل ذلك، بل قلت فقط إنك ذكي...

وكنت أحسّ الحقيقة قريبة جداً، وكنت على وشك أن ألمسها بيدي:

- قبل حادث معين، كان لك رأيّ طيب فيّ... وبعد ذلك، حكمت عليّ حكماً سيئاً، ومن ثمّ كففت عن حبي، أليس كذلك؟

- هذا ممكن...

وغمرني فجأة شعور فظيع.. لقد كانت تلك اللهجة الهادئة التي تبنيتها زائفة، لم أكن متعقلاً، بل كنت أتألم ألماً حاداً، وكنت يائساً وغاضباً، كنت متلاشياً، فلماذا تراني كنت أستعمل لهجة الاعتدال

تلك؟ ولا أدري ماذا أصابني آنذاك، فقبل أن أدركه، نهضت فجأة وأنا أصرخ:

- لا تظني أني أكتفي بالهذر والهذيان...

ووثبت على أميلي فأمسكتها من عنقها وقلبتها على الديوان وصحت في وجهها:

- قولي الحقيقة! قوليها مرةً وإلى الأبد!

وكان جسمها الكبير المنسجم الذي كنت أحبّه كثيراً يتخبط تحت يديّ، ووجهها يحمرّ وينتفخ: لا شك في أنني كنت أضغط بشدة، كما لو أني كنت أودّ أن أقتلها. ورددت:

- قولي الحقيقة... قولي الحقيقة!

وكررت ضغطي وأنا أفكر: «سأخنقها، ولكن الأفضل أن أراها ميتة على أن تكون عدوّة!».

وفجأة شعرت بأن إحدى ركبتيها كانت تسعى لأن تضربني في معدتي، وقد تمكنت فعلاً بعنفٍ شديد جداً حتى إن نَفَسي قد تقطع. وكانت تلك الضربة في مثل إيلام عبارتها، لم أعد أحبّك، لأنها كانت ضربة عدو يسعى إلى إلحاق أكبر الأذى بغريمه. وفي اللحظة نفسها انحسر حقدي المجرم مرة واحدة، فأرخيت ضمتي، وتحررت أميلي وهي تدفعني بقوة حتى سقطتُ عن الديوان.

وقبل أن أتمكن من النهوض، صاحت بصوت مغيظ:

- إنني أحتقرك! هذا هو الشعور الذي أكنّه لك، والسبب الذي من أجله لم أعد أحبك! إنني أحتقرك وأشمئز منك حين تلمسني... لقد أردتَ الحقيقة: إنني أحتقرك وأشمئز منك!

كنت واقفاً، فامتدت يدي وعيناي في وقت واحد إلى منفضة

سكاير كثيفة من البلور كانت على الطاولة. وظنّت أميلي بالتأكيد أني كنت أريد قتلها، لأنها أطلقت صرخة رعب وغطت وجهها بذراعها. ولكن ملاكي الحارس ساعدني: فلم أدر كيف نجحت في السيطرة على نفسي، فوضعت المنفضة على الطاولة وخرجت من القاعة.

الفَصْل العَاشر

لم تكن أميلي قد تلقّت، كما سبق أن ذكرت، إلا ثقافة بدائية، فبعد سنوات المدرسة الابتدائية، لم تتابع الدروس إلا فترة من الزمن، وسرعان ما تركت الدراسة لتتعلم الضرب على الآلة الكاتبة والاختزال، حتى بلغت السادسة عشرة، والتحقت بمكتب للمحاماة. صحيح أنها كانت تنتمي إلى ما يسمى «أسرة رفيعة»، أي أسرة كانت ميسورة من قبل وكانت في الماضي ذات أملاك في جوار روما. ولكن جد أميلي كان قد هدر ثروته في مضاربات رديئة، وكان الأب، حتى موته، موظفاً صغيراً في وزارة المالية. وهكذا ترعرعت في الفقر، وظلت بتربيتها وطريقتها في التفكير من الشعب، ولهذا كان يبدو أنها لا تستطيع أن تعتمد إلا على حسّها الشعبي الذي هو من الصلابة بحيث يتراءى أحياناً بلادةً أو ضيقاً في الذهن. ولكن كان يحدث لها بمساعدة هذا الحسّ وحده أن تعبِّر بطريقة غير متوقعة، وغريبة في نظري، عن أفكار أو عن تقديرات شديدة النفاذ، شبيهةً في ذلك بأفراد الشعب أولئك الذين هم أقرب إلى الطبيعة من الآخرين، والذين لا يعكّر محاكمتهم العقلية أي اصطلاح أو أي تفكير مسبّق. وهي لأنما كانت تفكر تفكيراً سليماً ببعض الأشياء، فإنها كانت تعبر عنها برصانة وصراحة ووضوح، وقد كان لكلماتها بالفعل لهجة الحقيقة التي لا تخطئ. على أنها لكونها لم تكن تدرك

صراحتها، فإنها لم تكن تتبجّج بها، مؤكدة بهذا التواضع السمة الحقيقية لمحاكمتها.

من أجل ذلك، لم أشك لحظة حين صاحت بي ذلك اليوم: «إنني أحتقرك!»، إن هذه العبارة التي، لو قالها فم آخر ربما لم تعن شيئاً، كانت تتلبس في نظرها معنى دقيقاً محدداً: كانت تحتقرني حقاً، وليس ثمة بعد الآن مجال لفعل شيء. وحتى لو كنت أجهل كل شيء من طبع أميلي، فإن اللهجة التي لفظت بها هذه العبارة لم تكن تترك أي شك: كانت لهجة الكلمة لدى ولادتها، منبثقة تواً من الشيء نفسه، منطوقة من قبل إنسان ربما كان يستعملها للمرة الأولى، وهو قد استمدها، بدافع من الضرورة، من إرث اللغة العريق القدَم، من غير أن يبحث عنها، وعلى غير إرادة منه تقريباً. هكذا ينطق الفلاح أحياناً، بلكنة حقله، وبالكلمات التي يمسخها، وبالعبارات المماتة التي يستعملها، جملة مشرقة بالصواب، وبحكم نافذ لو نطق به رجل آخر لأثار الدهشة؛ أما حين يصدر عنه هو فإنه يُعجب ويبدو غير قابل للتصديق تقريباً.

«نعم، إنني أحتقرك»: كان لهذه الكلمات الثلاث ـ وقد كنت أشعر بذلك في مرارة ـ الصدى الحقيقي نفسه الذي كان لهذه الكلمات الأخرى الثلاث التي كانت قد نطقت بها حين اعترفت لي للمرة الأولى بحبها «إنني أحبك كثيراً!».

وحين وجدتني وحيداً، مقتنعاً بصدق هذه الكلمات القاسية وحقيقتها، أخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، خالي الذهن، مرتجف اليدين، زائغ النظرات، لا أدري ما أفعل. وكل دقيقة تمر كانت تغرز أعمق فأعمق هذه الشوكات الثلاث، كلمات أميلي الثلاث، في أضلعي.

ولكني، خارج الألم الحادّ المتزايد الذي كنت أعيه بالغ الوعي، لم أكن لأفهم بعد شيئاً. لقد كان أشق شيء عليّ، بالإضافة إلى أني لست بعد محبوباً، هو أني كنت محتقراً؛ ولكني لعجزي عن أن أجد لهذا الاحتقار أي نفسير، مهما كان خفيفاً، كنت أستشعر إحساساً عميقاً بالظلم، وفي الوقت نفسه خوفاً من ألّا يكون ثمة ظلم، وأن يكون هذا الاحتقار قائماً على أساس متين، غير قابل للنقاش بالنسبة لي. لقد كنت أملك عن نفسي رأياً عالياً بما فيه الكفاية، مطبوعاً على الأكثر بنوع من الشفقة، كما لو أني رجل قليل الحظ لم يعطف عليه القدر كما يستحق، ولكنه لم يكن يملك إلا ما هو جدير بالاحترام. وها إن عبارة أميلي هذه تأتي لتهز هذه النظرة؛ كنت للمرة الأولى أتساءل إذا كنت أعرف نفسي وأحكم عليها كما هي، من غير رضى زائف عن ذاتي.

وفي النهاية، توجهت إلى الحمام، ووضعت رأسي تحت الماء، فخرجت من ذلك بشعور ارتياح: كانت عبارة زوجتي تلك قد أشعلت النار في رأسي. وتسرحت، ورطبت وجهي، وعقدت ربطة عنقي من جديد، وعدت إلى الصالة. ولكن رؤية المائدة معدّة من فتحة النافذة أثارت استنكاري؛ إنه لم يكن بإمكاننا أن نجلس إلى الطاولة كالأيام السابقة وأن نأكل معاً في هذه القاعة التي كانت ما تزال مليئة بأصداء الكلمات التي هزتني.

وفي تلك اللحظة، فتحت أميلي الباب وظهرت؛ كان وجهها قد استعاد ملامحه المألوفة الصافية المرتاحة. وقلت من غير أن أنظر إليها:

- لا رغبة لي بتناول العشاء هنا هذا المساء... قولي للخادمة إننا خارجان، ثم ارتدي ثيابك... فإننا سنتعشى في الخارج...

فأجابت وهي مندهشة بعض الشيء:

- ولكن العشاء جاهز منذ حين... والأشياء جديرة بأن ترمى بعد ذلك!

فصرخت وقد عاودني غضبي:

- هذا يكفي! ارمي كل ما تريدين، ولكن البسي ثيابك، لأننا سنتعشى في الخارج..

ولم أكن قد رفعت بصري إليها، ولكني سمعتها تتمتم:

- أي سلوك هذا!

وخرجت وأغلقت الباب.

وبعد بضع دقائق كنا نخرج من البيت. وفي الشارع الضيق الذي كانت تكتنفه بيوت عصرية ذات واجهات متصلة بالشرفات، شبيهة ببيتنا، كانت سيارتنا الصغيرة تنتظرنا بين عديد من السيارات الفارهة؛ وكنا قد اشتريناها حديثاً، كالبيت، وكان معظم ثمنها ينبغي أن يدفع بعدُ من تعويضات السيناريو القادم. ولم يكن قد مرّ على اقتنائها إلا بضعة أشهر، وكنت ما أزال أعاني شعور الغرور الطفولي الذي يوحيه في البدء ترفٌ مثل هذا. ولكن في المساء، بينما كنا متجهين نحو السيارة، جنباً إلى جنب، من غير أن نتبادل النظر، لم أستطع الامتناع عن التفكير: هذه سيارة تمثل، إلى جانب الشقة، تضحية مطامحي، وهي تضحية لا جدوى منها بعد الآن... وأخذني لمدة لحظة الإحساس الدقيق بالمفارقة بين هذا الشارع الباذخ الذي يبدو كل شيء فيه جديداً وثميناً، وبين شقتنا التي كانت نوافذها تنظر إلينا من الطابق الثالث، وبين السيارة التي كانت تنتظرنا على بضعة أمتار، وسوء حظي الذي كان يضفي على جميع هذه الأشياء المقتناة طابع اللاجدوى والنفور.

وصعدت السيارة، وانتظرت ريثما تجلس أميلي، ومددت ذراعي لكي أغلق الباب من جهتها. وكنت حين أقوم بهذه الحركة عادة ألامس ركبتيها، أو كنت أدير رأسي فألامس خدّها بقبلة سريعة. أما هذه المرة فقد تجنبت غريزياً أن ألمسها. وصفقت الباب، وظللنا لحظة جامدين صامتين. وأخيراً سألت أميلي:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

فترددت ثم أجبت كيفما اتفق:

- لنذهب إلى جادّة «أبيان»...

- ولكن لم يئن الأوان للذهاب إلى جادة «أبيان»... سيكون الجو بارداً، ولن يكون ثمة أحد.

- لا بأس... سنكون نحن هناك، على أي حال.

فصمتت وسلكنا الطريق باتجاه جادة «أبيان». وبعد أن غادرنا حيّنا، عبرنا وسط المدينة وأخذنا طريق «تريونفي» و«البروميناد أركيولوجيك»، بمحاذاة الجدران القديمة المغطاة بالطحلب والحدائق والجنائن والمقاصير القائمة بين الأشجار التي كان تسجل بدء جادة «أبيان». ثم كان مدخل المقابر المضاء بمصباحين ضعيفين. وكانت أميلي على حق: فقد كان الوقت مبكراً بالنسبة لذلك المكان.

وإذ دخلنا المطعم ذا الاسم القديم، لم نجد في القاعة الكبرى المزينة بالقوارير والبلاط المكسر إلا طاولات فارغة وموجة من الخدم. كنا وحدنا، فخطر لذهني أن هذه القاعة الفارغة الرديئة التدفئة، مع طابع الاستعجال المضجر الذي كان يطبع خدمها الكُثر، لم تكن المكان الملائم لحلّ مشكلة حياتنا المشتركة. ثم تذكرت أننا منذ عامين، في عهد حبنا، كنا قد جئنا مراراً لتناول العشاء، وأدركت

لماذا كنت قد اخترت، غريزياً، هذا المطعم الكئيب المتوحد في ذلك الفصل، من بين كثير من المطاعم.

كان الخادم واقفاً أمامي ولائحة الطعام في يده، ومن الجهة الأخرى كان الخازن ينحني ليمد لي لائحة الخمور. وأخذت أقرأ اللائحة، معدداً ألوان الطعام لأميلي، مائلاً عليها كزوج مستعجل متأدب. وكانت عيناها منخفضتين، وكانت تجيب بكلمات موجزة:

- نعم، لا، حسناً...

وطلبت نوعاً من الخمر، بالرغم من احتجاج أميلي التي لم تكن تريده، فقلت:

- سأشربه أنا نفسي...

وبسم لي الخازن بسمة فاهمة وابتعد مع الخادم.

لن أصف عشاءنا بتفاصيله، ولا أريد إلا أن أصوّر حالتي النفسية ذلك المساء، وهي حالة جديدة كل الجدة بالنسبة لي، وسوف تمثّل فيما بعد الوضع الطبيعي في علاقاتي مع أميلي.

يقال إن الآلية هي التي تتيح لنا أن نعيش بلا تعب يتجاوز حدوده، وذلك حين تجعلنا غير واعين لمعظم حركاتنا. إن خطوة واحدة تتطلب تشغيل كمية من العضلات، ومع ذلك، فنحن نقوم بها من غير أن نعي ذلك، بفضل الآلية. وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقاتنا مع الآخرين. إن نوعاً من الآلية السعيدة كان قد حكم حياتي المشتركة مع أميلي، وظللت مؤمناً بأنها تحبني؛ وفي سلوكي نحوها كان التفتح النهائي وحده هو الذي يشع على ضوء شعوري، بينما يظل الباقي كله في ظل عادة رقيقة وآلية. أما وإني قد تجردت الآن من وهم الحب، فقد كنت أعي كل عمل من أعمالي حتى أكثرها تفاهة.

كنت أقدم الكأس لأميلي، وأقرّب المملحة منها، وأنظر إليها،

وأكف عن النظر إليها: وكانت كل حركة مرفقة بمعرفة أليمة، مصدومة، عاجزة، يائسة. وكنت أحسّني منزعجاً، مضطرباً، مشلولاً، غير مستطيع أن أفعل شيئاً من غير أن أقول لنفسي: هل هذا حسن؟ هل هذا سيئ؟ وكنت قد فقدت كل اطمئنان. إن بوسع المرء دائماً أن يؤمل استرداد الثقة المفقودة مع الأجانب؛ أما مع أميلي، فقد كانت القضية قضية تجربة ماضية، مدفونة: فلم يكن لي بعد ما أؤمّله.

هكذا كان الصمت يمتد بيننا، لا تكاد تقطعه إلا جُملٌ تافهة:

- هل تريدين خمراً؟ خبزاً؟ مزيداً من اللحم؟

وكنت أودّ لو أستطيع وصف نوعية هذا الصمت الذي قام ذلك المساء بيننا لكي لا يغادرنا بعدُ أبداً. لقد كان صمتاً لا يُحتمل، لأنه كان سلبياً كل السلبية، مصنوعاً من إسقاط كل ما كنت أودّ أن أقوله وما كنت أحسستني غير قادر على التعبير عنه، ولم يكن بيننا عداء، على الأقل من جانبي، وإنما كان بيننا عجز. كنت بحاجة إلى أن أتكلم، وكانت لديّ أشياء كثيرة أقولها، وفي الوقت نفسه كنت أحسّ أن الكلمات كانت بعد الآن بلا جدوى، وأني لن أستطيع أن أجد اللهجة المناسبة. وإذن، فقد كنت ألزم الصمت، لا مع الشعور الرضي الهادئ الذي يحسه رجل لا يعاني الحاجة إلى الكلام، بل مع شعور رجل يغلي ذهنه بأشياء يعيها ويريد أن يقولها، ولكنه يصطدم عبثاً بهذا الإحساس كما يصطدم بقضبان سجن حديدية. وكان ثمة ما هو أكثر من ذلك: لقد كنت أشعر أن هذا البَكم الذي لا يحتمل كان مع ذلك أنسب وضع بالنسبة لي؛ وأني إذا قطعته، حتى ولو بأفضل طريقة وأحكمها، فإني أوشك أن أخلق مناقشات هي أصعب على الاحتمال من هذا الصمت نفسه، إذا كان ذلك ممكناً.

ومع الأسف، لم أكن قد تعودت بعدُ أن أصمت. لقد تناولنا

اللون الأول من الطعام ثم اللون الثاني، من غير أن نقول كلمة؛ وعند تناول الفاكهة، نفد صبري، فاتجهت إلى أميلي:

- لماذا أنت بكماء؟

وسرعان ما أجابت:

- لأني لا أجد ما أقوله.

- ولم تكن هيئتها حزينة أو عدوانية، وكان لكلامها نبرة الحقيقة.

واستطردتُ برصانة:

- إن ما قلته الآن يستحق أن يُشرح شرحاً وافياً.

وباللهجة الصادقة نفسها قالت:

- انس هذه الأشياء... كما لو أني لم أقلها قط!

فعاودني الأمل:

- لماذا أنساها؟ ليتني متأكد أنها ليست صحيحة، وأنها أفلتت منك بدافع الغضب...

فلم تجب هذه المرة. وتعلقت من جديد بالأمل. ربما كانت قد صارحتني باحتقارها كردّ فعل على عنفي. وألححت بحذر:

- اعترفي بأن هذه الأشياء القبيحة التي قلتها لي اليوم ليست صحيحة... وأنها إنما جاءتك لأنك كنت تظنين في تلك اللحظة أنك حاقدة عليّ وأنك كنت تريدين أن تجرحيني...

فنظرت إليّ نظرة عميقة، وظلت صامتة. وخيّل إليّ - وربما كنت على خطأ - أن عينيها الكبيرتين المعتمتين كانتا مغرورقتين بالدمع. ووثب قلبي، فمددت ذراعي وأمسكت بيدها على الخوان:

- أميلي، إن ذلك لم يكن صحيحاً، أليس كذلك؟

فسحبت يدها بفجاءة غريبة، تقلّص معها جسمها كله لا ذراعها وحدها:

- بلى، كان ذلك صحيحاً.

ولاحظت نبرة الصدق المطلق والحزين معاً في هذا الجواب. وكان يبدو وكأنها تشعر في تلك اللحظة بأن كذبةً ما تستطيع أن ترتب كل شيء، على الأقل لفترة من الزمن، على الأقل في الظاهر؛ وقد راودها ذات لحظة إغراء الكذب، ولكنها بعد التأمل والتدبر، عدلت عن ذلك. وأُصبت من جديد بتشنج ألم عنيف، فتمتمت بين أسناني المنقبضة وأنا خافض الرأس:

- ولكن ألا تفهمين أن هناك أشياء لا يمكن أن نقولها، من غير أن نبرّرها، لأي إنسان، وللزوج بصورة خاصة؟

فلم تجب، واكتفت بأن تنظر إليّ بنوع من الخوف؛ ولا بد أن وجهي في الواقع كان معتكراً بالغضب، وقالت أخيراً:

- إنك تسألني، فأجيبك.
- ولكنك ملزمة أن تفصحي.
- ماذا تعني؟
- يجب أن تشرحي لي لماذا... لماذا تحتقرينني؟
- آه! هذا ما لن أقوله لك أبداً... حتى ولو كنت على وشك الموت!

وعجبت للهجة العازمة بصورة غريبة. ولكن مفاجأتي لم تدم طويلاً. فلقد استولى عليّ غضب لم يكن يترك لي وقتاً للتفكير، فألححت وأنا أمسك بيدها من جديد، ولكن بضمة رقيقة هذه المرة، قائلاً:

- قولي لي، لماذا تحتقرينني؟
- لقد سبق أن أجبتك أني لن أقول لك ذلك أبداً.
- قولي لي، وإلا أوجعتك...

واستبد بي الغضب، فلويت يدها. ونظرتْ إليّ، مشدوهة لحظة،

ثم تشنج فمها بكزازة ألم، وانتشر على وجهها ذلك الاحتقار الذي تحدثت عنه، فقالت بوحشية:

- دعني! ها أنت تريد بالإضافة إلى ذلك أن توجعني؟

ولاحظت عبارة «بالإضافة إلى ذلك» هذه التي كانت تومئ إلى ألوان أخرى من العنف ربما كنت قد كبّدتها إياها، فانقطع نفسي:

- دعني! ألا تخجل؟ إن الخدم ينظرون إلينا...

- قولي لي لماذا تحتقرينني...

- لا تكن أبله... دعني!

- قولي لماذا تحتقرينني...

- أوف!

وحرّرت يدها بحركة عنيفة أسقطت قدحاً على الأرض. وارتفع صوت تحطم زجاج، فنهضت أميلي واتجهت نحو الباب وهي تقول لي بصوت مرتفع:

- إنني سأنتظرك في السيارة ريثما تدفع الحساب.

وخرجت، فظللت مسمراً في مكاني، جالساً، متلاشياً، لا بسبب الإذلال الذي لحق بي - فإن الخدم العاطلين، كما قالت أميلي، لم يرفعوا أنظارهم عنا ولم يفوّتوا أية كلمة من كلماتنا ولا أية حركة من مشادّتنا - وإنما بسبب تصرف زوجتي الغريب. إنها لم يسبق لها قط أن حدثتني بتلك اللهجة، ولم يسبق لها أن شتمتني. وقد ظلت عبارة «بالإضافة إلى ذلك» ترنّ في أذنيّ كأحجية مزعجة أخرى يجب حل لغزها؛ فمتى وكيف كنت قد ارتكبت الأشياء التي كانت، عبر هذه الجملة، تشكو منها؟

وناديت الخادم أخيراً، فدفعت الحساب، وخرجت بدوري.

ولاحظت في الخارج أن الطقس الذي كان طوال اليوم غائماً

متقلباً، قد بدأ يمطر مطراً خفيفاً ناعماً. وفي الظلام، لمحت طيف أميلي واقفاً بإزاء السيارة التي كنت قد أغلقت بابها بالمفتاح، وكانت تنتظرني في صبر تحت المطر. واعتذرت بصوت خال من الطمأنينة:

- اعذريني، كنت قد نسيت أن السيارة كانت مغلقة.

فأجاب صوتها الهادئ:

- لا أهمية لذلك، فالمطر رذاذ...

ومرة أخرى: استيقظ في قلبي أمام تنازلها أمل المصالحة. هل من الممكن أن تحتقر كائناً ونحدثه بمثل هذه اللهجة الرقيقة الودود؟

وفتحت الباب، ودخلنا كلانا إلى السيارة. وأدرت المحرك، وقلت بلهجة بدت لي فجأة خفيفة، ذات مزاج طيب:

- حسناً، أين تريدين أن تذهبي، يا أميلي؟

فأجابتني وعيناها محددتان أمامها:

- لا أدري... حيث تريد.

فأقلعت، وانطلقت السيارة. وكنت أحس، كما ذكرت، انطباعاً من التفاؤل والطلاقة، بل والمرح، كما لو أني حين أغيّر الأمر إلى مزاح، واستبدل بالرصانة والهوس الخفة والدعابة، فبوسعي أن أبلغ التقارب. ولا أدري ماذا أصابني آنذاك؛ ربما كان اليأس قد صعد إلى رأسي، كما يصعد الخمر المسكر؟ وقلت بلهجة لامبالية:

- لنذهب كيفما اتفق، مغامرين...

ولكني إذ نطقت بهذه الكلمات أحسستني إنساناً أخرق، أشبه بأعرج يريد أن يقوم بخطوة في الرقص. وفي هذه الأثناء كانت أميلي صامتة، واستسلمت لما كنت أظنه قريحتي فلم يلبث أن تكشّف تجربة رديئة. وكنت أقود سيارتي الآن على طول جادة «أبيان» التي كنا نستطيع، على ضوء الفوانيس التي كانت تصطف أمامنا، أن نلمح عبر

ألوف الأسلاك اللامعة من المطر، شربينها وقرميد خرائبها المحمرّ، وتماثيل المرمر البيضاء، وأحجار البلاط الروماني المتصدع. وسرنا ردحاً من الزمن، ثم قطعت الصمت فجأة بصوت زائف الحماسة:

- لننسى مرة واحدة من نحن، ولنتخيل أننا طالبان يبحثان عن زاوية هادئة، بعيدة عن العيون الفضولية، ليقوما بفعل الحب في أمان.

فظلت على صمتها، وشجعني ذلك فأوقفت السيارة. وكان المطر يهطل الآن مدراراً، وكانت المسّاحتان تروحان وتجيئان على الزجاج الأمامي فلا تنجحان في إيقاف الرشح الذي كان يعكر الرؤية. ومضيت أقول بصوت قليل الطمأنينة: - نحن طالبان، ولنقل إن اسمي ماريو، وأنت ماريا؛ وقد وجدنا أخيراً مكاناً هادئاً؛ صحيح أنه تحت المطر... ولكننا في السيارة مطمئنان... قبليني.

وأحطت كتفيها بذراعي في سرعة عزم رجل ثمل، وحاولت أن أقبلها.

ما الذي كنت أرجوه؟ لست أدري؛ لقد كان لا بدّ لتصرف أميلي أثناء العشاء من أن يتركني أتنبأ بما كان في إمكاني أن أتوقعه. وحاولت أولاً، في صمت ومن غير استياء، أن تتخلص من ضمّتي، ثم حين رأت أني كنت ألحّ، وأني أخذتها من ذقنها محاولاً أن أدير وجهها نحو وجهي، دفعتني بقوة وهي تقول:

- هل أصبحت مجنوناً؟ هل أنت سكران؟

فتمتمت: لا، لست بسكران، أعطيني قبلة.

فأجابت بما كان لديها غيظاً مشرفاً، وهي تدفعني من جديد:

- ليست لدي أية رغبة في ذلك... وأنت تعجب لماذا احتقرك، حين تتصرف على هذا النحو... بعدما حدث بيننا!

- ولكنني أحبك.

- أما أنا، فلا.

وكنت أحسني مثيراً للسخرية، ولكن مع نوع من الضيق شبيه بضيق إنسان يعي أنه في وضع مضحك ولا سبيل إلى إصلاحه في وقت واحد. على أني لم أكن مستعداً بعد للاعتراف بهزيمتي، فتمتمت بلهجة تريد أن تكون رجولية وحشية:

- ستقبلينني، إن لم يكن بدافع الحب، فبالإكراه!

وارتميت عليها.

ولم تقل شيئاً، ولكنها فتحت باب السيارة فجأة، فسقطتُ إلى الأمام على المقعد الفارغ. كانت قد قفزت من السيارة وهربت إلى الطريق رغم المطر الذي كان يهطل بغزارة.

وظللت لحظة مشدوها. ثم قلت لنفسي: «إنني أبله» وخرجت بدوري من السيارة.

كان المطر يهطل بغزارة، وحين وضعت قدمي على الأرض، أحسستني أغطس حتى الكعب في بركة ماء. وهذا ما فاقم غيظي حتى النهاية، وغرقت في هوة من اليأس. وصرخت غاضباً:

- عودي، يا أميلي! اطمئني، فلن أمسّك بعد!

وسمعتها تقول في الليل:

- إما أن تتصرف بشكل آخر، أو أعود إلى البيت مشياً على القدمين.

فقلت بصوت راجف:

- كفى، عودي. إنني أعدك بكل ما تريدين.

وكان المطر ما يزال يهطل، وكان يدخل من ياقة معطفي فيبلل رقبتي، وكنت أحسه يسيل على جبيني وصدغيّ. ولم يكن ضوء السيارة ينير إلا حيزاً ضيقاً من الطريق، مع خربة رومانية فارغة السقف

وشجرة شربين كبيرة كانت قمتها ترتعش في الليل؛ ولكني حاولت كثيراً أن أعثر على أميلي، فلم أرها. وناديت مرة أخرى، حزيناً:

- أميلي! أميلي!

وانطفأ صوتي في شكوى. وخرجت أخيراً من الظلمة، فرأيتها في مرمى مصباح السيارة، وقالت:

- أتعدني بألّا تلمسني؟

- نعم. أعدك.

فأتت تأخذ مكانها في السيارة وهي تضيف:

- أية ولدنات! هأنذي مبللة... إن رأسي كله مبلل... ويجب عليّ صباح الغد أن أذهب إلى المزين.

وصعدت ثانية إلى السيارة، وما لبثنا أن انطلقنا. وعطست أميلي مرتين بشكل رنان ومسرحي، لكي تُفهمني أنني عرّضتها لالتقاط الزكام. ولكني لم أتوقف عند التحدي، وكنت أقود السيارة كما لو أنني في حلم. حلم مزعج كنت أدعي فيه ريشار وزوجتي تدعى أميلي، وكنت أحبها وهي لا تحبني، بل كانت على العكس تحتقرني.

الفَصْل الحَادي عَشَر

استيقظت صباح اليوم التالي محطماً حزيناً، يستولي عليّ مسبقاً نفورٌ عميق مما كان ينتظرني ذلك اليوم والأيام التالية، مهما كانت الظروف. وكانت أميلي ما تزال نائمة في غرفة النوم، وكنت أنا متمدداً على ديوان غرفة الاستقبال أتقلب طويلاً في الظلّ، مستعيداً ببطء ومشقّة امتلاك الواقع الذي كان النوم قد أنساني إيّاه.

ما الذي كان ينبغي لي أن أفعله؟ وراجعت: كان عليّ أن أقرر هل أقبل أم أرفض سيناريو «الأوديسة»؛ وأن أعرف سبب احتقار أميلي؛ وأن ألتمس الوسيلة لاكتسابها من جديد.

لقد قلت إني كنت أحسستني محطماً، مرهقاً، نافد القوى؛ وهذه الطريقة المنهجية في تلخيص قضايا وجودي الحيوية الثلاث لم تكن في واقعها ـ كما لاحظت بسرعة ـ إلا وهماً كنت أريد أن أنسبه إلى نفسي بامتلاك قوة وتبصر كنت بعيداً عن امتلاكهما. إن جنرالاً أو رجلاً سياسياً أو رجل أعمال يجهدون بالطريقة نفسها لمعانقة القضايا التي ينبغي أن يحلّوها بأن يواجهوها كحاجات محسوسة، جامدة، سهلة الانقياد. ولكنني لم أكن رجلاً من هذا الطراز؛ وكنت واثقاً من أن هذه الطاقة وهذا التبصر اللذين كنت أجهد لابتعاثهما فيّ سأفتقدهما تماماً حين يجب عليّ أن أنتقل من الفكر إلى العمل.

إنني لم أكن أجهل نقصي؛ لم أكن مخدوعاً، وأنا نائم على

ظهري، مغمض العينين، بما كان يحدث في داخلي: فأنا لا أكاد أريد تكوين جواب على أسئلتي الثلاثة، حتى يغادر خيالي ميدان الواقع ليرتمي في سماء الميول الفارغة. وإذن، فقد كنت في الخيال أراني أنشئ سيناريو الأوديسة، كما لو أن شيئاً لم يكن؛ وكان ينتهي بي الأمر إلى تفاهم مع أميلي، وأكتشف أن حكاية الاحتقار هذه كلها التي هي مريعةٌ في الظاهر، كانت قد وُلدت في الواقع من سوء تفاهم طفولي؛ وكنت في نهاية المطاف أتصالح مع زوجتي. وبالإجمال. لم أكن أواجه إلا النهايات السعيدة التي كنت أصبو إليها، ولكن كان ينفتح بين هذه النهايات وبين وضعي الحاليّ هوّة لم يكن بوسعي أن أردمها إلا بأشياء ليس لها أي طابع من الصلابة والانسجام. فلئن كنت أصبو إلى حلّ الوضع وفق رغباتي الأثيرة، فقد كنت أجهل إطلاقاً كيف السبيل إلى بلوغ ذلك.

لقد كنت في غفوة بلا شك، وقد استغرقت ثانية في النوم تماماً بعد فترة من الزمن. وفجأة استيقظت منتفضاً فرأيت أميلي في الروب ديشامبر، جالسة عند أسفل الديوان. وكانت الغرفة ما تزال في الظلّ، والمصاريع مغلقة، ولكن مصباحاً كان مضاءً على طاولة السرير الصغيرة. كانت أميلي قد دخلت، فأضاءت المصباح وجلست عند قدميّ من غير أن أشعر بذلك.

وإذ رأيتها في وضع عائلي مألوف كان يذكرني بيقظات أخرى تعود إلى أزمان سعيدة، خطر لي وهمٌ غامض، فتمتمت وأنا أنهض:

- أميلي، هل تحبينني؟

فتريّثت قبل أن تجيب، ثم قالت:

- اسمع، يجب أن أحدثك...

فهبط عليّ بردٌ شديد، وكنت على وشك أن أقول لها إني لا أريد

أن أتكلم عن شيء، وإني كنت راغباً أن أُترك وشأني بأمان وأن أعود إلى النوم. وبدلاً من ذلك سألتها:

- عمّ تريدين أن تحدثيني؟

- عنّا نحن.

فأجبت وأنا أحاول أن أملك القلق الذي كان يتسرب إليّ.

- ولكن ليس ثمة بعدُ ما يُقال... إنك لا تحبينني بعد... إنك تحتقرينني.. هذا كل شيء...

فقالت بهدوء:

- كنت أريد أن أقول لك إنني عائدة اليوم بالذات إلى بيت أمي. وقد حرصت على أن أُخبرك قبل أن أخابرها... وها أنت الآن تعرف هذا!

والواقع أني لم أكن قد تنبأت بهذا الخبر الذي كان مع ذلك منطقياً بعد ما حدث مساء الأمس. ولكن فكرة إمكانية أن تتركني أميلي، لم تكن قد خطرت لذهني إطلاقاً، مهما بدا ذلك غريباً. كنت أعتقد أنها كانت قد بلغت حدّ القسوة والوحشية معي، وأنها لا تستطيع أن تتجاوزه. ولكنها تتجاوز الآن ذلك الحدّ على نحو غير منتظر ألبتة. وتمتمت، وأنا لا أكاد أفهم.

- تريدين أن تتركيني؟

- نعم.

فلم أجد ما أجيب به؛ ثم دفعني الألم الحادّ الذي كان يخترقني إلى أن أعمل. فقفزت عن الديوان وتوجهت وأنا في منامتي إلى النافذة، كما لو أني كنت أريد أن أدفع المصاريع وأدخل النور، ولكني توقفت وأنا ألتفت وصحت بصوت مرتفع:

- ولكنك لا تستطيعين أن تذهبي هكذا، إنني لا أريد ذلك!

فقالت بصوت متعقل:

- لا تتصرف كالأطفال... إن فراقنا هو الشيء الوحيد الذي يبقى أمامنا... ليس بيننا بعد من شيء، على الأقل في ما يخصني... وهذا أفضل لنا كلينا.

لا أدري ما الذي فعلته بعد كلمات أميلي هذه، أو أنني على الأصح لا أذكر إلا بضع عبارات، وبضع حركات. كان لا بدّ لي من أن أفعل وأقول أشياء لم أكن أعيها قط، كما لو أني كنت فريسة نوع قوي من الهذيان. وأظنّ أني مشيت بخطى واسعة في الصالة، وأنا مرتدٍ منامتي، منفوش الشعر، وأخذت أبتهل تارة إلى أميلي ألا تتركني، وأشرح لها طوراً وضعي، وأحاور نفسي تارة ثالثة كما لو أني كنت وحيداً: كان سيناريو الأوديسية، والشقة، والأقساط التي ينبغي أن تُدفع، ومطامحي المسرحية المضحى بها، وحبي لأميلي، ومناقشاتي مع باتيستا ورينغولد، وجميع مظاهر حياتي وأشخاصها تمتزج على شفتي في فيض من الكلمات المتنافرة، على غرار قطع زجاجية ملونة داخل صندوق للفرجة تهزّه يدٌ غاضبة. ولكني في الوقت نفسه كنت أحس أن صندوق الفرجة تهزّه يدٌ غاضبة. ولكني في الوقت نفسه كنت أحس أن صندوق الفرجة هذا لم يكن إلا شيئاً مسكيناً مضحكاً، مجرد قطع زجاجية ملوّنة، مجمّعة بلا نظام ولا غاية، وأن هذا الصندوق قد تحطم، وكانت قطع الزجاج ملقاة على الأرض شظايا تحت ناظريّ. وكنت أحس في الوقت نفسه شعوراً واضحاً بالاستسلام والتخلي ورعباً من هذا الاستسلام، ولكني لم أكن أتجاوز ذلك، وأنا مرهق، ممتنع عن التفكير وحتى عن التنفس. وكان كياني كله يتمرد بعنف على فكرة الفراق وفكرة الوحدة التي ستليه. ولكن رغم صدق هذا التمرد، لم أكن أجد كلمة واحدة جديرة بأن

تثني أميلي. وبين الفينة، كانت غيمة التبرم والذعر التي تحيط بي تتبدد، فكنت أرى أميلي جالسة على الديوان، في المكان نفسه، وهي تردد في سكون:

- ولكن فكر قليلاً يا ريشارد... إن هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله....
- لا أريد... لا أريد...
- ولماذا ترفض؟ كنت منطقياً...

ولا أدري ما الذي أجبت به، ولكني ظللت أذرع القاعة، وفجأة أمسكت شعري بكلتا يديّ. وكنت أحسني، وأنا في تلك الحالة، عاجزاً عن إقناع أميلي، بل حتى عن مجرد التعبير عن رأيي. واستطعت بجهد أن أتمالك نفسي، وأن أعود لأجلس على الديوان، وأن أسأل، ورأسي بين يديّ:

- ومتى تذهبين؟
- اليوم بالذات.

ونهضت آنذاك وخرجت من الغرفة دون أن تلوي. وهذا الذهاب الذي لم أكن كذلك أتوقعه، شأن كل ما قالت وفعلت حتى الآن، خلّفني مشدوهاً. وحين نظرت فيما حولي، داخلني شعورٌ غريب، مُثلجٌ بدقته. كان الانتزاع قد أُنجز، وكانت وحدتي قد بدأت.

كانت الغرفة هي نفسها التي كانت قبل بضع دقائق، حين كانت أميلي جالسة على الديوان، ولكن كل شيء كان مع ذلك مختلفاً، كما لو أن بُعْداً قد نقص. كان الهجر في الهواء، في مظاهر الأشياء، في كل مكان؛ ومن عجبٍ أنه لم يكن يصدر عني نحو كل ما كان يحيط بي، بل كان يبدو صادراً من الأشياء نحوي. وهذا كله، كنت أفكر به

أقل مما كنت أشعر به في غموض، في أعماق حساسيتي المعتكرة، المتألمة، المشدوهة. ثم لاحظت أني كنت أبكي، لأني بعد أن أحسست تآكلاً عند زاوية شفتي ورفعت إصبعي إليها، وجدت خدي مبللاً. وأرسلت تنهدة عميقة، وأخذت أبكي باستسلام وبدموع غزيرة. وعند ذلك خرجت من الغرفة.

- وفي غرفة النوم، عَبْر نورٍ بدا باهراً بعد عتمة الصالة، فلم تحتمله عيناي المعتكرتان بالدمع، لمحت أميلي جالسة على السرير المدعوك وهي تتلفن لأمها. وقد لفت نظري تعبير التبرّم والخيبة على وجهها. وجلست بالقرب منها، ومضيت في البكاء، ووجهي بين يديّ. لماذا كنت أبكي على هذا النحو؟ إنني لم أكن أميّز السبب جيداً؛ ربما لم أكن أبكي كارثة حياتي وحدها، بل بسبب ألم أشد غموضاً لم يكن له شأن بأميلي ولا بإرادتها في أن تتركني. وكانت في هذه الأثناء تتابع مخابرتها؛ ولا بدّ أن أمها كانت منطلقة في خطاب طويل ومعقد، فقد كنت أرى عبر دموعي تعبيراً شارداً، مستاءً، مريراً، يمر على وجهها، سريعاً ومعتماً كظل غيمة على مناظر الطبيعة. وقالت أخيراً:

- حسناً، حسناً... لقد فهمت... فلا نتحدث بعدُ بهذا...

فقاطعتها أمها في الجهة الأخرى من الخط. ولكن أميلي لم تملك هذه المرة الصبر على الإصغاء حتى النهاية، فقالت فجأة:

- لقد سبق أن قلت لي ذلك... حسناً... لقد فهمت... إلى اللقاء.

ولا بد أن الأم قد أضافت شيئاً ما، ولكن فيما ظل صوتها يُصدي في الجهاز، رددت أميلي بجفاء:

- إلى اللقاء.

وعلقت السماعة. ثم نهضت، وعيناها نحوي، من غير أن تنظر

إليّ مع ذلك، كما لو أنها في حلم. وإذ ذاك تناولت يدها بتلقائية وتمتمت:

- لا تذهبي... أرجوك... لا تذهبي!

إن الأطفال والنساء إجمالاً والنفوس الضعيفة والطفولية يعلقون على الدموع قيمة حاسمة من الإقناع العاطفي. وقد كنت في تلك اللحظة، وأنا أبكي في ألم صادق، أغذي أملاً غامضاً بأن أرقق أميلي بدموعي، شأن الطفل أو المرأة أو الكائن الضعيف. ولئن كان هذا الوهم يعزيني قليلاً، فقد كان يمنحني في الوقت نفسه انطباعاً ما من الرياء، كما لو أني كنت أبكي لغاية، وكما لو أن دموعي كانت نوعاً من «الشانتاج» تجاه أميلي. وفجأة، خجلت من نفسي، ومن غير أن أنتظر جواب زوجتي، نهضت وعدت إلى الصالون. ولم تلبث أميلي أن لحقت بي. وكان قد أُتيح لي أن أسترد نفسي وأن أمسح دموعي وأن ألقي روب ديشامبر فوق منامتي. وكنت أشعل سيكارة لم تكن لي رغبة في تدخينها، وأنا جالس في أريكة، فقالت لي وهي داخلة:

- اطمئن، ولا تخف... فلن أذهب.

فنظرت إليها، وكانت خافضة العينين، وتبدو كأنها تفكر، ولكني كنت أرى زاويتي شفتيها ترتعشان، ويديها تقلبان طرف ثوبها في حركة تنمّ عن الاضطراب والشرود. وتابعت في لهجة كانت تتفاقم تدريجياً:

- إن أمي لا تريدني... وقد قالت لي إنها قد أجّرت غرفتي لطالب، وكان لديها طالبان، مما يرفع العدد إلى ثلاثة، والبيت ملآن... والحق أنها لا تحمل قراري على محمل الجد... وتطلب مني أن أفكر... فأنا إذن لا أدري أين أذهب: وأنا مضطرة أن أبقى معك!

وأصابتني هذه العبارة القاسية في صدقها إصابة عميقة، وأعتقد أني ارتعشت، على أني لم أستطع الامتناع عن الاحتجاج:

- ولكن لماذا تحدثينني بهذه اللهجة؟ مضطرة أن أبقى معك... ماذا عملت لك إذن؟ لماذا تحقدين عليّ؟

وكان دورها الآن في البكاء، على غير رغبة منها في الظهور بهذا المظهر، وهي تخفي عينيها بيدها. وهزت رأسها وقالت:

- إنك لم تكن تريد أن أذهب... فأنا إذن باقية... ينبغي أن تكون مسروراً!

وغادرت أريكتي، وجئت أجلس قريباً منها على الديوان، وأخذتها بين ذراعي بالرغم من حركتها الغريزية في التراجع والمقاومة. وقلت:

- طبعاً أريدك أن تبقي، ولكن ليس على هذا النحو: مضطرة وقسراً... ما الذي فعلته لك يا أميلي حتى تحدثيني بهذه اللهجة؟

- أوه! إذا شئت، فإني سأذهب... سأجد غرفة استأجرها... ولن يكون عليك أن تساعدني طويلاً... سأعود إلى مهنة الضرب على الآلة... وما إن أجد عملاً، حتى أكفّ عن طلب أي شيء منك.

فصحت: - ولكن لا، أريد أن تبقي، ولكن بلا قسر، يا أميلي، بلا قسر...

فأجابت وهي تبكي:

- لست أنت الذي تقسرني، إنها الحياة.

ومرة أخرى، فيما كنت آخذها بين ذراعي، أغراني الموقف أن أسألها لماذا كفّت عن حبي، ولماذا كانت تحتقرني، وما الذي حدث، وماذا فعلت لها. ولكني كنت قد استرددت طمأنينتي، ربما بدافع من معارضة دموعها وتيهها. وقلت لنفسي إن اللحظة لمْ تكن

مناسبةً لأسألها، وإن أسئلتي لن تؤدي إلى شيء، وإن من الأفضل لبلوغ الحقيقة اللجوء إلى وسائل أكثر إقناعاً. وانتظرت قليلاً، فيما كانت ماضيةً في بكائها الصامت، صارفةً وجهها عني. ثم قلت بهدوء:

- هيّا لنوقف كل نقاش، وكل شرح لا يؤدي إلا إلى إيذائنا كلينا... إنني لا أريد أن أعرف عنك شيئاً بعد، لهذه الفترة على الأقل... فاستمعي إليّ: لقد قبلت في النهاية أن أقوم بكتابة سيناريو الأوديسة... ولكن باتيستا يريد أن نقوم بذلك في خليج نابولي حيث ستؤخذ معظم المناظر الخارجية، ولهذا قررنا أن نذهب إلى كابري... وأقسم لك أنني لن أزعجك هناك... وكيف أستطيع ذلك حقاً؟ سيكون عليّ أن أعمل طوال النهار مع المخرج، ولن أراك إلا ساعة الطعام... إنّ كابري مكان رائع... وعما قريب سيحل موسم السباحة: وسوف ترتاحين وتسبحين في البحر وتتنزهين... وسوف تفكرين، وعلى غير عجل، ستقررين في الهدوء المسلك الذي ستسلكينه... إن أمك، بعد كل حساب ليست على خطأ، فجيب على المرء ألا يتصرف إلا بعد التفكير الناضج.. ثم بعد شهرين أو ثلاثة، تبلغينني قرارك، وعند ذاك، عند ذاك فقط سنتناقش فيه.

وكانت ما تزال صارفةً وجهها عني، كما لتتجنب رؤيتي. ولكنها سألتني بصوت قد عاد إليه الاطمئنان تقريباً:

- ومتى سنذهب؟

- فوراً... أقصد في غضون عشرة أيام... بمجرد أن يعود المخرج من باريس.

وكنت أتساءل الآن، وأنا أضمها إليّ فأشعر باستدارة نهديها

وطراوتهما، عما إذا كان بإمكاني أن أجازف بتقبيلها. وفي الواقع، لم تكن تشارك إطلاقاً في ضمتي، وإنما كانت تكتفي بتقبلها. غير أني كنت أتصور أن هذا الجمود لم يكن لامبالياً تماماً، وربما كان يقنّع جاذبية ما خفية. ثم سمعتها تسأل بلهجة مستسلمة أكثر منها متمردة:

- أين نسكن في كابري؟ في الفندق؟

وأجبت بفرح لاعتقادي بأني كنت أسرّها:

- لا، ليس في الفندق، إن الفندق مضجر جداً.. فعندي أفضل من ذلك... إن باتيستا يقدِّم لنا مقصورته... وستكون تحت تصرفنا ما دام عملنا في السيناريو قائماً.

ولم أكد أنتهي من الكلام حتى أدركت، كما حدث منذ أيام حين قبلت دعوة باتيستا بأسرع مما ينبغي، أن أميلي لم تكن، لسببٍ من الأسباب، موافقة على هذا المشروع. وبالفعل، فإنها سرعان ما تخلّصت من ضمتي، وتراجعت إلى الجانب الآخر من الديوان، ورددت:

مقصورة باتيستا؟... وهل قبلت ذلك؟

فقلت مدافعاً:

- كنت أعتقد أن هذا يسرّك... فالمقصورة أجمل وأمتع من الفندق!
- لقد قبلت إذن؟
- نعم، وكنت أظنّ أني حسناً أفعل...
- وسنسكن مع المخرج؟
- لا، فإن رينغولد سينزل في الفندق.
- وباتيستا، هل سيأتي؟
- باتيستا؟

ورددت هذه الكلمة وأنا مندهش قليلاً لهذا السؤال:

- أعتقد أنه سيأتي من حين لآخر.. فيقضي يوماً أو يومين.. في عطلة الأسبوع.. ليرى أين وصلنا في عملنا...

وصمتت هذه المرة، ثم أخرجت منديلها من جيب الروب ديشامبر وتمخطت. وفي هذه الحركة، انشقّ ثوبها حتى قامتها، كاشفاً عن بطنها وساقيها. وكانت قد شبكت ساقيها، كما بدافع من حشمة، ولكن بطنها الأبيض الفتيّ كان يفيض قليلاً على فخذيها المعضلين في غزارة بريئة كانت تبدو أكثر تعبيراً من أي رفض. وإذ كنت أنظر إليها، فيما كان يبدو أنها تهب نفسها على غير وعي منها، استولت عليّ شهوة عنيفة ذات تلقائية لا شبيه لها، أثملتني قليلاً بأمل إمكان امتلاكها. وسرعان ما فهمت، واحسرتاه، أني لن أفعل شيئاً، رغم شهوتي؛ واكتفيت بأن أنظر إليها، خلسة تقريباً، كما لو أني كنت خجلاً من نظراتي. وكنت أقول لنفسي: هكذا إذن، هذا ما وصلت إليه: أن أنظر خلسة إلى عُري زوجتي، مع سحر الثمرة المحرمة، كطفل يتلصص عبر إحدى الفتحات على ما يجري داخل حمّام!

وفي حركة غاضبة، سحبت الروب ديشامبر على الساقين المكشوفتين. ولم يبد على أميلي أنها لاحظت حركتي، ولكنها قالت بصوت استعاد هدوءه، وهي تعيد منديلها إلى جيبها:

- أوافق على أن أذهب إلى كابري.. ولكن بشرط.

فصحت فجأة، وقد نفد صبري:

- لا تتحدثي عن الشروط... إننا سنذهب، هذا متفق عليه، ولكني لا أريد أن أعرف شيئاً... والآن، اذهبي، اذهبي...

ولا بد أنه كان في صوتي نوع من الغضب المجنون، لأنها نهضت فجأة، وهي شبه مذعورة، وغادرت القاعة على عجل.

الفَصْل الثاني عشر

ثم كان يوم السفر إلى كابري. وكان باتيستا قد قرر أن يصحبنا إلى الجزيرة، ليعرفنا على البيت، كما كان يقول لنا. وحين هبطنا إلى الشارع، وجدنا خلف سيارتي الصغيرة سيارة المنتج الضخمة الحمراء. وكنا في الأيام الأولى من حزيران، ولكن الطقس كان ما يزال متقلباً وغائماً، وكانت الريح تزفر. وكان باتيستا واقفاً قرب سيارته، وهو يرتدي سترة جلدية وبنطالاً من نسيج الصوف الخفيف، وكان يتحدث إلى رينغولد الذي كان يلبس ثياباً خفيفة مناسبة، كالألمان الذين يعتبرون إيطاليا بلاد الشمس، وكان يرتدي بذلة من النسيج المخطط مع قبعة بيضاء.

وخرجنا أنا وأميلي من البيت، يتبعنا البواب والخادمة اللذان كانا يحملان حقائبنا؛ وما لبث رفيقانا أن أقبلا علينا؛ وبعد التحيات المألوفة، سأل باتيستا:

- كيف نذهب؟

ومن غير أن ينتظر جواباً، قال:

- أقترح أن تأتي السيدة معي في سيارتي، ورينغولد في سيارتك يا مولتيني... وهذا ما سيتيح لكما أن تتحدثا عن الفيلم في أثناء الطريق.

وأضاف بلهجة رصينة وهو يبتسم:

- اليوم يبدأ العمل الحقيقي.. فأنا أريد أن يكون السيناريو بين يديّ في غضون شهرين.

ونظرت إلى أميلي بصورة آلية تقريباً، فلاحظت على وجهها هذا النوع من تحلل الملامح الذي كنت قد لاحظته مرات سابقة والذي كان يعني لديها تململاً واستياء. ولكني لم أعلّق على ذلك أهمية، كما لم أربط بين تعبير سحنتها وبين الاقتراح الذي قدمه باتيستا، وهو اقتراح معقول بالفعل.

وقلت وأنا أجهد في أن أبدو مرحاً، كما يبدو أن ظروف هذه الرحلة إلى شاطئ البحر تقتضي:

- حسناً.. حسناً.. إن أميلي ستذهب معك، ورينغولد معي... ولكني لا أعد أن أتكلم عن السيناريو..

وتدخلتَ أميلي تقول:

- إنني أخشى السرعة... وأنت يا سيدي تقود بسرعة كبيرة سيارتك هذه!

ولكن باتيستا أخذها من ذراعها باندفاع وهو يصرخ:

- ولكن لا مجال للخوف معي... ثم ممّ تخافين؟ إنني حريص على روحي أنا أيضاً!

وكان يجرّها إلى السيارة فيما هو يتكلم. ورأيت أميلي تنظر إليّ نظرة متسائلة، خائفة، وتساءلت ألا ينبغي أن أحتفظ بها معي؟ ولكني فكرت بأن من الممكن أن يُجرح باتيستا من جراء ذلك؛ لقد كان مهووساً بالسيارات، وكان والحق يقال يقودها قيادة مدهشة، فكان أن صمتُّ. واعترضت أميلي مرة أخرى، في خجل:

- كنت أفضل أن أذهب في سيارة زوجي..

فاحتج باتيستا، وهو يمزح:

- زوجك؟ ما هو هذا الزوج؟. ولكنك طوال النهار مع زوجك... هيا، تعالي، وإلا فسوف أغضب!

وكانا قد وصلا في تلك الأثناء قرب السيارة، وكان باتيستا يفتح الباب، فأخذت أميلي مكانها، بينما استدار باتيستا ليصعد من الجانب الآخر. وكنت أنظر إليهما، حالماً، وارتعشت لصوت رينغولد وهو يسألني:

- هل نحن مستعدان؟

فانتفضت، وصعدت بدوري، وأدرت محرك السيارة.

وسمعت خلفنا هدير محرك سيارة باتيستا التي كانت تُقلع، ثم تجاوزنا وابتعد بسرعة في الشارع المنحدر الضيق. وأتيح لي أن أرى لحظةً من الزجاج الخلفي أميلي وباتيستا جالسين أحدهما قرب الآخر؛ ثم اختفت السيارة عند المنعطف.

كان باتيستا قد أوصانا بأن نتحدث عن السيناريو أثناء الطريق، وكانت توصية نافلة. ذلك أنّا كنا قد اجتزنا المدينة على طولها بالسرعة المعتدلة التي كانت سيارتي تتيحها لي، وكنت أفضي إلى طريق «فورميو» حين بدأ رينغولد الذي كان قد التزم الصمت حتى ذلك الحين، يقول:

- قل لي بصراحة، يا مولتيني، لقد كنت تبدو ذلك اليوم، ونحن عند باتيستا، خائفاً من أن تشارك في فيلم «ضخم»..

فأجبت بشرود:

- وما زلت على خوفي نفسه، بسبب الجو الذي يرين في الاستديوهات الإيطالية.

فقال بلهجة أصبحت فجأة قاسية ومتسلطة:

- ليس أمامك ما تخافه.. فسوف نعمل فيلماً بسيكولوجياً،

وبسيكولوجياً فقط.. كما سبق أن قلت لك.. فأنا لم أعتد، يا عزيزي مولتيني، أن أنطوي لرغبات المنتجين.. بل أنا أفعل ما أريد.. فأنا، لدى أخذ المشاهد، المعلّم وليس أحدٌ سواي.. وإلا امتنعت عن إخراج الفيلم.. هذا شيء بسيط!

وكان شيئاً بسيطاً جداً بالفعل، وأنا أقول ذلك بلهجة مرحة، لأن هذا التأكيد بالسيادة كان يجعلني أؤمل اتفاقاً ممكناً مع رينغولد لأقوم بعمل أقل إضجاراً من المعتاد. واستطرد رينغولد، بعد فترة صمت:

- أود الآن لو أعرض لك بعض أفكاري.. وأظن أنك قادر على قيادة السيارة والإصغاء إليّ في وقت واحد؟

فقلت: - طبعاً!

ولكني في اللحظة التي كنت أستدير فيها نحو رينغولد، انبثقت عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة، فكان لا بدّ من أن أتوقف توقفاً عنيفاً جداً، فإذا بالسيارة تنحرف إلى جانب، وترسم تعرجاً مفاجئاً، وتحيد في مشقة عن شجرة كانت توشك أن تصطدم بها، ولكني أوقفتها في الأوان. وأخذ رينغولد يضحك:

- عجباً! ما كنت أتوقع ذلك قط!

فقلت مغتاظاً بعض الشيء:

- لا تهتم لهذا أنني لم أكن أستطيع قط أن أرى هذين الجاموسين... ولكنك تستطيع أن تتكلم، فأنا مصغ إليك.

ولم يتوقف رينغولد لحظة، بل أنشأ يقول:

- اسمع يا مولتيني. لقد قبلت أن أذهب إلى كابري.. ونحن بالفعل سنأخذ صور الفيلم الخارجية في خليج نابولي، ولكن ذلك لن يكون إلا الديكور؛ أما بالنسبة للباقي، فقد كان بوسعنا أن نبقى في روما.. وبالفعل، فإن درامة يوليوس ليست درامة بحري أو

مكتشف أو منفي، بل هي درامة إنسان... إن أسطورة يوليسوس تصور قصة نموذج إنساني معين.

فصرحت كيفما اتفق لي:

- إن جميع الأساطير اليونانية ليست إلا تصوير الدرامات الإنسانية بلا مكان ولا زمان، الدرامات الخالدة..
- صحيح جداً... إن الأساطير اليونانية، بعبارة أخرى، هي رموز للحياة الإنسانية.. والآن، ماذا ينبغي لنا، نحن المحدثين، أن نفعل لنبعث تلك الأساطير الموغلة في القدم والظلام؟ يجب علينا، قبل كل شيء، أن نجد المعنى الذي يمكن أن تحمله لنا، نحن بشر اليوم، ثم أن نعمّق هذا المعنى ونفسره ونمثّل له.. ولكن بطريقة حية، شخصية، من غير أن ندع أمهات الكتب التي استخرجها الأدب اليوناني من هذه الأساطير، تسحقنا؛ لنأخذ مثلاً: أنت تعرف بلا شك مسرحية أونيل «الحِداد يناسب الكترا» التي أخرجوا منها فيلماً؟
- نعم، أعرفها.
- كان أونيل قد فهم هو أيضاً هذه الحقيقة البسيطة ظاهراً بأنه يجب تفسير الأساطير القديمة بطريقة حديثة، ومنها «الأوريستي»... على أني لا أحب «الحداد يناسب الكترا»، وهل تعرف لماذا؟ لأن أونيل قد خاف من أسخيل.. فقد فكر بأن أسطورة أوريست يمكن أن تفسر بعلم النفس التحليلي.. ولكنه لخوفه من الموضوع، نقل الأسطورة نقلاً مبالغاً في حرفيته.. كتلميذ مجتهد يكتب موضوعه على دفتر من ورق مسطّر.. وبوسع المرء أن يرى الأسطر، يا مولتيني..

وسمعت رينغولد يضحك لفكرته، مسروراً من نقده لأونيل.

وكنا نعبر آنذاك أرياف روما، غير بعيد عن البحر، بين روابٍ منخفضة مذهبة بالقمح الناضج، مع بعض الأشجار الكثيفة هنا وهناك. ولا بدّ أن باتيستا قد سبقنا كثيراً، لأن الطريق، على مدى النظر، كانت خالية في الخطوط المستقيمة وعند المنعطفات. لا بدّ أنه في تلك اللحظة قد سبقنا بخمسمائة كيلومتر، هو الذي يسير بسرعة أكثر من مئة في الساعة.

وسمعت صوت رينغولد يتابع:

- ما دام أونيل قد فهم هذه الحقيقة بأن الأساطير يجب أن تفسّر تفسيراً حديثاً وفق مكتشفات علم النفس الأخيرة، فإنه ما كان ينبغي له أن يحترم أكثر مما ينبغي الحجة، بل أن يديرها ويقلبها، ويبقرها، ويجددها.. وهو لم يفعل ذلك في «الحداد يناسب الكترا» ولهذا جاءت مسرحيته باردة ومضجرة.. إنها تأليف مدرسي.
- لقد بدت لي جميلة بما فيه الكفاية.

فلم يلاحظ رينغولد مقاطعتي إياه، ومضى يقول:

- إننا سنفعل بالأوديسة ما لم يرد أو ما لم يعرف أونيل أن يفعله بالأوريستي: أن نفتحها كما يُفتح جسمٌ بشري على طاولة التشريح، فنفحص حركيّتها الداخلية، ونفكك أجزاءها ثم نعيد تركيبها وفق المتطلبات العصرية..

وكنت أتساءل ما هي غاية رينغولد من هذا، وقلت كيفما اتفق لي:

- إن حركية الأوديسة معروفة: إنها المفارقة بين حنين المنزل والأسرة والوطن، وبين العقبات الكثيرة التي تحول دون العودة السريعة إلى مسقط الرأس وسقف البيت.. إن كل أسير حرب، كل

منفي محتجز لأي سبب بعيداً عن بلاده، بعد انتهاء الحرب، هو على الأرجح يوليسوس صغير على طريقته..

فضحك رينغولد ضحكة تشبه بقبقة دجاجة:

- كنت أنتظرك هنا.. المنفي، الأسير.. ولكن لا، يا مولتيني، لا شيء من هذا.. إنك تتوقف عند المظاهر، عند الوقائع.. فإذا رؤي فيلم «الأوديسة» من هذه الزاوية، فهو يتعرض لخطر ألّا يكون إلا فيلماً «ضخماً» للمغامرات، كما يريده باتيستا.. ولكن باتيستا مخرج، ومن الطبيعي أن يفكر على هذا النحو.. في حين أنك أنت يا مولتيني، مثقف.. إنك ذكي يا مولتيني، فاستعمل عقلك، حاول أن تشغله..

فقلت وأنا منزعج بعض الشيء:

- لا، إنك لا تستخدم ذكاءك. فابحث جيداً، وانظر عن كثب، ولاحظ أول الأمر شيئاً: إن قصة يوليسوس هي قصة علاقاته بزوجته.

فلم أنبس هذه المرة بكلمة. وتابع رينغولد:

- ما الذي يلفت ذهننا أكثر شيء في الأوديسة؟ إنه بطء عودة يوليسوس، قضاؤه عشرة أعوام لكي يعود إلى بيته.. وخلال هذه السنوات العشر، بالرغم من حبه المعلن لبينيلوب، يخونها في الواقع، كلما سنحت له الفرصة.. ويقول لنا هوميروس إن بينيلوب كانت الفكرة الوحيدة ليوليسوس، ورؤيتها من جديد كانت رغبته الوحيدة.. ولكن، هل يجب علينا أن نصدقه، يا مولتيني؟

فقلت بلهجة لا تخلو من سخرية:

- إذا لم نصدق هوميروس، فأنا لا أرى حقاً من نستطيع أن نصدق.
- نصدق أنفسنا، نحن البشر العصريين، الذين نستطيع أن نرى عبر

الأساطير. اسمع: لقد توصلت، بعد أن قرأت الأوديسة مراراً وتكراراً، إلى التفكير بأن يوليسوس في الواقع، ربما من غير أن يدرك ذلك، لم يكن حريصاً على العودة إلى بيته، لم يكن يريد أن يلقى بينيلوب من جديد.. هذا هو استنتاجي الخاص، يا مولتيني..

وظللت على صمتي. وتشجع رينغولد بذلك، فاستطرد يقول:

- إن يوليسوس هو في الواقع رجل يخشى أن يعود إلى قرب زوجته، وسنرى فيما بعد لماذا، ولأنه يعاني هذا الخوف، فهو يلتمس في نصف وعيه أن يخلق لنفسه عقبات حتى لا يعود.. وليست روح المغامرة الشهيرة عنده إلا رغبة لا واعية بإبطاء عودته، موزعاً نفسه في مغامرات تقطعه وتصرفه بالفعل عن طريقه. وليس «شاريبد» و«سكيلا» ولا «كاليبسو» و«الفياسيون» ولا «بوليفيم» و«سيرسيه»، ولا الآلهة هم الذين يعارضون عودة يوليسوس: وإنما هو نصف وعيه الذي يخلق له أعذاراً صالحة ليبقى هنا عاماً، وهناك عامين، وهلم جرّاً..

هكذا: إلى هذا التفسير الفرويدي كلاسيكياً كان رينغولد يريد أن يصل. وكنت مندهشاً فقط ألّا أكون قد فكرت بذلك من قبل؛ لقد كان رينغولد ألمانياً؛ وكان قد بدأ في برلين في موجة فرويد الأولى، وكان قد مرّ في الولايات المتحدة حيث كان علم النفس التحليلي شائعاً، فكان من الطبيعي أن يعمل على تطبيق مناهجه على الإنسان الخالي من العقد خلواً تاماً: يوليسوس.

وقلت بجفاء:

- هذا بارع.. ولكني لا أرى بعد كيف يكون الأمر..
- لحظة، يا مولتيني، لحظة.. إن من الطبيعي إذن، على ضوء تفسيري - وهو التفسير الوحيد الصحيح، بعد الاكتشافات الأخيرة

لعلم النفس الحديث ـ ألّا تكون الأوديسة إلا القصة الصميمية لعدم التلاؤم الزوجي. إذا صح التعبير.. وقضية عدم التلاؤم هذا قد ناقشها يوليسوس وتعمقها كثيراً، ولم يستطع أن يقهرها ويتغلب عليها إلا بعد عشرة أعوام من الصراع ضد نفسه، بقبوله الوضع الذي سبّبها. وبعبارة أخرى، فإن يوليسوس، طوال عشرة أعوام، ظلّ يخلق لنفسه جميع المماطلات الممكنة، ويخترع جميع الأعذار حتى لا يعود إلى منزله الزوجي؛ بل هو يفكر أكثر من مرة أن يربط حياته بحياة امرأة أخرى.. ولكنه يتوصل أخيراً إلى أن يمتلك نفسه، ويعود.. والحال أن عودة يوليسوس هذه تعادل قبولاً للوضع الذي سبّب ذهابه والذي كان يدعوه دائماً إلى تأخير عودته..

فسألته وأنا مشدوه حقاً هذه المرة:

- أي وضع؟ ألم يذهب يوليسوس بكل بساطة ليشارك في حرب طروادة؟

فردد رينغولد في نفاد صبر:

- مظاهر.. مظاهر.. ولكنني سأتكلم عن الوضع في «إيتاك» قبل ذهاب يوليسوس إلى الحرب، وعن كل شيء آخر، حين أشرح لك الأسباب التي جعلت يوليسوس لا يعود إلى إيتاك ويخشى استعادة الحياة الزوجية.. على أني أودّ أن ألاحظ ملاحظة مهمة: إن «الأوديسة» ليست مغامرة تمتد عبر الحيِّز الجغرافي، كما كان هوميروس يودّ أن يثبت لنا.. إنها على العكس المأساة الداخلية ليوليسوس، وجميع الظروف هي رموز نصف الوعي لدى يوليسوس.. إنك طبعاً تعرف فرويد، يا مولتيني..

- نعم، قليلاً.

- حسناً! إن فرويد هو الذي سيكون رائدنا عبر نفسية يوليسوس، لا «بيرار» بخرائطه الجغرافية وعلمه اللغوي الذي لا يشرح شيئاً.. إننا سنكتشف بدلاً من البحر الأبيض المتوسط، نفس يوليسوس، أو بالأحرى نصف وعيه..

وقلت بحيوية ربما كان مبالغاً فيها، إذ كنت منزعجاً بعض الشيء:

- وإذن، فقد كان غير مجدٍ أن نقيم في كابري لنصنع درامة «صالونية». لقد كان بوسعنا أن نعمل في غرفة مفروشة، أو في حيّ حيث من أحياء روما.

ورأيت رينغولد يقذفني بنظرة مندهشة ومجروحة في الوقت نفسه، ثم ينفجر بضحكة مستاءة، كما لو أنه كان يفضّل أن يحوّل إلى المزاح نقاشاً لا يبشّر بالخير. وقد قال:

- الأفضل أن نستأنف هذا النقاش في كابري، في الهدوء. والحق أنك لا تستطيع، يا مولتيني، أن تقود السيارة وأن تناقشني في الأوديسة معاً.. فقُدْ السيارة إذن، أما أنا فسأتأمل هذا المنظر الرائع.

ولم أجرؤ على معارضته؛ وقُدت السيارة صامتاً طوال ساعة تقريباً. واجتزنا أرض المستنقعات القديمة، وعن يميننا القتال البطيء، الكسول، وعن يسارنا السهل الأخضر الّذي أخصبه الريّ. وهذه «سيسترنا».. ثم «تيراسينا». وبعد أن اجتزنا هذه المدينة، بدأت الطريق تحاذي البحر، وكانت في الجهة المقابلة سلسلة من الجبال الصغيرة الصخرية المحترقة بالشمس. ولم يكن البحر هادئاً؛ وقد كان يبدو، فيما وراء التلال الرملية، الصفراء والسمراء، ذا لون أخضر يحدس

المرء أنه صادرٌ عن رمال الأعماق التي كانت عاصفة شديدة قد حركتها. وكانت أمواج كبيرة ترتفع في رخاوة وتأتي لتغمر الشاطئ الضيق بمياهها البيضاء المزبدة. أما في عرض البحر فقد كانت المياه معتكرة بشكل واحد، وكان لونها الأخضر يتغير إلى أزرق شبه بنفسجي كانت الرياح تُرسل إليه أكاليل من الزبد بيضاء. أما السماء، فكانت تكشف الفوضى المتحركة المتغيرة نفسها: غيوم بيضاء تركض في كل اتجاه، وفرجات لازوردية واسعة يكنسها ضوء مشعّ مُعمٍ؛ وطيور بحر مرفرفة، تنقضّ على الأمواج، وتحلق كما لو أنها كانت تسعى بطيرانها إلى مساعدة دوامات الريح وهبّاتها. وقد كنت أقود سيارتي، وعيناي محدّدتان على هذا الديكور البحري، وفجأة، كما لأجيب على الندم الذي أوحى لي به نظر رينغولد المندهش المجروح حين وصفت تفسيره ليوليسوس بأنه «درامة صالونية»، قلت لنفسي، إني بعد كل حساب، كنت على خطأ. وسوف يكون من اليسير، أمام هذا البحر ذي الألوان الحية، وتحت هذه السماء المشعة، بحذاء هذا الشاطئ القاحل، أن أتصور سفن يوليسوس تتهادى فوق الأمواج وتتجه نحو أراضٍ ما تزال عذراء، يجهلها البحر الأبيض المتوسط. وإنما أراد هوميروس أن يصف بحراً كهذا، وسماء وشاطئاً مماثلين، مع أشخاص مصنوعين على صورة هذه الطبيعة التي كانوا يملكون منها البساطة العريقة والإيقاع المحبوب. كان كل شيء هنا، ولكن هذا وحده. وها إن رينغولد يريد أن يصنع من هذا العالم الملوّن المضيء الذي تنعشه الريح، وتنيره الشمس، وتعمره كائنات دقيقة جريئة، نوعاً من التجويف الأحشائي المشوّه الممتقع، لا شمس فيه ولا هواء: نصف وعي يوليسوس. إن الأوديسة على هذا النحو، لن تكون بعدُ المغامرةَ المدهشة لاكتشاف البحر الأبيض المتوسط، الذي كان في

إبّان طفولة البشرية، بل ستكون الدرامة الداخلية لإنسان معاصر هو فريسة تناقضات عُصابية.

واستنتاجاً من هذه التأملات، قلت لنفسي إنه لم يكن ممكناً لي، في معنى من المعاني، أن أقع على سيناريو أسوأ من هذا: فقد كان ينضاف إلى نزعة السينما المألوفة في تغيير ما ليس بحاجة للتغيير إلى ما هو أسوأ، غموضُ علم النفس التحليلي الآلي التجريدي، حين يُطبق على أثر فني محسوس وحر، كالأوديسة.

وكنا في تلك اللحظة نمرّ على مقربة من البحر؛ وعلى حافة الطريق، كانت ثمة أغصان دوال ضخمة مزروعة في الرمل تقريباً، ثم زقاق ضيق من الحصى سوّدته نفايات البحر، وكانت أمواج كبيرة نادرة تنهار عليه بين الفينة والفينة بالزبد المتموّج. وأوقفت السيارة فجأة، وقلت بلهجة موجزة:

- إنني بحاجة إلى إزالة خدر ساقيّ.

وخرجنا من السيارة، فسلكت زقاقاً صغيراً يؤدي، عبر الدوالي، إلى الشاطئ...

وقلت شارحاً لرينغولد:

- ها هي ثمانية أشهر وأنا أعيش مسجوناً، ولم أر البحر منذ الصيف الماضي، فلنذهب لحظة إلى حافة الماء.

فتبعني في صمت؛ أتراه كان ما يزال حانقاً، وهو يعبس فيّ؟ وكان الزقاق يتعرج على طول خمسين متراً عبر الدوالي ويحتضر على رمال الشاطئ. وها إن صخب الأمواج التي تتراكب وتتحطّم في فوضى، يحل الآن محل هدير المحرّك الآلي. ومشيت لحظة، وأنا أغامر بالسير تارة على الرمل المبتلّ اللمّاع، وأنسحب تارة أخرى وفق تقدُّم الأمواج أو انسحابها. وتوقفت أخيراً على رابية، وظللت ساكناً

وقتاً طويلاً، وعيناي ضائعتان في الأفق. وكنت أحسّ أني كنت قد أزعجت رينغولد، وأنه كان عليّ أن أستأنف الحديث، وأنه كان ينتظر أن أنفّذ ذلك. وبالرغم من أنه كان يزعجني جداً أن أقطع تأمُّلي النشوان، قررت أن أتكلم:

- المعذرة، يا رينغولد، ربما كنت قد أسأت التعبير منذ حين، ولكني أصارحك بأن تفسيرك لم يقنعني تماماً... وأنا مستعدّ أن أبيّن لك السبب، إذا شئت.

وسرعان ما أجاب في تواضع:

- تكلم... تكلم... إن النقاش جزء من عملنا، أليس كذلك؟

فاستطردت من غير أن أنظر إليه:

- إنني لا أناقش بأنه يمكن للأوديسة أن يكون لها المعنى الذي تشير إليه.. ولكني أقول إن المزايا المميّزة للأشعار الهوميروسية، وللفن الكلاسيكي بالإجمال، هي أنها تغطّي جميع المفاهيم التي يمكن أن تبرز لأذهاننا الحديثة، في شكل أصفه بأنه عميق...

وأضفت في عصبية مفاجئة وغير قابلة للتفسير:

- أقصد أن جمال الأوديسة يكمن في هذا الإيمان بالواقع كما هو، كما يبدو لنا موضوعياً... في هذا الشكل الذي لا يسمح بتحليله، والذي هو ما هو: فإما أن يؤخذ أو يُترك...

وتابعت أقول من غير أن أنظر إلى رينغولد، وعيناي متجهتان نحو البحر:

- إن عالم هوميروس، بعبارة أخرى هو عالم واقعي. وقد كان هوميروس ينتمي إلى حضارة نمت وفقاً للطبيعة، لا ضدّها؛ من أجل هذا كان يؤمن بحقيقة العالم المحسوس؛ وكان يراه حقاً كما تخيّله... وإذن، فأنا أعتقد أن علينا أن نأخذه كما هو، بأن نؤمن به

حرفياً، كما آمن به هوميروس، من غير أن نبحث فيه عن معنى خفيّ.

وصمتّ، لا لأنني هدأت، بل على العكس لأني اغتظت كثيراً لمحاولتي التفسيرية، كما لو أني بذلت جهداً لا مجدياً. وبالفعل، فلم يتأخر جواب رينغولد، فقال وهو يطلق ضحكة انتصار هذه المرة:

- تعلُّق بالظاهر... تعلّق بالظاهر... يا عزيزي مولتيني! إنك كجميع اللاتينيين ترى الأشياء من الخارج، ولا تدرك أن بإمكاننا أن نراها من الداخل.. ومع ذلك فلا ضير هناك.. فأنا حريص على الاستبطان، إنك إيجابي: من أجل هذا بالذات اخترتك... إن طبيعتك ستوازن طبيعتي... وسترى أن تعاوننا سيسير على خير ما يرام!

وكنت أوشك أن أردّ عليه، وأعتقد أن ردّي كان سيزعجه مرة أخرى، لأني كنت أحسستني من جديد مغتاظاً بعناده وبذهنه المحدود، حين ارتفع من خلفنا صوتٌ نعرفه جيداً يقول على حين غرّة:

- رينغولد، مولتيني، ماذا تفعلان؟ إنكما تبتردان على شاطئ البحر؟

فالتفت، ورأيت في ضوء الصباح الباهر طيفي باتيستا وأميلي على إحدى الروابي المترفعة.

وهبط باتيستا نحونا بسرعة وهو يلوّح بيده على سبيل التحية. وكانت أميلي تتبعه بشكل أبطأ، وعيناها في الأرض. وكان كل شيء لدى باتيستا ينمّ عن حيوية وثقة أشد بروزاً من المألوف، في حين أن موقف أميلي كان يبدو وكأنه يعبّر عن المزاج المعتكر والاضطراب ونوع من الإكراه.

وناديت باتيستا، وأنا دهش:

- كنا نظنكما متقدّمين علينا كثيراً... وربما حتى «فورميا» أو أبعد منها...

فأجاب باتيستا في لامبالاة:

- لقد سلكنا أطول الطرق.. وقد أردت أن أُطلع زوجتك على أحد أملاكي في جوار روما حيث أبني مقصورة لي... ثم وجدنا طريقين مسدودين...

والتفت إلى رينغولد، واستطرد:

- هل كل شيء على ما يرام، يا رينغولد؟ هل تحدثتما عن الأوديسة؟

فأجاب رينغولد بالأسلوب البرقي نفسه، من تحت حافة قبعته البيضاء:

- كل شيء جيد.

وكان واضحاً أن وصول باتيستا كان يزعجه؛ وقد كان يؤثر المضيّ في النقاش معي.

- حسناً... هذا ممتاز...

ثم أخذنا باتيستا بودّ من ذراعينا وجرّنا نحو أميلي التي كانت قد توقّفت غير بعيد، على الشاطئ، وقال في تأدب بدا لي غير محتمل:

- وإذن، يا سيدتي الجميلة، عليك أن تقرري: هل نتناول الغداء في نابولي أم في فورميا، اختاري...

فأجابت أميلي، كما لو أنها أُخذت على غرّة:

- قرروا ذلك فيما بينكم... إن الأمر بالنسبة لي سواء.

- ولكن لا! إن السيدات هن اللواتي يقرّرن!

- إذن لنتناول الغداء في نابولي، فأنا الآن لست جائعة.

- اتفقنا: في نابولي... حساء السمك بالطماطم... والأوركسترا التي تعزف «أوسولوميو»!

مما لا شك فيه أن باتيستا كان منطلق المزاج. وسأل رينغولد:

- في أية ساعة تتجه الباخرة إلى كابري؟

- في الساعة الثانية والنصف. فمن المستحسن أن نذهب.

واتجه باتيستا نحو الطريق، من غير أن ينتظر بعد. فتبعه رينغولد وهو يمشي إلى جانبه. أما أميلي، فإنها بعكس ذلك، لم تتحرك، وبدت وهي تتأمل البحر، كما لو أنها تريد أن تترك رفيقينا يسبقاننا ولكني ما كدت أدركها حتى تناولت ذراعي وقالت لي بصوت خافت:

- أريد أن أذهب الآن في سيارتك... فحاول ألا تخالفني.

فأدهشتني لهجتها العجلى، وقلت:

- ولكن، ماذا حدث؟

- لا شيء، سوى أن باتيستا يقود سيارته بأسرع مما ينبغي!

وسلكنا الممرّ في صمت. وإذ بلغنا الطريق أمام السيارتين الواقفتين، اتجهت أميلي بخطوة عازمة نحو سيارتي. وصاح باتيستا:

- إيه! ألا تأتي السيدة مولتيني معي؟

والتفتّ: كان باتيستا واقفاً قرب باب سيارته المفتوح، على الطريق التي تغمرها الشمس. أما رينغولد، وكان ما يزال بين السيارتين، وهو في حيرة، فكان ينظر إلينا على التوالي. فقالت أميلي في هدوء من غير أن ترفع صوتها:

- أنا ذاهبة مع زوجي هذه المرة... وسنلتقي في نابولي...

وكنت أظن أن باتيستا لن يلحّ. ولكنه، بعكس ذلك، أسرع إلينا يقول:

- ولكن، يا سيدتي، ستبقين طوال شهرين مع زوجك في كابري...

ثم أضاف بصوت منخفض، حتى لا يسمعه المخرج:

- وأنا.. قد ضجرت في روما من صحبة رينغولد؛ وأؤكد لكما أنه لا

يسلّي! وليس لدى زوجك بالتأكيد أيّ اعتراض على أن تأتي معي، أليس كذلك، يا مولتيني؟

ولم يسعني إلا أن أجيب، على مشقة مع ذلك:

- على الإطلاق... ولكن أميلي تقول لي إنك تسوق بسرعة تتجاوز الحدّ المعقول!

فقال باتيستا بلهجة عاجلة ومازحة، في وقت واحد:

- سأسير كالبزّاقة... ولكنني أرجوكما ألا تدعاني وحدي مع رينغولد...

وأضاف هامساً:

- ليتكما تعرفان كم هو مضجر! إنه لا يتكلم إلا في السينما...

ولا أدري لأي دافع خضعت. ربما فكرت بأن عذراً تافهاً كهذا لم يكن يبرّر إغضاب باتيستا. فقلت، حتى من غير أن أفكر:

- هيا، يا أميلي.. إنك تريدين طبعاً أن تسرّي باتيستا.. والواقع أنه على حقّ.. فإن المرء لا يستطيع مع رينغولد أن يتكلم إلا عن السينما!

فأكد باتيستا ذلك راضياً:

- هذا صحيح.

ثم أخذ أميلي من أعلى ذراعها، فيما تحت الإبط، وهو يقول:

- هيّا يا سيدتي الجميلة، لا تكوني خبيثة.. إنني أعِدُك أن أسير ببطء!

ورمتني أميلي بنظرة لم أعرف لحظتذاك كيف أصفها، ثم أجابتني بهدوء:

- ما دمت راغباً في ذلك... هيّا، في الطريق!

وتركت لباتيستا أن يقودها من ذراعها، كما لو أنه كان يخشى أن تفرّ. وظللت متردداً أمام سيارتي وأنا أرى باتيستا وأميلي يبتعدان.

وكانت تمشي إلى قربه، وهو ربعٌ أقصر منها، بخطوة لامبالية ومشية عابسة كان يبدو أنها تكشف مع ذلك شهوانية كثيفة وغريبة. لقد بدت لي فجأة جميلة جداً؛ لا على أنها «السيدة الجميلة» البورجوازية التي كان يوحي بها باتيستا بصوته المعدنيّ النافد الصبر، بل على أنها جميلة جمالاً صادراً من أعماق العصور، ومنسجماً مع البحر المتلألئ والسماء المشعّة التي كانت قامتها الطويلة تقف دونهما. وقد كان لهذا الجمال تعبير مقهور قلق لم أكن أعرف إلامَ أعزوه. وفيما كنت أتأملها عبرت ذهني فكرة مفاجئة: «كم أنت سخيف! ربما كانت تريد أن تبقى معك وحدها، ربما كانت راغبة في التحدث إليك، في أن توضّح موقفها مرة وإلى الأبد، في أن تسرَّ إليك بشجونها... ربما كانت تريد أن تقول لك إنها تحبك... وها أنت تجبرها على أن تذهب مع باتيستا!».

وأحسست بحسرة مريرة ورفعت ذراعي كما لأناديها. ولكن الأوان كان قد فات، إذ إنها قد صعدت إلى سيارة باتيستا. وكان هذا قد اتخذ مكانه بدوره، وكان رينغولد يتجه نحوي. واستقللنا كلانا سيارتي. وفي اللحظة ذاتها، تجاوزتنا سيارة باتيستا، وصغرت تحت أنظارنا ثم اختفت في البعيد.

ولا شك أن رينغولد قد لاحظ تعكر مزاجي العنيف، ذلك أنه بدلاً من أن يستأنف حديثه عن الأوديسة، كما كنت أخشى، خفض قبعته على عينيه، وتجمَّع فوق مقعده، وما لبث أن أغفى. وهكذا قُدت في سكون، دافعاً سرعة سيارتي المسكينة إلى الحد الأقصى؛ وكان تعكر مزاجي، من جراء ذلك، يزداد ويتفاقم. وكانت الطريق قد ابتعدت عن البحر، وكانت تجتاز آنذاك ريفاً باذخاً تذهّبه الشمس. ولو كنت في وضع آخر لوقعت تحت سحر تلك الأشجار الكثيفة التي

كانت أحياناً تشكل فوق رأسي قبّة من الورق المخضوضر، وأشجار الزيتون تلك الرمادية المنتشرة على مدى النظر على الروابي الحمر، وتلك الأدغال من شجر البرتقال ذات الأوراق البرّاقة والمعتمة التي كان يشعّ خلالها ذهب الأثمار، وتلك المزارع القديمة المسودّة بالسنين التي كانت تحرسها كومتان أو ثلاث من التبن الأشقر!

ولكني لم أكن أرى شيئاً، كنت أقود السيارة فيزداد حنقي مع مرور الزمن. ولم أكن ألتمس تحديداً السبب الذي كان يتجاوز بكل تأكيد مجرّد الندم لأني لم ألحّ على الاحتفاظ بأميلي قربي. والحق أني لو أردت أن أحلّل نفسي، لما كان ذهني المعتكر بالعصبية قادراً على ذلك. إن مزاجي المستاء الذي كان أشبه بتشنّج عصبي لا يُقاوم، ثم يخفّ تدريجياً وينقطع مخلّفاً المريض في الانحطاط والألم، بلغ أوجه فيما كنا نجتاز الحقول والغابات والسهول والجبال، ثم خفّ وتلاشى نهائياً عند وصولنا إلى نابولي. وكنا نهبط بسرعة من الروابي نحو البحر، بين أشجار الصنوبر والمانوليا، ونحو الخليج الأزرق، وكنت أحسني مسترخياً واهناً، أشبه برجل مصاب بالصرع حطّمه روحاً وجسداً تشنّج عنيف لا يحتمل المقاومة.

الفَصْل الثَّالث عَشَر

كانت مقصورة باتيستا، كما علمنا لدى وصولنا إلى كابري، بعيدة عن وسط التجمع، في زاوية خالية من زوايا الشاطئ، مقابل شبه جزيرة «سورانتا». وبعد أن رافقنا رينغولد إلى الفندق، سلكنا، باتيستا وأميلي وأنا، الطريق الضيق الذي يؤدي بنا إلى المقصورة.

وكان طريقنا يتبع أولاً زقاق النزهة المظللة الذي يستدير حول الجزيرة. وكان المغيب قريباً، وكان أشخاص قليلون يمرون تحت ظل أشجار الغار المزهرة، فوق الأرض المبلطة، بين جدران الحدائق الكثيرة. وهنا وهناك، بين أشجار الصنوبر والخرنوب، كان يُلمح البحر البعيد في ازرقاق قاسٍ كانت تضربه الإشعاعات المتلألئة الباردة للشمس الغاربة.

وكنت أمشي خلف باتيستا وأميلي، وأنا أتوقف بين الفينة والفينة لأتأمل جمال الطبيعة. وللمرة الأولى منذ وقت طويل كنت أحسني سعيداً، أو على الأقل هادئاً مرتاح النفس، وهذا ما أدهشني. وعبرنا درب النزهة بطوله، ثم دلنا إلى ممر أضيق. وفجأة، برزت لنا عند أحد المنعطفات صخور «الفارغليوني» العالية، وسرني أن أسمع أميلي ترسل صيحة انشداه وإعجاب. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقصد فيها كابري، ولم تكن حتى ذلك الحين قد فتحت فمها. وكانت الصخور الكبيرة الحمراء تسحر النظر بغرابتها وشبهها، وهي على

سطح البحر، برُجُم ساقطة من السماء على مرآة. ورويت لأميلي، وأنا مبهور بهذا المنظر، أن المرء يجد على صخور «الفارغليوني» نوعاً من الحرذون غير موجود في أي مكان آخر: حرذون أزرق اللون لشدة ما عاش بين لازورد السماء وزرقة البحر. وقد أصغت لي باهتمام كما لو أنها نسيت لمدة لحظة شعورها العدائي نحوي. ولم يسعني أنا إلا أن أداعب أملاً جديداً بالمصالحة. وفي ذهني، كان هذا الحرذون الأزرق الذي كنت أصفه قابعاً في شقوق الصخور، يصبح رمزاً لما يمكن أن نكونه نحن أنفسنا إذا كنا سنبقى طويلاً في هذه الجزيرة: إن روحنا ستتلبس اللازورد، في هدوء هذا المكوث البحري، بعد أن تكون قد اغتسلت رويداً رويداً من سواد أفكارنا المدنية الحزينة، فنشع بلازورد داخلي، على صورة هذه الحراذين، وعلى صورة البحر والسماء وكل ما هو نورٌ وصفاء وفرح.

ومضى الممر، فيما بعد الفاراغليوني، متعرجاً بمحاذاة المنحدرات الجرداء الخالية من السكان والحدائق. وبدا لنا أخيراً، في ركن منعزل، بناء طويل منخفض يمدّ سطيحته الكبيرة فوق مياه البحر: مقصورة باتيستا.

لم يكن البيت واسعاً: فإنه بالإضافة إلى غرفة الجلوس التي كانت منفتحة على السطيحة، لم يكن ثمة إلا ثلاث غرف أخرى. وكان باتيستا يتقدمنا، وهو يقوم بدوره كمالك، فشرح لنا ببعض المباهاة أنه لم يسبق له قط أن عاش في هذه المقصورة التي كان يمتلكها منذ عام تقريباً، والتي تخلى له عنها أحد مدينيه كجزء من دينه. وأخبرنا أن كل شيء كان ملحوظاً بالنسبة لوصولنا: فهناك زهور في آنية الصالون، والبلاط عاد يلمع من جديد فكانت تنبعث منه رائحة شمع قوية، وحين اقتربنا من المطبخ، كانت هناك امرأة الحارس

منشغلة في الفرن، وهي تعدّ لنا العشاء. وكان يبدو على باتيستا أنه مهتمّ بأن يرينا كل تسهيلات المقصورة، وقد أراد أن نزورها بكل تفاصيلها، ودفع لطفه إلى حد فتح الخزائن، وهو يسأل أميلي إن كان ثمة مشاجب كافية. ثم عدنا إلى الصالون. وتحججت أميلي بأنها كانت تريد أن تغير ثيابها، وخرجت. ووددت أن أحذو حذوها، ولكن باتيستا منعني من ذلك وهو يجلس في أريكة ويطلب مني أن أفعل مثله. وأشعل سيجارة، وقال لي بشكل غير منتظر، وبلا مقدمات:

- قل لي، يا مولتيني، ما هو رأيك برينغولد؟

فأجبت وقد فوجئت بعض الشيء:

- لا أدري... إنني لا أعرفه معرفة كافية لإصدار حكم عليه... ولكنّ شعوري هو أنه إنسان رصين جداً... وأعتبره مخرجاً ممتازاً...

وفكر باتيستا لحظة، ثم قال:

- اسمع يا مولتيني، أنا أيضاً أعرفه قليلاً، ولكني أعرف ماذا يفكر وماذا يريد... إنه قبل كل شيء ألماني! ونحن، كلانا، على العكس إيطاليان: وهذان عالمان، مفهومان للحياة، حساسيّتان!

فلم أقل شيئاً؛ كان باتيستا، على عادته، يتناول الأمور من بعيد، خارج كل مسألة مادية، وكنت أنتظر لأرى ما هي غايته. واستطرد يقول:

- ولئن أردت أن أضعك أنت، الإيطالي، بجانب رينغولد، فذلك لأني أحسّه مختلفاً عنا كل الاختلاف... إن لي ملء الثقة بك، يا مولتيني، وقبل أن أذهب، لأنّ عليّ من سوء الحظ أن أذهب بأسرع ما أستطيع، فإني حريص على أن أقدم لك بعض التوصيات.

فقلت ببرودة:

- إنني مصغٍ إليك.
- لقد لاحظت رينغولد في أثناء مناقشتنا للفيلم: فإما أن يعطيني الحق، أو أن يصمت... ولكني قد جربت البشر أكثر مما ينبغي لكي أؤمن بمثل هذا الوضع؛ إنكم، أنتم المثقفين يا مولتيني، إنكم جميعاً، بلا استثناء، تفكرون بأن المنتجين ليسوا إلا رجال أعمال، ولا شيء غير ذلك... لا تعطيني تكذيباً لذلك، يا مولتيني، فهذا هو رأيك، وهو كذلك رأي رينغولد.. والحال أن هذا صحيح إلى حدّ ما.. وربما كان رينغولد يفكر بإنامتي بسلوكه السلبي، ولكن عينيّ مفتوحتان على سعتهما، يا مولتيني، على سعتهما!

فقلت بلهجة جافة:

- هل يعني هذا إجمالاً أنك غير واثق برينغولد؟
- أنا واثق وغير واثق... إنني أثق به كتكنيكي، كرجل مهنة.. ولكني لا أثق به كألماني ينتمي إلى عالم مختلف عن عالمنا..

ووضع باتيستا سيجارته على المنفضة ونظر في عينيّ، ثم تابع:

- ليكن مفهوماً يا مولتيني أني أريد فيلماً قريباً إلى أبعد حد ممكن من أوديسة هوميروس. أية فكرة قادت هوميروس في الأوديسة؟ لقد أراد أن يروي مغامرات تملك على القارئ دائماً أنفاسه، قصة، لنقل مسرحية... هذا ما أراد هوميروس أن يصنعه.. وأنا أريد أن تظلّا أمينين على هذا المفهوم.. إن هوميروس يصوّر لنا في الأوديسة عمالقة وعواصف وسحرة وشياطين، وأنا أريد أن تطورا لنا عمالقة وعواصف وسحرة وشياطين...

فقلت له وأنا شبه مشدوه:

- ولكننا سنريك ذلك...

فردد باتيستا بحماسة مفاجئة:

- سنريك ذلك... سنريك ذلك... ربما كنتما تعتبرانني أبله، يا مولتيني، ولكني لست بالأبله...

وكان قد رفع صوته، وجعل يحدجني بنظرة يتطاير منها الشرر. وقد أدهشني نفاد الصبر هذا المفاجئ، وأدهشتني أكثر من ذلك حيوية باتيستا الذي كان قد قاد سيارته طوال النهار، وعبر الطريق من نابولي إلى كابري، وكان ما يزال راغباً في مناقشة نوايا رينغولد، بدلاً من أن يرتاح كما كنت أفعل لو كنت مكانه. وقلت برخاوة:

- ما الذي يجعلك تفكر بأنني... أعتبرك أبله؟
- موقفكما أنت ورينغولد.
- أفصح.

وتناول باتيستا سيجارته، وقد عاوده بعض الهدوء، ثم أضاف:

- إنك تذكر اليوم الذي لقيت فيه رينغولد للمرة الأولى في مكتبي... لقد قلت لي يومذاك، إنك لا تشعر بأنك قادر على أن تعمل فيلماً «مسرحياً»، أليس كذلك؟
- نعم، يبدو لي ذلك.
- وماذا قال لك رينغولد ليردّ لك اطمئنانك؟
- لا أذكر هذا جيداً.
- إنني سأرطب لك ذاكرتك... لقد قال لك رينغولد إنه ينبغي ألا تعذب نفسك، لأنه كان ينوي القيام بفيلم بسيكولوجي، فيلم عن الحياة الزوجية ليوليسوس وبنيلوب، أليس كذلك؟

فزادت دهشتي: لقد كان باتيستا، تحت قناعه الوحشي ذاك، أرقّ مما كنت أظنّ، وأجبت:

- نعم، أظن أنه قال لي شيئاً من هذا القبيل...

- حسناً، ما دام السيناريو لم يبدأ بعد، ولم يُفعل شيء بعد، فمن المستحسن أن أحذرك بكل جدّية. إن الأوديسة في رأيي هي شيء آخر غير الصعوبات الزوجية ليوليسوس وبينيلوب.

وصمتّ، ثم استطرد باتيستا بعد توقف قصير:

- حين أريد أن أعمل فيلماً عن الحياة الحميمة بين زوج وزوجته، آخذ رواية عصرية، وأنا لا أترك روما، بل آخذ الفيلم بين غرف النوم والاستقبال، ولا أذهب لأزعج هوميروس والأوديسة... هل أدركت قصدي، يا مولتيني؟
- نعم، نعم، فهمت.
- إن العلاقات بين الزوج والزوجة لا تهمني، لو تعلم، يا مولتيني! والأوديسة، في نظري، هي قصة مغامرات يوليسوس خلال رحلة العودة إلى إيتاك، والفيلم الذي أريده هو فيلم مغامرات يوليسوس... أقول لك ذلك بوضوح حتى لا يبقى ثمة أي شك ممكن؛ إنني أريد فيلماً مسرحياً، مسرحياً، هل تسمع، يا مولتيني؟

فقلت منزعجاً بعض الشيء:

- حسناً، ستحصل على فيلم مسرحي.

ورمى باتيستا سيكارته وتابع بلهجة عادية:

- إن لي حساباً، في آخر المطاف... فأنا الذي يدفع.. وافهم يا مولتيني أني حدثتك على هذا النحو لأتجنب كل التباس. إنك ستبدأ العمل صباح الغد، وقد أردت أن أنبهك في الوقت المناسب، لمصلحتك الخاصة. إن لي ثقة بك، وأريدك أن تكون ترجماني بالقرب من رينغولد. يجب أن تذكره، كلما وجدت ذلك ضرورياً، بأن الناس إذا كانوا قد أحبوا الأوديسة ولا يزالون يحبونها، فذلك بسبب الشاعرية التي تتضمنها... وأنا حريص على

أن تنقل هذه الشاعرية كلها إلى فيلمي، كلها، كما هي...

وفهمت أن باتيستا قد استرد هدوءه كلياً، فهو في الواقع لم يكن يتحدث بعد عن الفيلم المسرحي الذي كان يطلبه منا، بل عن الشاعرية. وإذن، فقد عدنا، بعد جولة قصيرة في أقبية النجاح المالي، إلى مناطق الفن والفكر. وقلت ببسمة مغتصبة:

- لا يساورك أي خوف يا باتيستا... ستحصل على شاعرية هوميروس كلها... على الأقل الشاعرية التي نستطيع أن نعثر عليها عنده.
- حسناً... حسناً... لا نتكلم بعدُ بهذا.

ونهض باتيستا وهو يتمطى، ونظر إلى ساعته في معصمه، وأعلن فجأة أنه ذاهبٌ ليستعد للعشاء ثم خرج.

وظللت وحدي. وكنت قبل ذلك بلحظة أفكر أنا أيضاً في أن أنسحب إلى غرفتي لأعدّ نفسي قبل العشاء. ولكن النقاش الذي قام بيننا كان قد أهجاني وشردني؛ ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، بآلية. كانت كلمات باتيستا قد جعلتني أحسّ، للمرة الأولى، بصعوبة هذا العمل الذي كنت قد قبلته بشيء من الخفة، إذ لم أر فيه إلا الحسنات المادية؛ وكان يخيل لي الآن أني أستشعر مسبقاً التعب والضجر اللذين لا يمكن إلا أن أحس بهما حين ينتهي السيناريو. وفكرت: «لماذا هذا كله؟ لماذا ألزم نفسي بهذا العمل المزعج، وبالمناقشات التي لا مفر منها بيني وبين باتيستا، من غير أن أتحدث عن المناقشات التي ستقوم بيني وبين رينغولد، والتسويات التي ستنشأ عن ذلك بالضرورة، والمرارة التي سأحسها حين أضع توقيعي في أسفل عمل مصطنع ومأجور... لماذا هذا كله؟».

وإذن، فهذه الإقامة في كابري التي كانت قد بدت لي مليئة بالسحر حين كنت أتأمل صخور الفاراغليوني من أعلى الممر، كانت

تبدو لي الآن وهي مطبوعة بضجر مهمة عاقّة مشكوك فيها: هي مهمة التوفيق بين متطلباتي ككاتب شريف ومتطلبات المنتج المختلفة كل الاختلاف. ومرة أخرى، وبشكل واضح كل الوضوح، كنت أحس بأن باتيستا كان المستخدِم، وكنت أنا المستخدَم، وأن الخادم يستطيع أن يفعل كل شيء، باستثناء عصيان معلمه، وأن الدهاء والتبجيل اللذين يحاول بهما أن يتجنب سلطة سيده هما أشد إذلالاً من الطاعة الكاملة، وأني إذ أوقع عقدي بالإجمال، أكون قد بعت روحي لشيطان أكثر تطلباً من جميع الشياطين. وكان باتيستا قد أومأ إلى ذلك في اندفاع من صراحة وإخلاص حين قال: «أنا الذي أدفع!» ولم أكن بالتأكيد في حاجة إلى مثل هذا الإخلاص لأقول لنفسي: «وأنا الذي يُدفع له!»K لقد كانت هذه العبارة ترنّ في أذني كلما فكرت بالسيناريو. وفجأة، أوحت لي هذه الأفكار شعوراً بالاختناق، وراودتني الرغبة في أن أتنفس هواء مختلفاً عن الذي كان يتنفسه باتيستا.

وقصدت الباب ـ النافذة، ففتحته، وخرجت إلى السطيحة.

الفصلُ الرَّابع عَشَر

كان الليل هابطاً، وكانت السطيحة مضاءة بالضوء اللامباشر الذي كان القمر غير الظاهر يرسله في السماء كثيفاً. ومن السطيحة، كان سلّم صغير يؤدي إلى الطريق الذي يحيط بالجزيرة. وترددت لحظة في هبوط هذا السلم لأذهب في نزهة، ولكن الوقت كان متأخراً، وكان الطريق مظلماً. وعزمت على أن أبقى على السطيحة، فاترفقت الحاجز وأشعلت سيجارة.

وفوقي، كانت صخور الجزيرة ترسم أشكالها السوداء الحادة على السماء المتلألئة. وكان الصمت عميقاً، فلم أكن أسمع إذ أرهف أذني إلا وشوشة الموج الذي يتصاعد من الشاطئ ويذهب فيرتمي بين الفينة والفينة على صخور الحصباء، ثم ينسحب. والحق أن ذلك قد لا يكون إلا وهماً، ولم يكن ثمة إلا تنفس البحر الهادئ الذي كان ينفتح ويتمدد وفق المدّ والجزر. وكان الهواء جامداً، من غير نسمة ريح، وكان بوسعي وأنا أرفع عينيّ نحو الأفق أن ألمح في البعيد، على القارّة، الضوء الصغير الأبيض لمنارة كامبانيلا التي كانت تدور بلا كلل، مضاءة تارة، منطفئة تارة أخرى، وكان هذا الضوء الذي لا يكاد يُرى في الليل الهائل هو العلامة الوحيدة للحياة المحسوسة.

وسرعان ما هدّأني هذا الليل الهادئ إلى هذا الحدّ، ولكني كنت أشدّ تبصّراً من أن يغيب عني أن جميع ألوان الجمال في العالم لم

تكن تستطيع أن توقف مجرى همومي ومشاغلي إلا فترة قصيرة. والواقع أن فكري، بعد أن بقيت مدة طويلة في الظلام، جامداً والعقل مني فارغ، عاد بالرغم عنه إلى فكرته الطاغية، فكرة أميلي؛ وربما استوحيت حديثي باتيستا ورينغولد وهذا المشهد الموحي من فصول الملحمة الهوميروسية، لأجمع جمعاً غامضاً فكرة أميلي إلى فكرته سيناريو الأوديسة.

وانبثقت في ذهني فجأة، لا أدري من أين، ذكرى مقطع من آخر نشيد في الأوديسة يصف فيه يوليسوس، ليثبت هويته، سرير الزواج. وإذ ذاك تعرف بينيلوب زوجها، فيمتقع لونها ويغمى عليها نصف إغماء، وترتمي أخيراً على عنقه وهي تبكي وتقول له هذه الكلمات التي كنت أحفظها عن ظهر قلب لشدة ما قرأتها ورددتها بيني وبين نفسي:

آه! لا تغضب مني يا يوليسوس.
أنت الذي ظهرت دائماً وفي جميع الظروف
أعقل الناس. إن الآلهة قد حكمت
علينا بالشقاء، وهي لم تُرد أبداً
أن نستطيع جنباً إلى جنب أن نتمتع
بسنواتنا الخضراء المزهرة
وأن يرى أحدنا، مع الزمن، رويداً رويداً
شعر الآخر يبيضّ

ومن سوء الحظ أني لم أكن أعرف اليونانية، ولكني كنت أحدس أن ترجمة «باندمونت» لم تكن أمينة، لأنها لم تكن تنقل أي شيء من الجمال الطبيعي للنص الأصلي. على أن هذه الأبيات، حتى في تعبيرها المفخّم، كانت تروق لي كثيراً بسبب العاطفة التي تشفّ عنها.

وكان قد حدث لي وأنا أقرأها أن قارنتها بأبيات بيترارك في القصيدة المعروفة التي تبدأ هكذا:

لقد أرانا الحبّ مرفأ هادئاً

وتنتهي بالثلاثية:

ولا شك في أنها كانت ستجيبني
وهي تتنهد بعض الكلام المقدس
بوجهينا المتغيرين كشعرها وشعري

إن ما استوقفني آنذاك، لدى هوميروس وبيترارك، هو الشعور بحبّ ثابت غير قابل للهدم، حب لا يستطيع شيء أن يزعزعه أو يضعفه، حتى ولا الزمن. لماذا كانت تلك الأشعار تعاود ذاكرتي في تلك اللحظة بالذات؟ وأدركت أن هذه الذكرى قد استيقظت لدى التفكير بعلاقاتي مع أميلي، تلك العلاقات المختلفة كل الاختلاف عن التي كانت تشدّ يوليسوس وبينيلوب، وبيترارك ولور، عن العلاقات التي بدأ تزعزعها، لا بعد وحدة طويلة دامت عشرات السنين، بل بعد بضعة أشهر، والتي لم تكن تستطيع أن تسمح لنا بالركون إلى المنظور المعزّي بحياة تنتهي ببقاء الحب لدى اثنين، كما كانا عاشقين منذ اليوم الأول، بالرغم من «تغيّر وجوهنا وشعرنا». غير أني كنت قد تمنيت كثيراً أن تبرّر حياتنا الزوجية أملَ مستقبلٍ مُماثل، وكنت أظلّ تائهاً مذعوراً أمام الانفصام الذي لم أكن أفهمه والذي كان يحول دون تحقّق حلمي. لماذا؟ وكما لو أني كنت ألتمس جواباً على سؤالي في هذه المقصورة التي كانت زوجتي موجودة فيها، أوليت البحر ظهري لأنظر إلى النوافذ.

وكان بإمكاني أن أرى، من زاوية السطيحة التي كنت جالساً فيها، ما كان يجري في الصالة، من غير أن أُرى. وإذ رفعت نظري،

رأيت أن باتيستا وأميلي كانا كلاهما في غرفة الجلوس. وكانت أميلي التي ترتدي الثوب الأسود العاري الظهر نفسه الذي كانت ترتديه يوم لقائنا الأول بباتيستا، واقفة قرب بار صغير متحرك، وكان باتيستا منحنياً فوق البار يُعدّ مشروباً كحولياً في قدح كبير من البلور. وأدهشني أن أجد لدى أميلي تعبيراً غير طبيعي، هو مزيج من اللامبالاة والانزعاج، وكان ينمّ عن الضيق والإغراء. كانت واقفة بانتظار أن يمدّ لها باتيستا قدحاً، وكانت تنظر فيما حولها نظرة مترددة كنت أكتشف فيها آثار قلق معتكر. وبعد أن أنهى باتيستا مزيجه، ملأ قدحين في عناية واستقام ليقدم لأميلي أحدهما. وأصيبت هي برعشة، كما لو أنها كانت تستيقظ من شرود عميق، وقدمت يدها. وتوقفت عيناي عليها، منتصبة أمام باتيستا، متراجعة قليلاً إلى الوراء، ويدها مرفوعة تحمل قدحها، والأخرى معتمدة على ظهر أريكة؛ ولم أستطع الامتناع عن التفكير بأنها كانت تبدو وكأنها تهب نفسها بكل جسمها، مادّة نهديها وبطنها تحت القماش اللماع الذي كان يقولب أجزاء جسمها. على أن شيئاً من هذه الأعطية لم يكن يبدو على وجهها الذي كان على العكس يحتفظ بتعبيره الملتبس. وأخيراً، قالت شيئاً ما وهي تدير رأسها نحو داخل الصالة حيث كانت بضع أرائك مصفوفة قرب المدخنة، ثم اتجهت نحو تلك الناحية في تحفظ، حتى لا تدلق كأسها. وإذ ذاك حصل ما كنت أتوقعه في أعماقي:

فقد لحق بها باتيستا إلى وسط القاعة، فأحاط قامتها بذراعه، وأدنى وجهه من وجهها. وسرعان ما احتجّت، بلا قسوة، ولكن بحيوية مبتهلة، وربما كانت متدلّلة، وهي تومئ بعينيها إلى القدح الذي كان بين أصابعها.

وأخذ باتيستا يضحك، وهز رأسه ثم جذبها جذبة مفاجئة، حتى

إن المشروب انقلب كما كانت تخشى وفكرت: «سيقبّلها الآن في فمها»... ولكني لم أكن أحسب حساب شخصية باتيستا ووحشيته. وبالفعل، فإنه لم يقبّل أميلي، بل قبض على ثوبها من العنق، عند الكتف، فلوى القماش بعنف غريب قاس، وجذبها كاشفاً الكتف العارية. وعند ذلك مال رأس باتيستا ليطبع على الكتف شفتيه. وظلت هي مستقيمة جامدة، كما لو أنها كانت تنتظر في صبر أن تنتهي حركة الرجل. ولكن أتيح لي أن أرى أن وجهها وعينيها كانت تحتفظ آنذاك بتعبيرها المتململ المضطرب. ثم نظرت ناحية النافذة، وشعرت بأن عيوننا تلتقي؛ وقامت بحركة غاضبة، وأمسكت بيدها بروتيل ثوبها المنزوع، وغادرت القاعة على عجل. وبدوري دلفت في العتمة.

أحسست فوق كل شيء بالاضطراب والذهول، باعتبار أن ما رأيته بدا لي متناقضاً تناقضاً فاضحاً مع ما كنت أعرفه وما ظننته حتى ذلك الحين. إن أميلي التي لم تكن تحبني بعد، وكانت حسب عباراتها بالذات تحتقرني، كانت تخونني إذن مع باتيستا. لقد انقلب الوضع إذن ما بيننا: فبينما كنت متّهَماً بغموض، أوشك أن أصبح متّهِماً؛ بعد أن رأيتُني محتقراً بلا داعٍ، أصبح يمكنني الآن أن أحتقر بحق. وأصبح سر مسلك أميلي تجاهي يتلخص كله بواحدة من الدسائس الغرامية الأشد شيوعاً. ولعل تلقائية هذه الأفكار المنطقية الموجزة التي أملتها الأنانية أكثر من أي شيء آخر، منعتني في التوّ من الشعور بأي إحساس لاكتشافي خيانة أميلي (أو ما بدا لي أنه خيانة)، ولكني إذ كنت أقترب مترنحاً من حاجز السطيحة، غصّ قلبي بألم مفاجئ، فتأكدت من أن ما كنت قد رأيته لا يمكن أن يكون الحقيقة. إن أميلي استسلمت طبعاً لقبلة باتيستا، ولكن هذا لا يعني أني لم أكن أنا أيضاً آثماً، ولم أكن أملك من جرّاء ذلك الحق بأن أحتقرها بدوري. بل لقد

كان يبدو لي، من غير أن أستطيع تفسير ذلك، أنها بالرغم من تلك القبلة كانت تحتفظ بذلك الحق تجاهي. كنت في الحقيقة على خطأ: إنها لم تكن خائنة، أو أن خيانتها على الأقل لم تكن إلا ظاهرية، وكانت الحقيقة المتعلقة بمسلكها بحاجة بعدُ إلى جلاء، من غير الاهتمام بالمظاهر.

وتذكرت أنها كانت قد أظهرت تجاه باتيستا نفوراً شديداً لم أكن أفهم تفسيراً له؛ وفي ذلك الصباح بالذات كانت قد رجتني مرتين ألّا أدعها تسافر وحدها مع المنتج. فكيف كان يمكن لمثل هذا الموقف أن ينسجم مع تلك القبلة؟ إن مما لا شك فيه أنه لم يكن لذلك الحادث من سوابق؛ وعلى الأرجح كان باتيستا قد عرف أن ينتهز الفرصة الملائمة التي لم تتح له من قبل هذا المساء. وإذن، فإن شيئاً لم يضع؛ كان ما يزال بإمكاني أن أعرف لماذا سمحت له أميلي بأن يقبلها، ولماذا خصوصاً كنت أحسّ في غموض بأن شيئاً ما بيننا لم يتغير، بالرغم من هذه القبلة، وأنها كانت تحتفظ كالسابق بحقها في أن تحرمني من حبها وأن تحتقرني.

قد يقال إن اللحظة لم تكن مناسبة قط لمثل هذه الأفكار، وإن حركتي الأولى والفريدة كان ينبغي أن تكون اقتحامي الصالة لكي أفاجئ العاشقين؛ ولكني كنت قد اعتدت منذ وقت أطول مما ينبغي على التفكير بسلوك أميلي تجاهي بحيث لم يكن ممكناً أن ألجأ إلى مثل ذلك الانفجار المفاجئ الساذج. ثم إن ما كان يشغلني من جهة أخرى كان إلقاء الضوء على خلافنا الصميمي أكثر من تخطئة أميلي. فلئن برزتُ فجأة في الصالة، فإني كنت أحرم نفسي نهائياً إمكانية معرفة الحقيقة وإمكانية اكتساب أميلي من جديد. كان يجب عليّ،

بعكس ذلك، أن أتصرف بكل الحكمة والاحتراس اللذين كانت تتطلبهما ظروف دقيقة وخفية المعنى.

وأوقفتني فكرة أخرى أمام عتبة غرفة الجلوس، وهي فكرة أكثر أنانية: كنت أملك الآن سبباً وجيهاً للتخلي عن كتابة سيناريو الأوديسية، وترك ذلك العمل الذي لم يكن يروق لي والعودة إلى مسرحي العزيز. وكانت هذه الفكرة تملك ميزةً أنها تخدمنا نحن الثلاثة، أنا وباتيستا وأميلي. فالواقع أن تلك القبلة كانت تسجل ذروة الالتباس الذي كانت حياتي تتخبط فيه، سواء من حيث الحياة الزوجية أو المهنة. وقد كانت لدي أخيراً إمكانية توضيح هذا الالتباس مرة وإلى الأبد. ولكن كان ينبغي لي أن أتصرف بلا عجلة، ومن غير أن أثير فضيحة، وبصبر.

كل ذلك خطر بذهني سريعاً، مشوّشاً كدوّامة ربح تقتحم غرفة فُتحت نافذتها على حين غرّة، وهي تحمل ورقاً وغباراً ونفايات من كل نوع. وكما تسترد الغرفة صمتها وهدوءها ما إن تغلق النافذة، كذلك فرغ ذهني وصمت دفعة واحدة ووجدتني، متلاشياً، عيناي ضائعتان في الليل، لا حسّ عندي ولا أفكار. وفي ذلك الخدر الروحي توجهت، من غير أن أحسّ تقريباً إلى الباب ـ النافذة ففتحته ودخلت غرفة الجلوس. كم من الوقت كنت قد بقيت على السطيحة بعد أن فاجأت باتيستا وأميلي؟ أطول مما كنت أظن بلا شك، لأني وجدتهما كليهما جالسين إلى المائدة وقد بلغا منتصف الطعام. ولاحظت أن أميلي كانت قد نزعت الثوب الذي كان باتيستا قد مزقه وارتدت الثوب الذي كانت تلبسه في أثناء الرحلة. ولا أدري لماذا أثار هذا التفصيل اضطراباً عميقاً لديّ، كما لو أنه تأكيد بليغ وقاس لخيانتها.

وقال باتيستا في جذل:

- كنا نظن أنك قد ذهبت تأخذ حماماً... فأين كنت بحق الشيطان؟

فأجبت بصوت خافت:

- كنت هنا، في الخارج.

ورأيت أميلي ترفع عينيها نحوي، فتنظر إليّ لحظة، ثم تخفض عينيها، فجاءني اليقين بأنها كانت قد رأتني على السطيحة، فيما كنت أرصدهما، وأنها لم تكن تجهل أني كنت أعرف أنها قد رأتني.

الفَصْل الخامِس عَشَر

في أثناء العشاء، ظلت أميلي صامتة، بلا أدنى ارتباك ظاهر، وهذا ما أدهشني، لأني كنت أعتقد أنها لا بدّ أن تكون مضطربة، وكنت قد ظننتها حتى ذلك الحين غير قادرة على إخفاء ما يعتلج في داخلها. أما باتيستا فلم يكن على العكس، ليخفي مزاجه المرح المنتصر، ولم يكفّ عن التحدث فيما هو يأكل بشهية كبيرة ويشرب، ربما أكثر من المعقول. وعمّ تحدث ذلك المساء؟ عن كثير من الأشياء، ولكن خصوصاً عن نفسه، مباشرة أو غير مباشرة. كانت «الأنا» تعود عودة هجومية على شفتيه بكثرة أثارت غيظي؛ ولم أكن أقل انزعاجاً من طريقته في اللجوء إلى أدنى الحجج والأعذار ليعود بلا انقطاع إلى شخصه الخاص. وكنت أرى جيداً أن هذا التلذُّذ نحو نفسه كان معزواً إلى رغبة رجولية في أن يمجّد نفسه بعيني أميلي وربما في أن يخفضني أكثر مما كان معزواً إلى الغرور؛ كان مقتنعاً بأنه قد انتصر على أميلي فكان يتلذذ تلذذاً طبيعياً في أن يتطاوس، مزيناً نفسه بأكثر الريش التماعاً تجاه المرأة المهزومة. والحق أنه ينبغي الاعتراف بأن باتيستا لم يكن أبله، وأنه فيما هو ينشر غروره الرجولي، كان يظل ثابت القدمين على الأرض وكان يقول أغلب الأحيان أشياء مهمة. مثال ذلك حين روى لنا، في نهاية العشاء، رحلته الأخيرة إلى الولايات المتحدة وزيارته لاستوديوهات هوليوود بلهجة جذابة، ولكن

كذلك بوثوق في الحكم كبير. ولكن لهجته هنا أيضاً بدت لي غير محتملة؛ وكنت أتصور، بشيء من السذاجة، أن هذه اللهجة لا بد أن تبدو كذلك لأميلي التي كنت أصرّ على أن أنسب إليها العواطف نفسها تجاهه، بالرغم مما كنت أعرفه وما رأيته.

ولكني كنت مخطئاً مرة أخرى. إن إميلي لم تكن تنفر من باتيستا، بل على العكس؛ ففيما كان يتكلم، حسبتُني أكثر من مرة أفاجأ في عينيها نظرة إن لم تكن مسحورة، فهي على الأقل مهتمة بصورة جدية، وهي في بعض اللحظات، محمّلة بتقدير معجب. وقد كانت تلك النظرة بالنسبة لي أشد إزعاجاً وأكثر مرارة من غرور باتيستا المتباهي؛ وقد ذكّرتني بنظرة أخرى لم أكن أستطيع أن أذكر أين ومتى كنت قد لاحظتها: كانت تقريباً النظرة نفسها التي رأيتها في عيني المخرج «بازيتي» يوم تناولت الغداء في منزله. كان بازيتي الممتقع التافه يتحدث وزوجته تتأمله بعينين نشوانتين كان يبين فيهما الحب والخضوع والإعجاب والإخلاص. وبالطبع، لم تكن أميلي قد وصلت إلى هذا الحد مع باتيستا، ولكن كان يخيّل إليّ أني بدأت أكتشف في نظرتها ظل المشاعر التي كانت السيدة بازيتي تغذّيها نحو زوجها. كان باتيستا على حق في أن يتباهى، فقد كانت أميلي نصف مسحورة، ولن تلبث طويلاً حتى تصبح مسحورة تماماً، بشكل لا يُفسر.

وعند هذه الفكرة، اخترق قلبي ألمٌ حاد، أقوى من ذلك الذي كنت قد عانيته حين رأيته يقبلها. ولا بد أن وجهي قد أظلم، ولا شك في أن باتيستا قد لاحظ هذا التغيُّر لأنه، بعد أن قذفني بنظرة متفحصة، سألني قائلاً:

- ماذا رأيت يا مولتيني؟ ألست مسروراً بأن تكون في كابري؟ هل هناك ما لا يروق لك؟

- لماذا؟

فأجاب وهو يصب الخمر:

- لأنك... تبدو حزيناً، ذا مزاج معتكر...

وهكذا كان يهاجم، عارفاً جيداً أن هذه أفضل طريقة للدفاع عن نفسه. وقد أجبت بسرعة فاجأتني:

- لقد جاءني هذا المزاج وأنا أنظر إلى البحر من على السطيحة.

فرفع حاجبيه متسائلاً، ونظر إليّ من غير أن يريم:

- آه! صحيح؟ ولماذا؟

ونظرت إلى أميلي: هي أيضاً لم تكن مضطربة. لا بد أنهما كليهما واثقان من نفسيهما وثوقاً لا يصدّق. ومع ذلك، فإن أميلي كانت قد رأتني بلا شك، وقد أبلغت ذلك إلى باتيستا بالتأكيد. وقبل أن أتمكن من التفكير، انبثقت من فمي هذه الكلمات:

- باتيستا، هل يمكنني أن أتحدث إليك بكل صراحة؟

وأعجبت به أن يظل على هدوئه:

- بكل صراحة؟ ولكن طبعاً! إن على المرء أن يكون صريحاً دائماً!

قلت وأنا أنظر إلى البحر:

- لقد تخيلت ذات لحظة أنني هنا أعمل لحسابي الخاص... وأنا طموح، كما تعلم، إلى الكتابة للمسرح... وإذن، فقد كنت أعتقد أني في الزاوية المثالية التي تتيح لي أن أكرّس نفسي لعملي: جمال، وصمت، وصميمية مع زوجتي، وليس ثمة من همّ... ثم تذكرت أن عليّ في هذا الإطار الجميل الموحي - واعذرني، فقد طلبت مني أن أكون صريحاً... تذكرت أن عليّ، بالعكس، أن أقضي وقتي في كتابة سيناريو سيكون بالتأكيد شيئاً جيداً، ولكنه في حقيقة الأمر لا شأن له بي... إنني سأعطي أفضل ما عندي إلى

رينغولد الذي سيستعمله بالشكل الذي يريده، ثم أبقى في نهاية المطاف وفي يدي شك... مع العلم بأني أكون قد أضعت ثلاثة أشهر أو أربعة من وقت أعتبره أثمن وقت في حياتي وأكثره طاقة على الخلق... أنا أعرف أن هناك أشياء لا تُقال، لا لك ولا لأي منتج آخر... ولكنك أردت أن أكون صريحاً... إنك تعرف الآن لماذا أنا سيئ المزاج.

لماذا تراني قد نطقت بهذه الكلمات بدلاً من تلك التي كانت تحرق لساني، والتي كانت تخص باتيستا وزوجتي؟ لم أستطع أن أفسر ذلك؛ ربما كان بسبب من وهن أعصابي التي كانت متوترة أكثر مما ينبغي؛ وربما لأني كنت أعتقد أني أعبّر هكذا بطريقة غير مباشرة عن يأسي تجاه خيانة أميلي التي كنت أحسها مرتبطة ارتباطاً خفياً بطبيعة عملي، هذا العمل المرتزق الذي كان يجعلني تابعاً كل التبعية. ولكن باتيستا وأميلي اللذين لم يتأثرا بمقدمتي المهددة. لم يُظهرا أي عزاء أمام اعتراف الضعف البائس الذي تبع ذلك. وقد أجابني باتيستا في جدّ:

- ولكني واثق يا مولتيني أنك ستكتب لنا سيناريو جميلاً جداً! لقد كنت أسلك بالتأكيد درباً سيئاً، ولم يكن لي بعدُ إلا أن أتابعه حتى النهاية، ولذلك استطردت مغتاظاً:

- إنني كاتب مسرح، يا باتيستا، لا سيناري محترف... فمهما بلغ هذا السيناريو من الجمال والكمال، فإنه لن يكون بالنسبة لي، واسمح لي أن أصارحك بذلك، إلا عملاً مصنوعاً لغاية ربح المال وحدها... والحال أن من هو في السابعة والعشرين يملك عادة مثلاً أعلى... ومثلي الأعلى هو أن أكتب للمسرح... فلماذا لا أستطيع ملاحقته؟ لأن عالم اليوم مصنوع على نحوٍ لا يمكّن أحداً من

اختيار الدرب الذي يرغبه، بل عليه بعكس ذلك أن يفعل ما يريده الآخرون... لماذا يحتل المال مثل هذا المكان في ما نفعله، وفي ما نحن عليه، وفي ما نريد أن نصبحه، في مهنتنا، وأفضل أمانينا وحتى في علاقاتنا بالذين نحبهم؟

ولاحظت أني كنت منفعلاً، وأن عينيّ، من شدة حماستي، كانتا قد امتلأتا بالدموع. وشعرت من ذلك بالخجل، واحتقرت داخلياً روحي العاطفية التي كانت تدفعني إلى القيام بمثل هذه الاعترافات أمام الرجل الذي كان، لدقائق خلت، قد حاول بنجاح أن يغوي زوجتي. ولكن ذلك لم يكن كافياً لجعل باتيستا يضطرب، فقال:

- أتعرف يا باتيستا أني إذ أسمعك تتحدث على هذا النحو، إنما أحسب أني أسمع نفسي حين كنت في مثل سنّك؟

فتمتمت مشدوهاً:

- أصحيح هذا؟

فتابع باتيستا وهو يصب لنفسه خمراً:

- نعم.. لقد كنت فقيراً جداً، وكانت لي أنا أيضاً مُثُل عليا، كما تقول... فما كانت هذه المثل؟ إنني لا أستطيع الآن أن أقولها لك... ولكن كانت لي مثل... أو بالأحرى لم يكن لي هذا المثال أو ذاك، بل كان لي المثال الأعلى بحرف «م» كبيرة... ثم التقيت رجلاً أنا مدين له بالكثير، إن لم يكن لشيء، فلأنه على الأقل علمني أموراً كثيرة...

وتوقف باتيستا بهدوء وجلال، فتذكرت، على مضض مني تقريباً، أن الرجل الذي كان يعنيه بلا شك منتجٌ من منتجي الأفلام كان منسيّاً في هذه اللحظة، ولكنه كان مشهوراً في العهد الأول للسينما الإيطالية، وكان باتيستا قد بدأ تحت رعايته مهنته الناجحة؛

رجل كان يقال إنه لم يكن لديه ما يُعجب، رغم كل شيء، إلا طاقته على جمع المال. وتابع باتيستا:

- وقد ألقيت على هذا الرجل الخطاب نفسه الذي ألقيتَه عليّ هذا المساء... أتعرف ما كان جوابه؟ ما دام المرء لا يعرف تماماً ماذا يريد، فمن الأفضل أن ينسى المثل الأعلى، أن يتركه جانباً.. ثم إن عليه، بمجرد أن يضع قدمه على أرض صلبة، أن يُخرج ذلك المثل من جديد... إن الورقة الأولى من فئة الألف التي يكسبها: هذا هو المثل... وفيما بعد، ينمو ويتطور، فيصبح بالنسبة لنا ستوديو ومسرحاً وأفلاماً، يصبح عملنا اليومي بالإجمال... هذا ما قاله لي... وقد تبعت نصيحته ووجدتني من ذلك في خير... وأنت يا مولتيني تملك امتيازاً كبيراً هو أنك تعرف ما هو مَثلك: كتابة مسرحيات... حسناً! سوف تكتب مسرحيات...

فلم أستطع الامتناع عن الترديد، وأنا حائر وفي الوقت نفسه معزّى بعض العزاء:

- أجل، سأكتب مسرحيات.

وألحَّ باتيستا:

- نعم، ستكتب إذا كنت تريد ذلك حقاً، حتى ولو عملت من أجل كسب المال، حتى ولو كتبت سيناريوهات لحساب «أفلام النصر».. أتريد أن تعرف سر النجاح، يا مولتيني؟

- ما هو؟

- أن يتبع المرء الصف في الحياة، كما يتبع الصف أمام نافذة قطع التذاكر في المحطة... إن دورنا يصل دائماً إذا كنا نملك صبراً، وإذا لم نغير صفنا... إن دورنا يأتي لأن موظف التذاكر يعطي كلاً تذكرته... ولكل حسب استحقاقه طبعاً... ومن يستطيع أن يذهب

بعيداً سينال تذكرة إلى أستراليا، من يدري... أما الآخرون الأقل طموحاً، فيأخذون تذكرة لرحلة أقصر، إلى كابري مثلاً...

وأخذ يضحك مسروراً بإشارته المبهمة إلى رحلتنا وأضاف:

- إنني أتمنى لك أن تتلقى تذكرة لمكان بعيد... أميركا؟ هل تحب ذلك؟

نظرت إلى باتيستا الذي كان يبسم لي بحنان أبوي، ثم أدرت عينيّ إلى أميلي التي كانت تبسم أيضاً بسمة سريعة ولكنها لم تكن أقل صراحة. وأدركت مرة أخرى أن باتيستا كان قد عرف في يوم واحد أن يحوّل النفور الذي كانت تكنّه له إلى شعور من الود تقريباً. وهنا عاودني الحزن الذي كان قد أرهقني حين حسبتني أرى في نظرة زوجتي تعبير السيدة بازيتي. قلت «الحزن» ولم أقل «الغيرة»... والواقع أني كنت متعباً من جراء السفر إلى أبعد حد، وكذلك من جراء جميع حوادث اليوم، وكان الإرهاق يمتزج بجميع عواطفي، فيحولها إلى كآبة عاجزة حزينة.

وانتهى الطعام بشكل غير متوقع. فبعد أن كانت أميلي قد أصغت بلذة إلى باتيستا، بدت وكأنها تتذكرني فجأة، أو بالأحرى تتذكر وجودي، وذلك على نحو أكّد قلقي. فقد كنت أقول بغموض:

- إن بإمكاننا أن ننتقل إلى السطيحة... فلا بد أن القمر قد بزغ... فإذا هي تجيب بجفاء:

- ليست لدي رغبة في الخروج... إنني ذاهبة للنوم... فأنا متعبة.

ونهضت من غير أن تنتظر فاستأذنت وخرجت. ولم يبد على باتيستا أنه فوجئ بهذا الذهاب المباغت، بل خيّل إليّ أنه كان مسروراً به، كما لو أنه كان يرى فيه علامة اضطراب عرف كيف يزرعه في

روح أميلي. أما أنا، فكنت أحس ضيقي يتفاقم. وبالرغم من أنني كنت أحسستني نافد القوى، وكنت أقول إن من الأفضل تأجيل كل شرح إلى الغد، لم أملك الجرأة على أن أتمالك نفسي فحييت باتيستا بدوري، بحجة أنني كنت ناعساً، وخرجت من الصالة.

الفَصل السَّادس عَشَر

كان بين غرفتي وغرفة أميلي باب اتصال. وقد طرقت هذا الباب، دون انتظار، فقالت لي أميلي أن أدخل.

كانت جالسة على السرير، جامدة، في وضع تفكيري. ولكنها إذ رأتني سارعت تسألني بلهجة متعبة حانقة:

- ماذا تريد مني أيضاً؟

فأجبت في برودة، لأني كنت أحسستني الآن على غاية الهدوء والصفاء:

- لا شيء... سوى أن أتمنى لك ليلة سعيدة...
- قل بالأحرى إنك تريد أن تعرف رأيي بالحديث الذي جرى هذا المساء بينك وبين باتيستا... حسناً! إن كنت تريد أن تعرف رأيي، فسأقوله لك: إن ذلك الحديث كان مضحكاً وفي غير محلّه تماماً!

وتناولت كرسياً فجلست عليه، وسألتها:

- لماذا؟

فقالت وهي ترفع صوتها:

- إنني لا أفهمك... حقاً لا أفهمك... كنت تبدو حريصاً جداً على كتابة ذلك السيناريو، ثم تذهب فتقول للمنتج إن المال وحده يهمك في الأمر، وإن هذا العمل لا يروق لك، وإن مثلك الأعلى هو أن تكتب للمسرح... أتراك لا تدرك أنه إذا أعطاك، هذا

المساء، الحق في ما ذهبت إليه بدافع التأدّب، فسوف يفكر غداً ويحترز جيداً أن يطلب خدمتك في مرة أخرى؟ أمن الممكن ألّا نستطيع فهم أمر بسيط كهذا؟

هكذا كانت تأخذ الهجوم. وعلى أني فهمت أنها تفعل ذلك لتخفي هموماً أخرى أشد خطورة، فلم أستطع الامتناع عن الإحساس بأن في صوتها صراحة حقيقية، حتى ولو كانت مُذلّةً لي وجارحة. وكنت قد وعدت نفسي أن أظلّ هادئاً. ولكني اشتعلت أمام هذه اللهجة الاحتقارية بالرغم مني، فصحت:

- ولكنها الحقيقة! إن هذا العمل لا يروق لي، وهو لم يرق لي قط.. وليس وارداً أن أقوم به...
- أوه! بل من المؤكد أنك ستقوم به!

يقيناً أنها لم يسبق لها قط أن أرتني مثل هذا الاحتقار. وقد كزرت على أسناني وقلت بلهجة قوية وأنا أتمالك نفسي:

- لعلّي لن أقوم به! كنت هذا الصباح ما أزال أنوي القيام به، ولكن بعد ما حدث اليوم، فمن المرجّح أني سأبلّغ باتيستا، غداً على أبعد تقدير، أني عدلت عن كتابة هذا السيناريو...

وكنت قد تقصّدت أن أنطق بهذه العبارة العرّافية، مع إحساس صميمي بالانتقام. لقد سبق لأميلي أن عذّبتني كثيراً... وقد أتى دوري في إيلامها بالإيماء إلى ما كنت قد رأيته عبر النافذة، من غير أن أتكلم عن هذا مباشرة وفي وضوح ودقة. وقد نظرت إليّ بإحداد وسألتني بصوت هادئ:

- ما الذي حدث؟
- أشياء كثيرة!
- وما هي؟

كانت تلحُّ؛ لكأنها كانت تريد أن أتهمها، وأن آخذ عليها خيانتها لي. ولكني ظللت على تهرُّبي:

- أشياء متصلة بالفيلم... أمور بيني وبين باتيستا... وهي لا تعنيك.
- ولماذا لا تريد أن تقولها لي؟
- لأنها لا تهمّك إذا قلتها لك...
- بلى... والحق أنك لن تملك الشجاعة للتخلّي عن كتابة هذا السيناريو.

ولم أفهم إذا كانت تعبّر في هذه الجملة عن احتقارها أو عن أملها، فسألتها بتحفُّظ:

- لماذا تعتقدين ذلك؟
- لأنني أعرفك...

وصمتت لحظة، ثم أضافت:

- إن الأمر يجري هكذا دائماً بالنسبة لسيناريوهاتك... لقد سمعتك مراراً تؤكد أنك لم تكن تريد أن تقوم بهذا العمل أو ذاك ثم تنتهي إلى القيام به.. إن الصعوبات تُذلَّل دائماً في مثل هذه الأمور.
- نعم، ولكن الصعوبة هذه المرة لا تكمن في السيناريو...
- أين، إذن؟
- في نفسي بالذات.
- ماذا تقصد؟

ووددت أن أصيح في وجهها:

- لقد قبّلك باتيستا...

ولكني تمنّعت؛ فإننا في مناقشاتنا الصميمية لم نذهب قط إلى قلب الحقيقة، ولم نلجأ إلّا إلى الإشارات والإيماءات... إن أموراً كثيرة كان ينبغي أن تقال قبل الحقيقة العارية!

وملت عليها وقلت بجدّ:

- أميلي، أنت تعرفين ما أفكر به.. وقد قلته ونحن على المائدة: إنني تَعِبٌ من أن أعمل للآخرين، وأودّ أخيراً لو أعمل لحسابي الخاص.

- ومَنْ يمنعك؟

فقلت في تفخيم:

- أنت!

وإذ رأيتها تأتي بحركة احتجاج، قلت:

- لا أنت بصورة مباشرة، بل حضورك في حياتي... إن حياتنا المشتركة هي مع الأسف ما هي... فلا نتحدث عنها... ولكنك زوجتي، وقد قلت لك مراراً إنني لا أقبل هذه الأعمال إلا من أجلك... ولولاك لما ألزمت نفسي بها... إنك بالإجمال تعرفين ذلك تماماً، وغير مُجدٍ أن أردّده: إن علينا ديوناً كثيرة، ويجب أن نواجه استحقاق عدةً سندات من ثمن الشقة، وحتى السيارة نفسها لم نف كل ثمنها بعد... من أجل هذا أكتب السيناريوهات... على أني اليوم أريد أن أقدّم لك اقتراحاً...

- ما هو؟

وكنت أحسبني هادئاً جداً، عاقلاً جداً، ولكن انزعاجاً دقيقاً كان ينبئني في الوقت نفسه بأن هذا الاعتدال الظاهري كان مزيفاً، بل كان أكثر من ذلك لا معقولاً. لقد رأيت أميلي، بعد كل حساب، بين ذراعي باتيستا، وهذا وحده ما ينبغي أن يكون له أهمية في نظري. على أني تابعت كلامي:

- هذا ما أقترحه عليك: أن تقرّري أنت نفسك إن كان ينبغي أن أكتب هذا السيناريو أم لا... وأنا أعدك، إذا اتخذت قراراً سلبياً،

أن أبلّغ باتيستا صباحاً هذا الأمر، وسنغادر كابري في أول باخرة...

فلم ترفع رأسها، كما لو أنها كانت مستغرقة في أفكارها، وقالت أخيراً:

- كم أنت خبيث!
- لماذا؟
- لأنك إذا ندمت على ذلك فيما بعد، كان بإمكانك دائماً أن تلقي تبعة ذلك عليّ!
- لن أقول شيئاً من هذا... لأني أنا الذي أرجوك أن تقرّري.

وكان واضحاً أنها كانت تفكر بالجواب الذي ستعطيني إياه. وفهمت أن هذا الجواب سيكون بصراحة توكيداً لعاطفتها، أياً كانت هذه العاطفة، تجاهي. فإذا شجعتني على القيام بالسيناريو فهذا يعني أنها تحتقرني إلى حدّ الحكم بأنه لا شيء يعارض المضيّ في عملي؛ أما إذا كان جوابها على عكس ذلك سلبياً، فهذا يعني أنها ما تزال تحتفظ ببقية من احترام لي، ولا تريد أن تراني أعمل تحت إدارة عشيقها. وهكذا كان كل شيء يعود إلى السؤال نفسه: هل كانت تحتقرني، ولماذا؟ وعزمت أخيراً فقالت:

- هذه قرارات لا يترك المرء للآخرين اتخاذها!
- ولكني أطلب منك أن تقرّري.

فقالت بنوع من الجلالة:

- هل تراك ستذكر أنك ألححت؟
- نعم، لن أنسى ذلك.
- إذا كان الأمر كذلك، فأنا أعتقد أنك قد التزمت، ولا تستطيع الآن العودة عن كلمتك.. والحق أنك قلت لي أنت نفسك أكثر من

مرة: إن باتيستا يمكن أن يستاء من ذلك ويكفّ عن تكليفك بأي شيء آخر... ولهذا أعتقد أن من الضروري لك أن تنفّذ الأمر.

هكذا كانت تنصحني بألّا أقوم بأي صخب؛ لقد كانت، كما توقعت، تحتقرني نهائياً وبغير نقض. وألححت:

- أتعتقدين ذلك حقاً؟

- بكل تأكيد!

ولم أكن أدري ماذا أقول بعد، على أني حذرتها بلهجة قاسية:

- حسناً، ولكن لا تأتي لتقولي لي فيما بعد إنك أعطيتني هذه النصيحة لأنك كنت قد حزرت رغبتي الخفية... كما حدث يوم كان عليّ أن أوقّع عقدي... ليكن واضحاً بيننا أني، شخصياً، لا رغبة لي إطلاقاً بكتابة هذا السيناريو...

قالت وقد نهضت لتتجه نحو الخزانة:

- أف! إنك تتعبني! لقد أعطيتك رأيي... وستفعل ما يبدو لك!

كانت قد عادت إلى لهجة الاحتقار: إن افتراضاتي تتأكد. وفجأة أحسستني مغموراً بذلك الألم نفسه الذي كنت قد شعرت به في روما حين صارحتني للمرة الأولى بنفورها. وصحت:

- أميلي، ما سبب هذا كله؟ لماذا نحن منتصبان هكذا أحدنا في وجه الآخر؟

وكانت قد فتحت أحد مصراعي الخزانة وأخذت تنظر في المرآة. وقالت في شرود:

- ماذا تريد؟ إنها الحياة...

وبقيت صامتاً، مصعوقاً، جامداً. لم سبق لأميلي قط أن حدثتني على هذا النحو، بهذه اللامبالاة المطلقة، وهذه اللهجة الاصطلاحية. ولكني كنت أعلم أنه ما زال بإمكاني أن أعود سيّد الموقف بأن أقول

لها إني رأيتها بين ذراعي باتيستا، وهذا ما لم تكن تجهله؛ وأني إذ طلبت إليها أن تقرّر بدلاً مني قبول السيناريو، إنما أردت أن أمتحنها ـ وكانت هذه هي الحقيقة ـ وإن كل شيء بالإجمال يتلخّص بالمشكلة نفسها: حياتنا الصميمية المشتركة. ولم تواتني تلك الشجاعة، أو أنني بالأحرى لم أملك القوة على ذلك؛ وكنت أحسني متعباً حتى أعماق نفسي، من غير إمكانية التمالك. ولم أستطع إلا أن أقول في حياء تقريباً:

- وما الذي ستفعلينه طوال الوقت في كابري، بينما أكون في عملي؟
- لا شيء خاصاً... سوف أتنزّه، وأستحمّ، وأذهّب بشرتي في الشمس... ما يفعله الجميع هنا...
- وحدك؟
- نعم، وحدي.
- أتراك لن تضجري وحدك؟
- إطلاقاً... إن هناك أشياء كثيرة أفكر فيها.
- هل تفكرين بي أحياناً؟
- طبعاً أفكر أيضاً بك...
- وبم تفكرين؟

وكنت قد نهضت واقتربت من أميلي فتناولت يدها.

- لقد تحدثنا بهذا الموضوع مرات عديدة...

وكانت تصمد لضغط يدي، من غير أن تسحب يدها مع ذلك.

- ألا تزالين تفكرين بي، على النحو نفسه؟

فتراجعت هذه المرة وقالت فجأة:

- اسمع، من الأفضل أن تذهب فتنام... إن هناك أشياء لا تروق لك، وأنا أفهم ذلك... ومن جهة أخرى، لا أستطيع إلّا أن أردّدها

لك... فأية حاجة بك إلى التحدث عنها مرة أخرى؟

- لنتحدث عنها مع ذلك...

- ولكن لماذا؟ سأكون مضطرة إلى أن أقول لك ما سبق أن قلته مرات كثيرة.. وأنا لم أغيّر رأيي لأنني في كابري، بل على العكس...

- على العكس؟ ماذا تقصدين؟

فشرحت في شيء من الارتباك:

- أقصد أني لم أغير رأيي... هذا كل ما في الأمر.

- إنك بالإجمال ما تزالين تحسّين نحوي بالشعور نفسه، أليس ذلك صحيحاً؟

فصاحت بصوت بدا فجأة أنه يوشك أن يتحطم:

- ولكن لماذا تعذّبني هكذا؟ أتظنّ أنه يلذّني أن أقول بعض الأشياء؟ إنها تؤذيني أكثر مما تؤذيك!

وانفعلت للألم الذي كنت أحسّه في صوتها. وتناولت يدها من جديد وأنا أقول:

- أما أنا، فلا أفكر إلّا بالخير تجاهك، وسأظل هكذا دائماً...

وأضفت لتفهم أني كنت أصفح عنها:

- مهما حدث...

فلم تجب، ولكنها أدارت عينيها، وكان يبدو أنها تنتظر. ولكني في الوقت نفسه أحسست أنها كانت تسعى لتحرير يدها، خفية، بحركة عدائية عنيدة. وإذ ذاك تركتها على التوّ، متمنياً لها ليلة سعيدة، وعدت إلى غرفتي. وما لبثت أن سمعت المفتاح يدور في القفل، فأحسست بغصّة في قلبي.

الفَصل السَّابع عَشَر

استيقظت صباح اليوم التالي في ساعة مبكرة، ومن غير أن أسعى لمعرفة أين كان باتيستا وأميلي، خرجت، أو بالأحرى، هربت من البيت. فبعد أن نمت واسترحت، كانت أحداث الليلة الفائتة ولا سيما سلوكي، تبدو لي في ضوء غير مستحبّ، كأنها كانت سلسلة من الأعمال اللامعقولة اللامجدية؛ وكنت أريد الآن أن أفكر في الهدوء بما كان ينبغي أن أفعل من غير أن أورّط حرية عملي بقرار عاجل لا سبيل إلى إصلاحه.

وإذن، فقد غادرت المنزل، وسلكت الدرب الذي كنت قد عبرته الليلة الفائتة، واتجهت إلى الفندق الذي كان رينغولد مقيماً فيه. وسألت عن المخرج، فأجابوني بأنه كان في الحديقة؛ وتوجهت إليها فلمحت في نهاية أحد الممرات حاجز سطيحة جميلة يلتهمها النور المشعّ من البحر والسماء الصافية؛ وكانت بضع كراسي وطاولة صغيرة موضوعة مواجهة، ولدى وصولي نهض رينغولد يحييني بيده. وكان يرتدي لباس ضابط البحرية، بقبعة زرقاء ذات مرساة مذهبة، وسترة زرقاء وبنطال أبيض. وكان على الطاولة بقايا طعام خفيف وقرطاس مع كل وسائل الكتابة.

كان رينغولد يبدو ذا مزاج ممتاز:

- ما تقول، يا مولتيني، بهذه الصبيحة؟

- أقول إنها رائعة.

وأضاف وهو يأخذني من ذراعي ويقترب معي من الحاجز:

- وما قولك يا مولتيني بأن نترك عملنا نائماً لنستقلّ قارباً ونجذّف بهدوء على البحر، حول الجزيرة؟

فأجبت بلا اقتناع، وأنا أفكر بأن نزهة كهذه بصحبة رينغولد ستفقد حظاً كبيراً من سحرها:

- بلى، هذا أفضل، من بعض النواحي.

فصاح منتصراً:

- لقد قلتها يا مولتيني، من بعض النواحي... ولكن من أية ناحية؟ ليس من الناحية التي نفهم بها الحياة... إن الحياة في نظرنا هي الواجب، أليس كذلك؟ الواجب قبل كل شيء، إذن، إلى العمل، يا مولتيني!

وكان يهمّ بأن يعود للجلوس أمام الطاولة الصغيرة، ومال عليّ ونظر في عينيّ وأضاف بلهجة جليلة:

- إجلس تجاهي.. سنكتفي هذا الصباح بالتحدث... إن لي أشياء كثيرة أقولها لك...

وجلست، وأخفض رينغولد طرف قبعته على عينيه، واستطرد يقول:

- أنت تذكر، يا مولتيني، أنني شرحت لك، في أثناء رحلتنا من روما إلى نابولي، طريقتي في فهم «الأوديسة»... وقد انقطع هذا الشرح بوصول باتيستا؛ ثم نمت بقية الرحلة، ولم أستطع في النهاية أن أنجز توسيع فكرتي... أتذكر؟

- طبعاً...

- وتذكر أيضاً أنني كنت قد أعطيتك مفتاح «الأوديسة»: إن يوليوس

ينفق عشرة أعوام في العودة إلى بيته، لأنه في الواقع، لم يكن راغباً، في أعماقه اللاواعية، أن يعود!

- تماماً...

- سأقول لك الآن لماذا لا يريد يوليسوس، في رأيي، أن يعود إلى بيته...

وتلبث رينغولد لحظات ليؤكد أهمية كشفه، واستطرد يقول وهو يحدق فيّ بنظرة متسلطة، فقطب الحاجبين:

- إن لا وعي يوليسوس يدفعه لعدم العودة لأن حياته الزوجية مع بينيلوب ليست سعيدة... هذا هو السبب يا مولتيني.. وتلك الصعوبات ترجع إلى ما قبل سفر يوليسوس للحرب. وإذا كان يوليسوس قد ذهب إلى الحرب، فلأنه لم يكن مرتاحاً في بيته، وهو لم يكن مرتاحاً لأن علاقاته بزوجته كانت سيئة...

وصمت رينغولد لحظة، ولكنه لم يفقد هيئة الدوغمائية المتسلطة؛ وانتهزت هذا التوقّف لأدير كرسيي حتى لا تكون الشمس في عيني. ثم أضاف:

- لو كانت حياة يوليسوس الزوجية سعيدة لما ذهب إلى الحرب.. فليس يوليسوس متظاهراً بالشجاعة ولا محباً للقتال.. إنه رجل حكيم نافذ البصيرة... ولو كان سعيداً مع بينيلوب لأكتفى بإرسال بعثة بقيادة أحد رجاله الثقات، وذلك ليُظهر فقط تضامنه مع مينيلاس. والحال أنه قد ذهب؛ فهو ينتهز فرصة هذه الحرب ليذهب، فراراً من زوجته.

- هذا منطقي تماماً.

- تقصد أنه بسيكولوجي، يا مولتيني...

هكذا صحّح رينغولد جوابي.. وقد لاحظ بلا شك لهجتي الساخرة، وأضاف:

- بسيكولوجي تماماً.. ولا تنسَ أن كل شيء يتوقف على علم النفس.. فبلا علم النفس، ليس هناك من طبائع، وبلا طبائع، ليس هناك من تاريخ. فما هي بسيكولوجية يوليسوس وبينيلوب؟ اسمع جيداً: إن بينيلوب هي المرأة التقليدية لليونان القديمة، الإقطاعية والأرستقراطية: إنها ذات فضيلة ونبل وغطرسة، وهي دينية، وربة منزل، وأم صالحة وزوجة صالحة. أما يوليسوس فيعبّر، على العكس، عن سمات اليونان المتقدمة في الحضارة، يونان السفسطائيين والفلاسفة: إنه رجل بلا أحكام مسبقة، وهو عند اللزوم بلا وساوس، دقيق، ذكيّ، لا ديني، شكّاك، بل هو أحياناً وقح...

واعترضت:

- يخيّل إليّ أنك ترسم ليوليسوس شخصية سوداء، فالواقع أنه في الأوديسة...

فقاطعني رينغولد بنفاد صبر:

- ليس لنا أن نشغل بالأوديسة... أقصد أننا نفسّر الأوديسة ونعلّق عليها... ولا تنسَ أننا نعمل فيلماً يا مولتيني.. لقد سبق للأوديسة أن كُتبت، أما الفيلم فلم يُعمل بعد...

والتزمت الصمت.. واستطرد:

- إن سبب مصاعب يوليسوس وبينيلوب يجب أن يُلتمس في اختلاف طبائعهما... فقبل حرب طروادة كان من سوء حظ يوليسوس أنه لم يرق لبينيلوب... فماذا فعل؟ هنا يتدخّل «الراغبون»... وتنبئنا الأوديسة أن الذين يرغبون في يد بينيلوب كانوا يعيشون، منتظرين،

في منزل بينيلوب الخاص، وعلى حساب يوليسوس... ويجب قَلْب الموقف..

ونظرت إليه فاغر الفم، فسألني رينغولد:

- ألا تفهم؟ سأشرح لك: إن «الراغبين» ـ ومن الأنسب لنا، بلا شك، أن نخفض عددهم إلى واحد فقط، أنطينويس، مثلاً ـ كانوا يحبّون بينيلوب قبل حرب طروادة، وكانوا لذلك يغرقونها بالهدايا، على مألوف عادة اليونانيين. وقد كان بودّ بينيلوب، المرأة المترفعة، القاسية، على الطراز القديم، أن ترفض هذه الهبات؛ وكانت تحرص خصوصاً على أن يطرد زوجها هؤلاء «الراغبين» ولكن لسبب ما زلنا نجهله، وسنجده في سهولة، كان يوليسوس يخشى أن لا يروق «الراغبين». وهو، كرجل حسّ سليم، لا يعلق كبير أهمية على الغزل الذي يمارسه منافسوه، لأنه يعرف أن زوجته أمينة؛ كذلك فهو لا يعزو أية أهمية للهدايا التي لم يكن، في صميمه، لامبالياً بها. اذكر يا مولتيني أن جميع اليونانيين كانوا متعطشين للهدايا. إن يوليسوس طبعاً لا ينصح بينيلوب أبداً أن تستسلم لرغبات «الراغبين» فيها، ولكنه يحثّها على ألّا تثبطهم، لأن ذلك كما يبدو له، لا يستحق هذا... إن يوليسوس يريد أن يعيش في سلام، وهو يحتقر الفضيحة.. أما بينيلوب التي كانت تتوقّع كل شيء من زوجها إلا هذا الجمود، فقد ساءها ذلك، ولم تصدِّق أذنيها.. وهي تحتجّ وتثور... ولكن يوليسوس لا يفقد برودته، وينصح بيبيلوب مجدداً أن تقبل الهدايا التي تقدَّم إليها، وأن تظهر بمظهر اللطف.. فهذا في نهاية المطاف لا يمكن أن يكلّفها شيئاً كبيراً!... وتتبع بينيلوب في آخر الأمر نصيحة زوجها... ولكنها في الوقت نفسه تكنُّ له احتقاراً عميقاً؛ إنها تشعر بأنها قد

كفّت عن أن تحبه، وتقول له ذلك... وإذ ذاك يلاحظ يوليسوس، ولكن بعد فوات الأوان، أنه بسبب احتراسه المبالغ فيه، قد فقد حبّ بينيلوب. ويجهد في إصلاح خطئه، واستعادة زوجته، ولكن عبثاً... وأصبحت حياته في «إيتاك» جحيماً.. وأخيراً، ينتهز فرصة حرب طروادة، وهو يائس، فيغادر منزله، وبعد سبع سنوات، وضعت الحرب أوزارها، فاستقل يوليسوس البحر للعودة إلى «إيتاك»... ولكنه يعلم أن مَنْ ينتظره في منزله إنما هي امرأة لا تحبه بعد، بل هي تحتقره... لذلك كانت جميع الحجج صالحة، في لاوعيه، لتأجيل هذه العودة المقلقة والمخيفة. على أنه لا بد من العودة في نهاية المطاف. ولكن يحدث ليوليسوس لدى العودة إلى المنزل ما حدث «للفارس» في أسطورة «التنين»... هل فهمت ما أقصد إليه، يا مولتيني؟ لقد فرضت الأميرة على «الفارس» أن يقتل التنين، وأعطته الأميرة قلبها. وهكذا وجدت بينيلوب يوليسوس، وبعد أن برهنت له عن أمانتها، أفهمته أن هذه الأمانة ليست مستوحاة من الحب، وإنما من الكرامة وحدها. وهي لن تستطيع أن تحبّ زوجها من جديد إلا بشرط: هو أن يقتل «الراغبين»... ونحن نعلم أن يوليسوس لا يملك شيئاً من صفات الرجل الدموي الحقود، وهو يؤثر أن يُبعد «الراغبين» باللطف والحسى، مستعملاً الإقناع... على أنه يعزم. ذلك أنه يعرف في الواقع أن احترام بينيلوب، ومن ثم حبها، يتوقفان على قتل «الراغبين». وهكذا يقتل الراغبين. وإذ ذاك، فقط، تكف بنيلوب عن احتقاره وتبادله حبه. ويستعيد يوليسوس وبنيلوب سعادتهما بعد تلك الأعوام الطويلة من الفراق، ويحتفلان بعرسهما الحقيقي، عرس الدم. هل فهمت يا مولتيني؟ لنلخّص الموضوع: النقطة الأولى: بينيلوب تحتقر زوجها

لأنه لم يتصرف كرجل وكزوج وكملك تجاه إزعاجات «الراغبين».
ثانياً: هذا الاحتقار يسبب ذهاب يوليسوس إلى حرب طروادة.
ثالثاً: يعرف يوليسوس أنه سيجد في منزله امرأة تحتقره، فيؤخّر عودته ما أمكنه، بلا وعي. رابعاً: وليستعيد احترام بينيلوب وحبها، يقتل يوليسوس «الراغبين»... وهكذا... هل فهمت يا مولتيني؟

فأجبت أن نعم. وهذا كله لم يكن بالفعل صعباً على الفهم. ولكن النفور الذي كنت أحسه منذ البدء لتفسير علم النفس التحليلي الذي أورده رينغولد، كان يولد فيّ من جديد أقوى من أي وقت مضى، وكان يبعث لديّ التململ والحلم. وفي ذلك الحين كان رينغولد يواصل حديثه وهو يضفي عليه مزيداً من الأهمية:

- أتعرف ما الذي أعطاني مفتاح الموقف كله؟ إنه تأمُّل بسيط بمقتل «الراغبين» الذي روته الأوديسة. لقد لاحظت أن هذا القتل الوحشي الذي لا هوادة فيه يناقض مناقضة مطلقة طبع يوليسوس كما قُدِّم لنا حتى ذلك الحين: داهية، حكيم، بعيد النظر... وقلت في نفسي: لقد كان بوسع يوليسوس أن يطرد «الراغبين»، من غير تعقيدات؛ كان ذلك بوسعه، فهو في بلده، وهو الملك... وكان يكفيه أن يجبر الناس على الاعتراف به... وإذا لم يفعل ذلك، فلأن لديه أسباباً وجيهة... إن يوليسوس يريد أن يبرهن طبعاً أنه ليس فقط داهية، حكيماً، بعيد النظر، ولكنه كذلك، عند الضرورة، عنيف كأجاكس، غضوب كأشيل، قاس كأغاممنون. ولمن يريد أن يثبت ذلك؟ لبينيلوب دون ما شك!

لم أقل شيئاً. كانت محاكمة رينغولد الفكرية متماسكة ومنسجمة مع نزعته إلى تحويل الأوديسة إلى تعاقب بسيكولوجي متسلسل. ولكن

هذه النزعة بالذات كانت توقظ لديّ نفوراً عميقاً كما لو أن القضية تدنيس أو انتهاك حرمة. إن كل شيء لدى هوميروس بسيط، نقيّ، نبيل، ساذج، حتى دهاء يوليسوس الذي تتضمنه، بشكل شعري، حدود تفوّقه الفكري. أما في تفسير رينغولد، فإن كل شيء، بالعكس، منخفض إلى مستوى درامة عصرية أخلاقية مزعوم أنها بسيكولوجية. وقد انتهى رينغولد إلى القول، وهو راض كل الرضى عن نظريته:

- أنت ترى يا مولتيني أن الفيلم قد أُنجز، في جميع تفاصيله.. ولا يبقى لنا إلا أن نكتبه!

وقاطعته بما يشبه العنف:

- اسمع يا رينغولد، إن تفسيرك لا يروق لي إطلاقاً!

فاتسعت عيناه، وبدا لي وقد فوجئ بجرأتي أكثر منه بمخالفتي إياه:

- إنه لا يروق لك يا عزيزي مولتيني؟ ولماذا؟

فقلت في جهد، ولكن في ثقة كانت تنمو ما كنت أتكلّم:

- إن تفسيرك لا يروق لي لأنه يشكل تزييفاً كاملاً لطبع يوليسوس الأصلي. إن الأوديسة تصوّر يوليسوس رجلاً ذكياً بارعاً، ولكنه دائماً في حدود الشرف والكرامة... فهو لا يني قط يظهر بمظهر البطل، أي المحارب العظيم، والملك، والزوج الكامل... أما تفسيرك فاسمح لي يا عزيزي رينغولد أن أقول لك إنه، على العكس، يوشك أن يظهره كإنسان بلا كرامة ولا شرف ولا معرفة للحياة... هذا بصرف النظر عن أنك تبتعد عن روح الأوديسة أكثر مما ينبغي.

وفيما كنت أتكلم، كنت أرى بسمة رينغولد العريضة تتقلص،

وتمحى، وتزول. وقال بمرارة وهو يبرز في كلامه اللهجة الجرمانية التي كان ينجح إجمالاً في إخفائها:

- اسمح لي، يا عزيزي مولتيني، أن أقول لك إنك، كالعادة، لم تفهم شيئاً!

فرددت، منزعجاً بلهجة ساخرة:

- كالعادة!

فأجاب رينغولد:

- نعم، كالعادة، وسأقول لك السبب فوراً: هل تسمعني جيداً، يا مولتيني؟
- إنني أصغي إليك، كن على ثقة من ذلك.
- أنا لا أريد، كما تشير، أن أجعل من يوليسوس رجلاً بلا كرامة ولا شرف ولا معرفة بالحياة... بل أريد بكل بساطة أن أمثّل الرجل كما يبدو حقاً في الأوديسة. من هو يوليسوس الأوديسة؟ ماذا يمثّل؟ إنه يمثل بكل بساطة الإنسان المتمدن، إنه يجسد الحضارة... ومن جميع الأبطال الآخرين الذين هم كائنات بدائية، يعتبر يوليسوس الوحيد المتحضر... وأين تكمن حضارة يوليسوس؟ إنها تتلخص في أن يكون المرء بلا أفكار مسبقة، وأن يعتمد دائماً على العقل، في جميع الظروف، حتى في مسائل معرفة الحياة والكرامة والشرف... كما تقول... وأن يظهر ذكياً، موضوعياً، علمياً تقريباً، كما أقول. إن للحضارة طبعاً مساوئها، فهي مثلاً تنسى بسهولة أهمية القضايا التي توصف بأنها قضايا الشرف، بالنسبة للأشخاص البدائيين. أما بينيلوب، فليست هي امرأة متحضرة، إنها امرأة حسب التقاليد، هي لا تفهم المحاكمة العقلية، وإنما تفهم الغريزة والدم والكبرياء. انتبه جيداً يا مولتيني،

وحاول أن تفهمني: إن الحضارة يمكن أن تبدو، وهي تبدو غالباً في عيون الكائنات البدائية، فساداً ولا أخلاقية وانتفاء للمبادئ ووقاحة... كان هذا هو مثلاً مأخذ هتلر، وهو رجل متحضر بالتأكيد، على الحضارة... لقد كان هو أيضاً يتحدث كثيراً عن الشرف... ولكننا نعرف اليوم مَنْ كان هتلر، وما كانت قيمة شرفه... وبالإجمال، فإن بينيلوب، في الأوديسة، تمثل البربرية، ويوليسوس الحضارة... وهل تعلم، يا مولتيني، إني في حين كنت أعتبرك متحضراً كيوليسوس، أراك تتكلم كبينيلوب، تلك البربرية؟!

نطق رينغولد بهذه الكلمات الأخيرة في بسمة عريضة، وكان واضحاً أنه مسرور بالعثور على هذه اللقية إذ شبّهني ببينيلوب. ولكن هذا التشبيه أزعجني أكثر مما كنت أتصور. بل لقد أحسستني أمتقع من شدة الغضب، وقلت بصوت معتكر:

- إذا كنت تعتبر برهاناً على الحضارة أن يحمل رجلٌ الشمعة لمن يغوي زوجته، فإنني يا عزيزي مولتيني أفخر بأن أكون بربرياً!

وأدهشني أن رينغولد لم يغضب هذه المرة، بل قال وهو يرفع يده:

- لحظة... إنك هذا الصباح تفكر على نحو رديء يا مولتيني، مثل بينيلوب تماماً.. وإذن، فهذا ما سوف نفعله: اذهب فخذ حماماً في البحر، وفكّر... ثم تعود للقائي صباح الغد لتقول لي نتيجة تأملاتك... هل أنت موافق؟

فأجبت منزعجاً:

- حسناً! ولكن ليس من المرجّح إطلاقاً أن أغير رأيي!

فكرر رينغولد وهو ينهض ويمد لي يده:

- فكّرا!...

فنهضت بدوري. وأضاف رينغولد بهدوء:

- إنني متأكد أنك غداً ستعطيني الحق...

فأجبت:

- لا أظنّ ذلك.

ومضيت.

الفَصْل الثَّامِن عَشر

لم يكن حديثنا قد استمر أكثر من ساعة. فكان أمامي إذن النهار بطوله لكي «أفكر»، كما قال لي رينغولد، حتى أقرر هل أقبل تفسيره أم أرفضه. وأعترف أني ما كدت أغادر الفدنق حتى اتجه فكري، لا إلى رينغولد، بل إلى طرد ذكراه من ذهني لأتمتع بالنهار الجميل على هواي. ثم إنني كنت أجد في أفكار المخرج شيئاً يتجاوز عملي كسيناري، شيئاً لم أكن أعرف بعد أن أحدده، ولكن رد فعلي المتطرف كان قد كشفه لي بغموض. كان لا مناص، في نهاية المطاف من التفكير حقاً. وتذكرت أني، قبل ساعة، إذ خرجت للقاء رينغولد، كنت قد لمحت تحت المقصورة خليجاً صغيراً متوحداً؛ فعزمت أن أقصده، اعتقاداً مني أني سأجد الراحة للتفكير وفق نصيحة المخرج، وإلا سأكتفي بأن أستحم فيه بكل بساطة.

وسرت على الرصيف الذي يحيط بالجزيرة. وكان الوقت ما يزال باكراً في الصباح، وكان الطريق المظلل خالياً تقريباً، إلا من صبي يوقظ الصمت بوقع قدميه العاريتين على القرميد، وفتاتين متعانقتين، تثرثران بصوت منخفض، وسيدتين أو ثلاث من العجائز ينزهن كلابهنّ.

وإذ بلغت نهاية الطريق، سلكت الممر الذي يتعرج في الجزء الأكثر توحداً ووعورة من الجزيرة. وسرت قليلاً، ثم توقفت أمام

مفترق: كان ثمة ممر أضيق يفضي إلى سطيحة صغيرة معلقة في القضاء. ودلفت إلى هذا الممر، وحين بلغت السطيحة نظرت فيما تحتي. كان البحر على انخفاض مئة متر يخفق ويتلألأ تحت الشمس، مغيراً لونه وفق أنفاس الريح، فهنا زرقة مصفرّة، وهناك بنفسجية، وهناك زمردية. ومن هذا البحر الصامت، كانت صخور الجزيرة المقنفذة تبدو وكأنها تصعد من الهاوية إليّ، كسهام ذات رؤوس عارية متلألئة بالضوء.

وفجأة غمرني، من غير أن أدري السبب، نوعٌ من الهوس، فأحسست أن الحياة ثقيلة على كتفي، وأني موشك في هذه اللحظة أن أقوم بقفزة في المدى الضوئي، فأموت ميتةً تكاد تكون جديرة بأفضل جزء من نفسي. أجل، إنني مستعد أن أقتل نفسي لأبلغ في الموت ذلك النقاء الذي افتقدته في الحياة.

كان إغراء الانتحار هذا صادقاً، وكانت حياتي بلا شك معرضة للخطر مدة لحظة. ثم فكرت في أميلي، كما لو كان ذلك بدافع الغريزة، وبالطريقة التي ستستقبل بها نبأ موتي. وقلت في نفسي فجأة: «إنك تود أن تموت، لا ضجراً من الحياة، بل من أجل أميلي»، وخففت هذه الفكرة من حدة هوسي إذ عرّته من أي سمة مجرّدة. وتساءلت: «بسبب أميلي، أم من أجلها؟ إن التمييز مهم جداً...» ولم يلبث الجواب أن جاء: «من أجل أميلي، لكي أسترد احترامها، ولو بعد الوفاة... لكي أخلّف لديها ندماً أنها قد احتقرتني ظلماً».

وما كدت أكوّن هذه الفكرة، كما في لعبة الأطفال تلك حيث يجب إعادة تكوين صورة بواسطة كمية من القطع الصغيرة المتناثرة، حتى اكتملت لوحة وضعي الحالي بهذه الفكرة الأخرى: «لئن كان ردّ فعلك عنيفاً إلى هذا الحد على أفكار رينغولد، فلأنه وهو يشرح

علاقات يوليسوس وبينيلوب قد أومأ بطرف خفيّ، على ما خيّل إليك، وبلا نيّة من جانبه، إلى العلاقات القائمة بينك وبين أميلي. وحين كان رينغولد يتكلم عن احتقار بينيلوب ليوليسوس، فكرت باحتقار أميلي لك... ولقد بدت لك الحقيقة غير محتملة، وقد احتججت، إجمالاً، على الحقيقة...».

ولكن اللوحة لم تكن قد اكتملت بعدُ تماماً؛ فقد جاءت أفكار أخرى تتمّها، نهائياً هذه المرة. «لقد أردت أن تموت لأنك لا تلعب لعبة صريحة مع نفسك... فلكي تسترد احترام أميلي، لست بحاجة إطلاقاً إلى أن تقتل نفسك... يكفي شيء أقل من هذا كثيراً.. لقد دلك رينغولد على ما ينبغي أن تفعل: إن يوليسوس، من أجل أن يفوز بحب بينيلوب، استأصل «الراغبين»... وعليك، نظرياً، أن تقتل باتيستا... ولكن العالم الذي نعيش فيه هو أقل عنفاً وإطلاقاً من عالم الأوديسة... ويكفيك أن تتخلى عن السيناريو الذي كان المفروض أن تكتبه، وأن تقطع كل علاقة بباتيستا، وأن تعود غداً صباحاً إلى روما... لقد نصحتك أميلي ألا تتخلى عن السيناريو لأنها، على الأرجح، تريد أن تحتقرك وترغب في أن يعطيها مسلكك الحق... فلا تهتم بآرائها... إن عليك، بالعكس، أن تتصرف كما تصرف يوليسوس، وفق نظرية رينغولد».

قُضي الأمر إذن: كنت قد درست وضعي دراسة عميقة، بلا هوادة، وبأكبر حظ من الإخلاص. ولم أكن بحاجة الآن إلى التفكير كما طلب مني رينغولد، لم يكن لي بعد إلا أن أعود أدراجي وأن أذهب إلى المخرج فأبلغه قراري الذي لا مردّ له هذه المرة. ولكني قلت لنفسي، برد فعل من الاحتراس، إنه لا ينبغي لي أن أتصرف بخفة وطيش، وأن أعطي الانطباع عن عملية معاندة، لأن كل حساب

أصبح الآن نافلة. فإني سأقصد رينغولد بعد الظهر، بكل هدوء، فأبلغه قراري. وبمثل هذا الهدوء، حين أعود إلى المقصورة، سأرجو أميلي أن تُعدّ الحقائب. أما باتيستا، فلم أكن أعتقد من الضروري التحدث إليه. ففي الصباح، عند ذهابنا، سأبعث إليه برسالة مقتضبة جداً، عازياً قراري المفاجئ إلى عدم الانسجام بين أفكاري وأفكار رينغولد، وهذا ما كان، في حقيقته، صحيحاً. وقد كان باتيستا ذكياً، فهو إذن سيفهم، ولن أراه بعد ذلك أبداً.

كنت مستغرقاً في أفكاري، فعُدت أدراجي من غير أن أحس بذلك، وكنت قد سلكت الطريق آلياً حتى إلى ما تحت مقصورة باتيستا؛ وهبطت بسرعة ممراً وعراً ورملياً نحو الخليج الصغير الوحيد الذي كنت قد لاحظته ذلك الصباح بالذات. فبلغته وأنا ألهث قليلاً، ولكي أسترد أنفاسي، توقفت لحظة عند صخرة أنظر فيما حولي. وكانت الرملة الصغيرة محشورة بين كتل كثيفة من الصخور التي كانت قد انفصلت عن الرابية وتدحرجت حتى الأسفل؛ وكان رأسان متعرجان يُغلقان الرملة من كل جهة، منتصبين فوق ماء خضراء شفافة كانت أشعة الشمس تخترقها حتى إنها لتضيء الحصبة البيضاء في الأعماق. ثم لمحت صخرة سوداء متآكلة منخوبة، غارقة حتى نصفها في الرمل والماء، فأخذتني الرغبة في أن أذهب فأتمدد في ظلها لأحتمي من الشمس المحرقة. وإذ كنت أستدير حولها، رأيت أميلي متمددة على الحصى، عارية تماماً.

والحقيقة أني لم أتعرفها على الفور لأن وجهها كان مغطى بقبعة كبيرة من القش؛ بل لقد كانت حركتي الأولى أن أنسحب وأنا أظنني تجاه مجهولة. ولكن حين استقر نظري على الذراع التي كانت قد بسطتها على الأرض وأنتقل إلى اليد، تعرفت في سبابتها الخاتم ذا

الحجر اللبني المذهب المزدوج الهُدب الذي كنت قد أهديته إلى أميلي منذ فترة، بمناسبة عيد ميلادها.

كنت خلف أميلي التي كانت عارية، كما ذكرت، وكانت ثيابها موضوعة إلى جانبها مشكلة كومة صغيرة من الأقمشة الملونة، صغيرة جداً حتى إنه كان يبدو مستحيلاً أن تُلبِسَ هذا الجسم الكبير، وبالفعل، فإن أول ما لفت نظري في عُرْي أميلي، لم يكن هذا التفصيل أو ذاك، وإنما المجموع، فكرة الكِبَر والقوة التي كان هذا الجسم يوحيها. كنت أعرف جيداً أن أميلي لم تكن ذات قامة أطول من قامة معظم النساء، ولكن عُريها في تلك اللحظة كان يبدو لي هائلاً، كما لو أن البحر والسماء كانا في تلك اللحظة يعيرانها عظمتهما. وفي ذلك الوضع المتمدد، كان النهدان يفقدان من بروزهما وانتفاخهما المعضل، ولكن حجمهما كان يبدو لعينيّ أكبر من الحجم الطبيعي، وكذلك الدائرة الوردية لحلمتيهما؛ وكان أكبر من الطبيعي أيضاً ذانك الخصران اللذان كانا يتمددان على الرمل في تفتح شهواني قويّ، وكذلك البطن الذي كان يبدو وهو يتلقى في دائرته اللحمية كل أشعة الشمس، ومثل ذلك كان الساقان اللتان كانتا أكثر انخفاضاً من باقي الجسم، بسبب انحدار الأرض، فكانتا تبدوان مشدودتين بثقلهما الخاص، وتظهران أطول من الطبيعي. وتساءلت من أين كان يأتي هذا الإحساس بالكبر والقوة، العميق المقلق؟ وأدركت أنه كان صادراً عن شهوتي التي استيقظت بوحشية. شهوة روحية أكثر منها جسدية ـ بالرغم من تلقائيتها وزخمها ـ في أن أتحد بها، لا بجسدها، بل عبْر جسدها. كنت حقاً متعطشاً لها، ولم يكن إرواء هذا العطش يتوقف عليّ، بل عليها وحدها، على موافقتها تجيء قبل شهوتي. ومن أسفٍ أني كنت أحس أن هذه الموافقة، كانت تمنعها هي عني، بالرغم من

أنها كانت، بوهم من أوهام الرؤية، تبدو في عُريها وهي تمنحني نفسها.

ولكني لم أكن أستطيع أن أبقى إلى ما لا نهاية وأنا أتأمل هذا الجسم المحرم. وقمت بخطوة إلى الأمام، وناديت في الصمت، بوضوح:

- أميلي!

فندَّت عنها حركة سريعة في وقتين: فقد ألقت أولاً قبعتها عنها، ومدت يدها لتتناول قميصها عن كومة الملابس لتغطي به نفسها؛ ثم جلست وأدارت رأسها لتنظر خلفها. ولكني حين أضفت قائلاً:

- هذا أنا، ريشارد!

رأتني وتركت قميصها يسقط. وفكرت بأنها قد خافت أن تجد نفسها أمام غريب، ولكنها إذ رأت أني أنا القادم، حكمت بأنه من غير المجدي أن تغطي نفسها، كما لو كان الأمر يتعلق بشخص غير موجود. وأنا أورد هذه الفكرة، اللامعقولة في حقيقتها، لأصور حالتي النفسية في تلك اللحظة. ولم تخطر بذهني فكرةُ أنها إذا لم تكن تُحس الحاجة إلى إخفاء جسمها، فلأني كنت زوجها، ولم أكن غريباً. لقد كنت من شدة الاقتناع بأني غير موجود بالنسبة إليها، على الأقل من الوجهة الغرامية، بحيث فسَّرت حركتها الملتبسة على أنها دليل آخر على عدم وجودي. وقلت بصوت منخفض:

- لقد مرت خمس دقائق على الأقل وأنا أنظر إليك... وهل تعرفين أنه يخيل إلي أني أراك للمرة الأولى؟

فلم تجبني بشيء، ولكنها استدارت أكثر من ذي قبل لتراني على نحو أيسر، وأحكمت على أنفها نظارتها السوداء بحركة فضول آلية. وقلت:

- هل ترين مانعاً في أن أبقى هنا، أم تفضلين أن أذهب؟

فتأملتني، ثم اضطجعت من جديد على ظهرها في هدوء وهي تقول لي:

- إبق، إن كن هذا يسرك... شرط ألّا تحرمني من شمسي!

لقد كانت تعتبرني إذن كأني غير موجود، مجرد جسم كثيف يستطيع أن يقف بين أشعة الشمس وجسدها العاري، هذا الجسد الذي كان المفروض فيه، على العكس، أن يُحس نفسه مرتبطاً بجسدي، وأن يعبِّر عن ذلك على نحوٍ ما، حتى ولو كان الحشمة أو الخوف. وقد حيرني عدم الاكتراث هذا بشكل مؤلم، فجفَّ فمي جفافاً مفاجئاً، وشعرت بأن وجهي يتخذ على الرغم مني تعبيراً متردداً، شارداً، لا مبالياً بشكل مزيف وشاق. وقلت:

- الجو هنا جميل، وسآخذ أنا أيضاً حماماً..

ولكي أتمالك نفسي، جلست على بعد خطوات منها، مسنداً ظهري إلى صخرة.

وامتد الصمت بيننا. وكانت أمواج وموجات من الضوء المذهب الباهر الرقيق تغمرني، ولم يسعني إلا أن أغمض عينيَّ في إحساس عميق بالسعادة والهدوء. على أني لم أكن أنجح في إقناع نفسي بأني كنت هناك لآخذ حمام شمس، شاعراً بأني لن أستطيع أن أتذوقه تذوُّقاً كاملاً إلا إذا كانت أميلي تحبني. وقلت وأنا أفكر بصوت مرتفع:

- إن هذا الركن من العالم يبدو وكأنه مصنوع للعشاق والمحبين..

فأجابت بصوت تخنقه بعض الشيء قبعة القش التي كانت تغطي وجهها:

- تماماً.

- ولكن ليس لنا نحن اللذين لم يعد أحدنا يحب الآخر..

فلم تجب وظللت محدداً عينيَّ بها، وأنا أحس من جديد تلك الرغبة التي أثارتني حين لمحتها للمرة الأولى إذ خرجت إليها عبر الصخور.

إن من ميزات المشاعر الكثيفة أنها تدفعنا إلى العمل بكل تلقائية، بلا مساعدة من إرادتنا، وعلى نحو شبه لا واعٍ. لقد وجدتني فجأة، من غير أن أعرف كيف تمَّ ذلك على ركبتي قرب أميلي المضطجعة الجامدة، منحنياً بوجهي فوق وجهها. ولا أدري كيف كنت قد نزعت القبعة العريضة التي كانت تغطي ملامحها، وإذ انحنيت لأقبلها، نظرت إلى فمها كما ينظر المرء إلى ثمرة يوشك أن يقضمها. كان لها فم كبير ريّان؛ وكانت الشفتان المصبوغتان تبدوان جافتين مشققتين، كما لو أن لهيباً داخلياً، بصرف النظر عن الشمس، كان قد جففهما. وكنت أفكر بأن هذا الفم لم يكن قد لمس فمي منذ وقت طويل، وأن مذاق تلك القبلة، إذا بادلتني إياها وهي في أحلامها، سيكون بالنسبة لي أكثر إسكاراً من أقوى المشروبات. وأعتقد أني ظللت طوال دقيقة على الأقل أتأمل هذا الفم، ثم أدنيت شفتيَّ بكل هدوء. ولكني لم أقبِّلها بعد، متريثاً في الإحساس بفمي شديد القرب من فمها. وكنت أشعر بالنَفَس الخفيف الهادئ الذي كان يخرج من منخريها، وكذلك بحرارة شفتيها الملتهبتين، على ما كان يخيل إلي. وكنت أتخيل، فيما وراء هاتين الشفتين، في داخل الفم، رطوبة اللعاب شبيهةً بجليد مثلج في أعماق أرض تحرقها الشمس، مدهشة ومرطبة كهذا الجليد. وفيما كنت مسبقاً أتذوَّق هذه الرطوبة، التقت شفتاي أخيراً بشفتي أميلي.

ولم يبد هذا الاتصال مفاجئاً لها، أو موقظاً إياها. وضغطت شفتيَّ برقة أول الأمر، ثم بقوة، وإذ ألفيتها جامدة ما تزال، جازفت

بقبلة أعمق. وأحسست هذه المرة، وفق رغبتي، فمها ينفتح على مهل، أشبه بصَدفة تنشقُّ مصاريعها على خفق حيوان حي، غاطس في ماء بحري رطيب. كان فمها ينفتح، وينفتح، فتكشف الشفاه عن لثتها، وكنت أشعر في الوقت نفسه بذراع تحوط عنقي.

ارتعشت ارتعاشاً عنيفاً واستيقظت مما كان بالطبع غفوةً خلقها الصمت وحرارة الشمس. كانت أميلي على بعد خطوات مني، ما تزال متمددة على الرمال، ووجهها مختفٍ تماماً بقبعتها القشية. وأدركت أني كنت قد حلمت بهذه القبلة، أو أني بالأحرى كنت قد عشتها في تلك الحالة من الحنين الهاذي الذي كان يبدو وهو يُحل دائماً محل الواقع الموئس وهماً فتّاناً. كنت قد قبّلتها وبادلتني قبلتي، ولكن هذا العناق كان عناق طيفين بعثتهما الشهوة، منفصلين عن شخصينا الجامدين المتباعدين.

واحتوى نظري أميلي. وقلت لنفسي: «ولنفرض الآن أني أحاول حقاً أن أعانقها؟» وسرعان ما أجبت نفسي: «إنك لن تفعل شيئاً من ذلك، لشدة ما أنت مشلول بالخجل وبالإحساس باحتقارها لك». وفجأة ناديتها بصوت قوي:

- أميلي!

- ماذا هناك؟

- لقد غفوت وحلمت بأني كنت أقبلك...

فلم تقل شيئاً. وراعني هذا الصمت، فأردت أن أغيّر الموضوع وسألت، كيفما اتفق لي:

- أين باتيستا؟

فأجاب صوتها الهادئ من تحت القبعة الكبيرة:

- لا أدري.. وبالمناسبة، إنه في هذا الصباح لن يتناول الفطور معنا.. لقد ذهب يقوم بنزهة في البحر مع رينغولد.

وقبل أن يتاح لي وقت للتفكير، خرجت هذه الكلمات من شفتيّ:

- أميلي، لقد رأيتك مساء أمس، حين كان باتيستا يقبّلك.
- كنت أعرف ذلك.. لقد رأيتك، أنا أيضاً..

وكان صوتها طبيعياً تماماً، لا تكاد تضعفه أطراف القبعة.

وذُعرت أن أراها تتلقى تصريحي على هذا النحو، كما دُهشت بقراري المفاجئ. وفكرت أن صمت البحر والخَدَر الذي خلقته الشمس كانا في الحقيقة قد أذابا ومحوا، إذا صح التعبير، خلافنا، في شعور عام من اللاجدوى واللامبالاة. ومع ذلك، فقد أضفت في جهد:

- أميلي، يجب أن نتكلم كلانا..
- ليس الآن.. إنني أريد أن آخذ حمامي الشمسي وأن أكون هادئة..
- إذن، فيما بعد، بعد الظهر؟
- اتفقنا، اليوم بعد الظهر.

ونهضت، ومن غير أن ألقي نظرة خلفي، عدت أسلك الطريق الذي يفضي إلى المقصورة.

الفَصْل التاسع عَشَر

لم نتبادل، على مائدة الغداء، إلا كلمات قليلة. وكان الصمت يبدو وهو ينفذ حتى صميم البيت مع النور الهاجري. وكانت السماء والبحر اللذان يملأ من النوافذ الواسعة يباعدان فيما بيننا، فيما كانا يبهراننا؛ فكأن هذا اللازورد كله كان يملك كثافة ماء يجري، وكأننا كنا جالسين في قعر البحر، مفصولين بالكتلة المائية المشرقة، عاجزين عن الكلام. ومن جهة أخرى، كنت مصمماً على ألّا أواجه التفاهم مع أميلي قبل الساعة التي كنت في حددتها أنا نفسي. إن بإمكان المرء أن يفكر بأن شخصين يقوم أحدهما في وجه الآخر وبينهما مناقشة معلّقة، لا يفكران بشيء آخر، في مثل هذه الظروف. ولم يكن ذلك وضعنا بالتأكيد؛ إنني لم أكن أفكر بقبلة باتيستا ولا بخلافنا الصميمي؛ وكنت واثقاً من أن أميلي لم تكن أقل من ذلك بعداً عن هذا. كان ذلك التوقّف الزمني، وذلك الخدر، وتلك اللامبالاة تتجدد كلها على نحوٍ ما، فتنصحني في ذلك الصباح على الشاطئ بإرجاء كل مناقشة إلى ما بعد.

ونهضت أميلي بعد الغداء، وقالت إنها ذاهبة لتستريح، وخرجت. وظللت وحدي لحظة من غير أن أتحرك، وأنا أنظر عبر النافذة إلى خط الأفق المشرق، حيث كانت زرقة البحر القاسية تذوب مع لازورد السماء العميق. وكانت سفينة صغيرة سوداء تتقدم على ذلك الخط

كذبابة على خيط ممدود، وكنت أتابعها بعيني وأنا أتخيل، بطفولة، ما كان يحدث تلك اللحظة على الشاطئ: بحارة يلمعون النحاس أو يغسلون الجسر، وطباخ ينظف الأواني بين الجسرين، وضباط ربما كانوا ما يزالون على المائدة، وميكانيكيون نصف عراة يرمون رزماً من فحم في المحرقة.. كانت سفينة صغيرة جداً، ليست أكبر من نقطة في عيني، ولكنها عن كثب شيء عظيم، مليء بالناس، محمّل بالمصائر البشرية. وبالمقابل، كنت أفكر بأن هؤلاء البحارة ربما كانوا هناك، وهم ينظرون إلى شواطئ كابري، يحدّقون في النقطة البيضاء الضائعة على الشاطئ، من غير أن يدركوا أن هذه النقطة كانت المقصورة، وأني كنت فيها مع زوجتي، وأن أحدنا لم يكن يحب الآخر، وأن أميلي كانت تحتقرني، وأني لم أكن أعرف كيف أسترد احترامها وحبها.

ولاحظت أن النعاس كان يستولي عليّ، فعزمت في انتفاضة مفاجئة أن أنفّذ الجزء الأول من خطتي: إبلاغ رينغولد أنني، بعد تفكير ناضج، عدلت عن التعاون معه. وخلّفت هذه الفكرة لديّ تأثير دوش بارد. وغادرت المقصورة وقد استيقظت تماماً.

وبعد نصف ساعة، كنت قد اجتزت بخطوة سريعة الطريق الذي يستدير حول الجزيرة، فدخلت قاعة الفندق. وأعطيتهم اسمي ثم ذهبت أجلس على أريكة. وكان لدي شعور بأني أنعم بصفاء ذهني كبير، صفاء عصبي ممزوج بالاهتياج. ولكني كنت أحسني، عبر العزاء المتزايد الفَرِح الذي كنت أشعر به لدى التفكير بما سوف أفعله، سائراً على الطريق السويّ. وبعد بضع دقائق دخل رينغولد القاعة، وأقبل علي بوجهٍ مهموم ومفاجأ في وقت واحد، مفاجأ بزيارتي في تلك الساعة مع خشية وجود أنباء سيئة. وسألته في تأدب:

- ربما كنت نائماً يا رينغولد، فهل أيقظتك؟

فقال مؤكداً:

- لا، لا، لم أكن نائماً، فأنا لا أُقيل أبداً.. ولكن تعال، يا مولتيني، لنذهب إلى المشرب.

وتبعته إلى المشرب الذي كان خالياً في تلك الساعة. وسألني رينغولد، كما لو أنه كان يريد أن يؤخر المناقشة التي كان يخشاها، عما كنت أريد أن أشرب: قهوة أم مشروباً؟ وكان يعرض عليّ ذلك بهيئة تشبه هيئة بخيل مقسور على القيام بضيافة سخية. ولكني كنت أدرك أن سبب استيائه كان شيئاً آخر، وأنه كان يؤثر ألّا يراني. ولم أرد أن آخذ شيئاً، وبعد بضع عبارات تافهة، باشرت الحديث عن السبب الرئيسي لزيارتي:

- إنك مندهش بلا شك أن تراني أعود إليك مبكراً، في حين أني كنت أملك النهار كله للتفكير، ولكن بدا لي غير مجدٍ أن أنتظر حتى الغد.. لقد بحثت القضية بما فيه الكفاية من العمق وأتيت أبلغك نتيجة أفكاري..

- وما هي هذه النتيجة؟

- إنني لا أستطيع المشاركة في هذا السيناريو؛ إنني بالإجمال أتخلى عن هذا العمل.

ولم يتلقّ رينغولد تصريحي في دهشة، فقد كان يتوقع ذلك طبعاً. ولكنه بدا مأخوذاً بنوعٍ من الهياج، وأجابني بصوت متغير:

- اسمع، يا مولتيني، لقد كنا بحاجة أن نتحدث، أنت وأنا، حديثاً واضحاً.

- يبدو لي أني كنت واضحاً أشد الوضوح.. إنني لن أكتب سيناريو «الأوديسة».

- ولماذا، رجاءً؟
- لأنني غير موافق على تفسيرك للموضوع.

فقال بصوت غير متوقع:

- إنك إذن متّفق مع باتيستا؟

وغاظني بدوري هذا الهجوم الذي لم أكن أتوقعه. إنه لم يسبق لي أن فكرت بأن اختلافي مع رينغولد يعني بالضرورة اتفاقي مع باتيستا، وقد قلت في غضب:

- ما شأن باتيستا هنا؟ إنني لا أتبنى وجهة نظره أكثر مما تبنيت وجهة نظرك.. ولكني أصارحك يا رينغولد أني إذا كان لي أن أختار بين الوجهتين، لفضلت باتيستا عليك.. إنني آسف، ولكني أعتقد أن المرء إما أن يكتب أوديسة هوميروس أو لا يكتبها.
- حفلة تنكرية بالتكنيكولور، مع نساء عاريات، وكنغ ـ كونغ، ورقصات البطن، وعرض النهود، ومسوخ من الورق المقوّى، وعارضات!..
- إنني لم أقل ذلك، بل قلت أوديسة هوميروس!

وانفجر رينغولد بلهجة اقتناع عميق:

- ولكن أوديسة هوميروس هي أوديستي، يا مولتيني!

ولا أدري لماذا أحسست دفعة واحدة بالحاجة إلى إثارة غضب رينغولد: لقد كانت بسمته الاحتفالية المزيفة، وقسوته الطغيانية الحقيقية، ونظراته التحليلية القصيرة أموراً لا تُحتمل عندي في تلك اللحظة. وقلت في غضب:

- لا، إن أوديسة هوميروس ليست هي أوديستك، بل أقول لك أكثر من ذلك، ما دمت تدفعني إلى النهاية، إن الأوديسة تفتنني، وما تريد أنت أن تصنعه منها ينفّرني!

- مولتيني!

قالها رينغولد وهو يبدو هذه المرة مغتاظاً حقاً. فتابعت كلامي وقد انطلقت فيه:

- نعم، إن «أوديستك تنفّرني، إرادتك في أن تخفض البطل الهوميروسي لأننا لسنا قادرين على أن نصنعه مرة أخرى كما خلقه هوميروس ـ إن عملية التشويه هذه تثير اشمئزازي ولن أشارك فيها بأي ثمن!

- مولتيني!... انتظر يا مولتيني!

فقاطعته غاضباً:

- هل قرأت «يوليسوس» لجيمس جويس؟ أتعرف من هو جويس؟

فأجاب رينغولد بلهجة منزعجة إلى أبعد حد:

- لقد قرأت كل ما يمت إلى الأوديسة.

- لقد فسَّر جويس هو أيضاً الأوديسة تفسيراً عصرياً... وفي هذه الإرادة بالتعصير، أي بالتشويه والخفض والتدنيس، ذهب أبعد منك بكثير، يا عزيزي رينغولد: لقد جعل من يوليسوس عكروتاً، شاذاً جنسياً، إمعة، هروبياً، عاجزاً، وجعل من بينيلوب مومساً مجربة... وقد أصبح «أيول» محرر جريدة؛ والهبوط إلى الجحيم جنازة رفيق مدمن، و«سيريه» زيارة لماخور، والعودة إلى «إيتاك» العودة «إلى البيت» ليلاً عبر شوارع دوبلن، مع توقف لقضاء حاجة جنسية في زاوية من الزوايا. ولكن جويس تحفَّظ على الأقل فلم يذكر البحر الأبيض المتوسط ولا البحر ولا الشمس ولا الأراضي البور القديمة... لقد وضع «يوليسوسه» في الشوارع المتشققة لمدينة شمالية، في الحانات والمواخير والمخادع والمراحيض... لا شمس ولا بحر ولا سماء.. ولكن كل شيء هناك عصري، أي

منحطّ، مشوه، على قياسنا البائس... أما أنت يا رينغولد، فلا تملك حتى تحفُّظ جويس هذا، ولهذا، أكرر لك أني إذا دُعيت للتفضيل بينك وبين باتيستا، أفضل باتيستا... لقد أردتَ أن تعرف أسباب رفضي العمل بهذا السيناريو.. وأنت الآن تعرفها.

وتداعيت للسقوط في أريكتي، غارقاً بالعرق. وكان رينغولد يحدجني قاسياً، جاداً، مقطب الحاجبين:

- أنت إذن بالإجمال على اتفاق مع باتيستا؟

- لا، أنا ببساطة على خلاف معك.

فقال رينغولد وهو يرفع صوته فجأة:

- عفواً، لا على خلاف معي، ولكن على اتفاق مع باتيستا...

وأحسست فجأة الدم ينسحب من وجنتي، ولا بد أني كنت ممتقعاً إلى حد الموت، فقلت بلهجة مضطربة:

- ما الذي تقصده؟

فمال رينغولد علي وقال بصوت يفح، وهذه هي الكلمة المعبّرة، لأنه يذكّر بأفعى تُحس أنها مهددَّة:

- أقصد ما أقصد... لقد تناولت الغداء مع باتيستا، وهو لم يُخْفِ عني أفكاره، ولا حقيقة أنك تشاطره إياها... إنك على وفاق معه، مهما أراد... وليس الفن هو غايتك يا مولتيني؛ إن ما يعنيك هو المال.. هذه هي الحقيقة يا مولتيني.. إن شيئاً واحداً يهمك: أن تقبض... بأي ثمن!

فصحت محتجاً بصوت قوي:

- رينغولد!

فتابع ملحّاً:

- لقد فهمت يا سيدي العزيز، وأكرر لك: بأيّ ثمن!

وكنا الآن وجهاً لوجه، لاهثين؛ كنت أنا ممتقعاً كورقة بيضاء، وكان هو في حمرة قرمزية. وقلت مردداً، ولكني كنت أدرك أن صوتي كان يعبر عن ألم أكثر منه عن غيظ:

- رينغولد!

وكانت هذه الصيحة تبدو رجاءً أكثر منها تعبيراً عن غضب رجل مهان، يوكش أن ينتقل من العنف الكلامي إلى الضرب. ولكني في الوقت نفسه كنت أشعر أني على وشك أن أصفع المخرج. ولم يتح لي الوقت لذلك. ولدهشتي الكبيرة، بدا رينغولد الذي كنت أحسبه ثقيل الذهن، مدركاً الألم الكامن في صوتي، وبدأ فجأة يتمالك نفسه ويستردّ برودة أعصابه. وقد ابتعد قليلاً، وقال بصوت منخفض أراده أن يكون متواضعاً:

- اعذرني يا مولتيني، لم أكن أفكر بما قلته!

فأتيت حركة عصبية كما لأقول «إنني أعذرك» وشعرت بالدموع تصعد إلى عينيّ. واستطرد رينغولد بعد لحظة ارتباك:

- حسناً.. لقد تفاهمنا... إنك لن تشارك في هذا السيناريو.. هل أبلغت باتيستا؟

- لا.

- وهل تفكر في إبلاغه؟

- افعل أنت نفسك ذلك.. أنا لا أعتقد أني سأرى باتيستا من جديد.

وصمتّ لحظة ثم أضفت:

- وقل له أن يبحث عن سيناريّ آخر... وليكن هذا واضحاً، يا رينغولد!

فسألني بدهشة:

- ما هو؟

- إنني لن أكتب سيناريو عن الأوديسة، لا وفق أفكارك ولا وفق أفكاره.. لا معك، ولا مع مخرج آخر... هل فهمت جيداً؟

فعبر عينيه نور تفهُّم. ولكنه سأل في حذر:

- أيكون ما ترفضه هو سيناريوي أنا، أم السيناريو بذاته، على أي حال؟

فقلت بعد تفكير قصير:

- لقد سبق أن قلت لك إني لا أريد تفسيرك؛ ثم إني أرى أني إذا علّلت رفضي على هذا النحو، أسأت إليك عند باتيستا.. ولذلك فإننا سنتفق على ما يلي: أنت تعلم أني غير موافق على تفسيرك، ولكن ليكن مفهوماً، بالنسبة لباتيستا، أني أرفض معالجة هذا الموضوع مهما كان التفسير الذي يُعطاه.. قل له إني لا أحسّ بالمستوى المطلوب، وإني متعب، وإني مصاب بانهيار عصبي... ما رأيك؟

فبدا رينغولد مرتاحاً، ومع ذلك فقد قال ملحّاف:

- وهل يصدق باتيستا ذلك؟

- سيصدقه، وليطمئن بالك، سترى أنه سيصدقه!

وتبع ذلك صمت طويل؛ وكنا منزعجين كلانا؛ وكان نزاعنا ما يزال في الهواء، وما كان بوسعنا أن ننساه سريعاً. وقال رينغولد أخيراً:

- آسف جداً ألا تكون معاوني يا مولتيني.. وربما كان بإمكاننا أن نتفق!

- لا أعتقد ذلك...

- إن اختلاف وجهات النظر بيننا، ربما لم يكن كبيراً إلى هذا الحد، بعد كل حساب!؟

فقلت بحزم وقد استرددت كل هدوئي:

- لا، يا رينغولد، لقد كان اختلافاً كبيراً جداً. إن من الممكن أن تكون على حق وأنت ترى الأوديسة من وجهة نظرك.. أما أنا، فإني من وجهتي مقتنع بأن الأوديسة، حتى اليوم، يمكن أن تُقدّم كما كتبها هوميروس.

فأجبت بلهجة مصالحة:

- لنفترض ذلك.. ولكني أصبو إلى عالم شبيه بعالم هوميروس، أما أنت، فلا...

- أنت على خطأ يا مولتيني: أنا أيضاً... فمنذا الذي لا يصبو إليه؟ ولكن حين تكون القضية قضية صنع فيلم، فإن الأحلام لا تكفي...

صمت آخر. ونظرت إلى رينغولد، وكنت أرى أنه بالرغم من إدراكه لأسبابي لم يكن مقتنعاً تماماً. وسألته فجأة:

- أنت تعرف بلا ريب أنشودة يوليسوس في «المهزلة الإلهية»!

فأجاب وقد أدهشه سؤالي قليلاً:

- نعم أعرفها، ولكني لم أستحضرها تماماً في ذهني...

- اسمح لي أن أتلوها عليك، فأنا أحفظها عن ظهر قلب...

- إذا كان ذلك يسيّرك...

ولم أكن أدري حقاً ما الذي كان يدفعني لتلاوة هذا المقطع من دانتي؛ وفكرت فيما بعد أن ذلك ربما كان يبدو لي أفضل طريقة لأن أردّد لرينغولد بضعة أشياء من غير أن أجازف بإهانتَه من جديد. وفيما كان المخرج مستريحاً في أريكته بهيئة الاستسلام، قلت:

- إن دانتي يجعل يوليسوس يروي نهايته ونهاية رفاقه..

- أعرف ذلك يا مولتيني، أعرفه، اقرأ...

فتريثت لحظة، منخفض العينين، ثم بدأت:

- إن الإشكال الأكبر في الأسطورة القديمة...

وتابعت بلهجة عادية، متجنباً التفخيم ما وسعني ذلك. وبعد أن تأملني رينغولد لحظة، مقطّب الحاجبين تحت قبعته القماشية، صرف نظره نحو البحر وكف عن الحركة. وتابعت في هدوء، بصوت صاف، ولكني ابتداءً من البيت:

أوه! يا أخوتي بمئات الألوف...

أحسست أن انفعالاً مفاجئاً كان بالرغم مني يُرعش صوتي. وكنت أنكر فعلاً بأن هذه الأبيات كانت تعبّر، لا فقط عن الفكرة التي أكونها عن شخصية يوليسوس، بل كذلك عن الفكرة التي أكوّنها عن نفسي وعن حياتي كما كان ينبغي أن تكون ولم تكن مع الأسف كذلك. وكنت أشعر أن هذا الانفعال كان يصدر عن المفارقة بين وضوح هذه الفكرة وجمالها وبين عجزي الحقيقي. ومع ذلك، فقد نجحت في امتلاك رعشة صوتي، وتابعت من غير انقطاع حتى آخر بيت:

إلى أن ينغلق البحر ثانية علينا...

وإذ انتهيت، نهضت مستأذناً. وكذلك فعل رينغولد، وهو يقول بسرعة:

- اسمح لي يا مولتيني، اسمح لي... لماذا قرأت علي مقطع دانتي هذا؟ إنه جميل جداً، ولكن ما هو السبب؟
- لأن هذا، يا رينغولد، هو يوليسوس الذي كنت أريد أن أصوره... إنني هكذا أراه.. وقد حرصت قبل أن أتركك على أن أؤكده لك بصورة لا تحتمل الشك.. وقد خيل إلي أن هذا المقطع كان يشرحه لك خيراً من كلماتي...
- طبعاً... ولكن دانتي هو دانتي: رجل من القرون الوسطى، أما أنت يا مولتيني، فمن العصر الحديث...

ولم أجب هذه المرة، ومددت له يدي، ففهم وأضاف:

- على أي حال، يؤسفني يا مولتيني كثيراً أن أستغني عن مساعدتك لقد كنت تعودت عليك...

- سيكون ذلك لمرة أخرى.. أنا أيضاً كنت أتمنى أن أعمل معك.

ولكن، لماذا إذن، يا مولتيني؟

فقلت باسماً وأنا أشد على يده:

- القدر!

وابتعدت. وبقي هو أمام الطاولة، في المشرب، متدلي الذراعين، في حركة حائرة كما لو أنه ما يزال يتساءل عن السبب.

وخرجت بسرعة من الفندق.

الفَصْل العِشرُون

كانت عجلتي للعودة إلى البيت مثلها في مغادرته، وبنفاد صبر وحماسة شديدين لم يكونا يسمحان لي بالتفكير في هدوء بما حدث. والحق أني لم أكن أفكر في شيء وأنا أعدو تحت الشمس المحرقة، عبر الطريق الإسمنتي الضيق. ولكني كنت أحس أنه قد وُضع أخيراً حدٌّ لجمود وضع طال أكثر مما ينبغي، وأني عما قليل سأعرف لماذا كانت أميلي قد كفّت عن حبي: ولم يكن شيءٌ موجوداً بالنسبة لي، فيما وراء هذا اليقين. إن التفكير يتعلّق باللحظة التي تسبق العمل أو تليه؛ أما ما يقودنا في إبّان العمل فهي أفكارٌ منسيّة، حولتها روحنا إلى أهواء. كنت أعمل، فلم أكن إذن أفكر. ولكني كنت أعرف أن فكري سيستيقظ فيما بعد، بعد أن تتم الأعمال الضرورية.

وإذا بلغت المقصورة، رقيت ركضاً السلّم المؤدي إلى السطيحة ودخلت غرفة الجلوس. وكانت خالية، ولكن مجلة مفتوحة على أريكة، وأعقاب سجائر محمَّرة في المنفضة والراديو الذي كانت تنبعث منه موسيقى راقصة خافتة، كل ذلك كان يشهد بأن أميلي كانت حاضرة منذ لحظات. ولست أدري، أكان السبب روعة ذلك النور الأصيلي المعتدل العذب، أو تلك الموسيقى الخافتة، ولكن غضبي هدأ دفعة واحدة بينما كانت العوامل التي أوحت به ما تزال على وضوحها وعدم تزعزعها. وتوقفت قبل كل شيء عند المظهر الهادئ

الفاره الأليف لغرفة الجلوس هذه. فكأننا كنا نسكن هذا البيت منذ أشهر، وكأن أميلي كانت قد اتخذت فيه عاداتها كما لو أنه بيت نهائي. لقد كان ذلك الراديو، وتلك المجلة، وهذه السجائر المدخّنة نصف تدخين، تذّكرني بهوس أميلي القديم ببيتها، وتلك الصبوة المؤثرة، الغريزية والأنثوية، إلى المنزل، وإلى الاستقرار فيه. وإذن، فقد كانت، رغم الظروف والأحداث، تهيئ نفسها لإقامة طويلة، سعيدةً أن تكون في كابري، في بيت باتيستا. والحال أني كنت قادماً لأبلّغها أنه كان علينا أن ننصرف.

واتجهت مهموماً إلى غرفة أميلي وفتحت الباب. ولم يكن فيه أحد، ولكني لاحظت هناك أيضاً آثار عاداتها البيتية: الروب ديشامبر الممدّد بعناية على أريكة، والخفّين عند أسفل السرير، وزجاجات الزينة والعلب الصغيرة وجميع أدوات التجميل مصفوفة على الرف، أمام المرآة؛ وعلى الطاولة، كان ثمة كتاب نحو إنكليزي، لأنها كانت منذ حين قد شرعت في دراسة هذه اللغة، ودفتر لتمريناتها، وقلم.. أما الحقائب المحمولة من روما، فكانت قد اختفت. وفتحت الخزانة بحركة غريزية: كانت أثواب أميلي القليلة معلقة بمشاجب، وكانت قد وضعت على أحد الرفوف مناديل وأحزمة وشرائط وزوجاً من الأحذية. وفكرت متسائلاً ماذا كان يهمّها أن تحبني أو تحب باتيستا، ما دام لها بيت، وما دامت تستطيع الاعتماد على إقامة طويلة، بلا أدنى همّ.

وخرجت من الغرفة، وتوجهت عبر ممر صغير نحو المطبخ الذي كان يقوم في بناية صغيرة متصلة بالمقصورة. وعلى العتبة، سمعت صوت أميلي التي كان تتحدث إلى الطباخة. وبقيت آلياً خلف الباب لأصغي.

وكانت أميلي تعطي تعليماتها بشأن العشاء. كانت تقول:

- إن السيد مولتيني يحب الطبخ السهل، بلا مرق... المسلوق والمشوي على العموم.. وهذا أفضل لك يا أنيزينا، فهذا ما يخفف عملك.

- أوه! إن هناك يا سيدتي ما يشغلني دائماً.. حتى الطبخ السهل، ليس سهلاً إلى هذا الحد! إذن، ما الذي ستصنعه لهذا المساء؟

صمت قصير. ولا بدّ أن أميلي كانت تفكر، ثم سألت:

- أمن الممكن إيجاد سمك في هذه الساعة؟

- نعم، إذا قصدت البائع الذي يورّد للفنادق.

- اشتري إذن سمكة كبيرة جميلة بوزن كيلو أو أكثر.. سمكة دقيقة، ليس فيها حسك كثير، مرجانة أو عجل بحر.. ما تجدينه أخيراً، وضعيها في الفرن أو اسلقيها جيداً.. وهل تحسنين صنع المايونيز، يا أنيزينا؟

- نعم، يا سيدتي.

- حسناً.. إذا سلقت السمكة، اصنعي مايونيز، ثم سلطة أو خضرة ما، جزر أو كوسى أو لوبياء.. ما تجدينه، وخصوصاً فاكهة، فاكهة كثيرة تضعينها في الثلاجة فور عودتك من السوق حتى تكون باردة عند تقديمها..

- وبمَ تبدآن، يا سيدتي؟

- آه.. صحيح.. البدء! ليكن لهذا المساء شيئاً سهلاً جداً: اشتري لحم خنزير، لا لحم الجبل المبالغ في تمليحه، ثم بعض التين في الوقت نفسه.. هناك تين، أليس كذلك؟

- نعم، يا سيدتي.

بينما كنت أسمع هذه المحادثة المنزلية التافهة، الهادئة، كانت

الكلمات الأخيرة التي تبادلتها مع رينغولد تعاودني، لا أدري لماذا. لقد قال لي إني كنت أصبو إلى عالم شبيه بعالم الأوديسة، فأقررته على ذلك؛ ولكنه ردَّ بأن صبواتي كانت لا مجدية، باعتبار أن العالم العصري لا شأن له بعد بعالم الأوديسة. ومع ذلك، فقد فكرت بأن الوضع تحت عينيَّ يمكن أن يكون التمثيل الدقيق للظروف التي سادت في عهد هوميروس: سيدة البيت تتحدث مع خادمتها وتعطيها أوامرها من أجل العشاء.. لقد أيقظت هذه الفكرة فيَّ صورة هذا النور الجميل العذب الذي كان يملأ الصالة، وأصبحت مقصورة باتيستا، كما بفعل السحر، بيت «إيتاك»، وأصبحت أميلي بينيلوب وهي تتحدث إلى خادمتها. أجل، لقد كنت على حق، فقد كان كل شيء كالسابق، أو يمكن أن يكون كالسابق؛ وكان كل شيء مختلفاً اختلافاً مراً. وتقدمت نحو العتبة وناديت:

- أميلي!

فالتفتت ولم تكد، وسألت:

- ماذا تريد؟

- تعلمين أني أريد التحدث إليك.

- اذهب فانتظرني في الصالة.. إن لديَّ عملاً آخر مع أنيزينا، ولكني آتية على الفور.

وعدت إلى الصالة فجلست على إحدى الأرائك وجعلت أنتظر. وكانت فكرة تقلقني الآن، ندم مسبَّق لما سوف أقوم به. لقد كانت أميلي، بحسب الظواهر، تتوقع إقامة طويلة في المقصورة، وهأنذا على وشك أن أطلب إليها الذهاب. وكنت أتذكر الطريقة التي أبلغتني بها عزمها على تركي؛ وإذ قارنت موقفها ذاك اليائس تقريباً، بهدوء سلوكها الحالي، فكرت بأنها بعد كل حساب قد صممت على أن

تعيش معي، حتى ولو كانت تحتقرني. وبالإجمال، فإن الوضع غير المحتمل الذي كانت تثور عليه آنذاك، كانت تقبله الآن. ولكن هذا القبول كان أكثر إهانة لي من كل ثورة وتمرد، إذ هو لديها علامة سقوط، علامة انهيار، كما لو أنها لم تكن مسرورة بأن تحتقرني، فكانت تتجمَّع هي نفسها في هذا الاحتقار. وكانت هذه الفكرة كافية لأن تطرد من ضميري الندم الخفيف الذي كان يعكره. أجل، كان علينا، من أجلها هي ومن أجلي، أن نذهب، وكنت على وشك أن أبلغها رحيلنا.

وانتظرت لحظة أخرى، ثم دخلت أميلي، فذهبت تُسكت الراديو، وجلست:

- كنت تريد أن تحدثني؟

فأجبتها:

- هل أفرغت حقائبك؟

- نعم، لماذا؟

- إنني آسف.. ستكونين مضطرة إلى ملئها من جديد.. فغداً صباحاً سنعود إلى روما.

فلم تتحرك، كما لو أنها لم تفهم. ولكنها سألت بصوت خشن:

- ولكن ماذا حدث، من جديد؟

فأجبت وأنا أنهض لأغلق الباب المطل على الممر:

- حدث أني عزمت على ألَّا أكتب السيناريو.. لقد تخليت عنه.. فليس أمامنا إذن إلا أن نعود إلى بيتنا.

فردَّت ببرودة مفاجئة:

- كنت مساء أمس على رأي مختلف.. ومع ذلك، فقد كنت على علم بالأمور..

- مساء أمس تركت نفسي أقتنع بحججك.. ولكني فهمت أني لم يكن لي حق بأن أعتبرها.. إنني لا أعرف الدافع لنصيحتك إياي بأن أكتب هذا السيناريو، ولا أريد أن أعرفه.. كل ما أدريه أن من الأفضل، لي ولك على حد سواء، أن أتخلى عن المشروع.

فطرحت عليَّ سؤالاً لم أكن أتوقعه:

- وهل علم باتيستا بالأمر؟

فأجبت:

- إنه لا يعلم شيئاً، ولكني ذهبت إلى رينغولد وأخبرته.
- لقد أسأت التصرف كثيراً!
- لماذا؟

فقالت بلهجة قاسية وغير واثقة:

- لقد كنا بحاجة إلى هذا المال لندفع أقساط الشقة.. ومن جهة أخرى، قلت لي أنت نفسك أكثر من مرة إن التخلي عن عقد ما يعني إغلاق الباب دون أعمال آتية... لقد أسأت التصرف... وما كان ينبغي لك..

واغتظت بدوري، فصحت:

- ألا تدركين أن وضعي لم يعد يُحتمل، وأني لا أستطيع بعدُ أن أتلقى مالاً من رجل.. يحاول أن يغوي زوجتي؟

فلم تجب أميلي. واستطردت:

- إنني أرفض السيناريو لأني إذا قبلته، في الظروف الحالية، كنت مفتقراً إلى الكرامة.. ولكنني أرفضه كذلك من أجلك، بسببك، لكي تعيدي النظر في حكمك عليّ.. إنني أتساءل لماذا تعتبرينني رجلاً جديراً بأن يقبل عملاً في مثل هذه الظروف.. أنت على

خطأ، فلست هذا الرجل!

ورأيت شعاعاً معادياً وساخراً يعبر عينيها:

- إذا كنت تتصرف على هذا النحو من أجلك أنت... فهذا معقول ومقبول.. أما إذا كان بسببي، فما يزال المجال أمامك لتغيّر قرارك.. إنك تقوم بعمل غير مجد.. أؤكد لك ذلك.. وهذا لن يفيد إلا في الإساءة إليك، هذا كل شيء!
- ماذا تقصدين؟
- لا أقصد غير ما أقول: إن هذا لن يجدي شيئاً.

وأحسست البرودة تصعد إلى صدغيّ، وفهمت أني كنت أصفّر:

- لماذا؟
- قل لي أولاً: ما هو التأثير الذي كنت تعتقد أنك تمارسه عليّ بقراراك؟

وإذن، فقد جاءت اللحظة للمناقشة النهائية. كانت أميلي هي نفسها تعرضها عليّ. وفجأة استولى عليّ الخوف:

- لقد قلت لي منذ فترة، إنك كنت تحتقرينني.. وهذه عبارتك بالذات.. ولا أدري لماذا فقدت احترامك.. ولكني أعرف أن المرء لا يحتقر إلا الأشخاص الذين يقومون بأعمال جديرة بالاحتقار.. والحال أن قبول هذا السيناريو اليوم سيكون أمراً جديراً بالاحتقار.. وعلى قراري أن يثبت لك أني لست ما تظنين.. هذا كل شيء!

وسرعان ما أجابت بلهجة انتصار، وكأنها مسرورة أن تراني أسقط في الشَرَك:

- إن قرارك لا يثبت لي شيئاً البتة... ولهذا أنصحك في أن تغيّره..
- كيف، لا يثبت شيئاً؟

وعدت إلى الجلوس، وبحركة شبه آلية كانت تخفي اضطرابي، مددت يدي لآخذ يدها التي كانت تستريح على ذراع أريكتها:

- أميلي.. أأنت التي تقولين لي ذلك؟

فسحبت يدها بسرعة:

- أرجوك... كفى هذا... لا تلمسني... لا تحاول بعدُ أن تلمسني.. إنني لا أحبك ولن يكون ممكناً لي بعد أن أحبك أبداً.

فسحبت يدي، وقلت وقد جُرحت جُرحاً عميقاً:

- لا نتحدث عن حبنا.. أنت على حق.. ولكن لنتحدث عن.. عن احتقارك.. وإذن، فحتى إذا رفضت هذا السيناريو، ستظلين على احتقارك لي؟

فنهضت فجأة، كأنها فريسة ألم مفاجئ:

- نعم، سأظل.. ثم دعني وشأني..
- ولكن لهذا الاحتقار سبباً، على ما أظن..
- أنت هو السبب، ما أنت عليه.. وجميع جهودك لن تغير في الأمر شيئاً.
- ولكن ماذا أنا عليه؟
- ماذا؟ أنا لا أدري.. إنك لا بدّ تعرف.. إن ما أعرفه أنك لست رجلاً.. إنك لا تتصرف تصرف الرجال!

ومرة أخرى استوقفتني المفارقة بين وضوح الشعور الذي كان يبين في كلماتها، وعدم الدقة والخرَق في كلماتها بالذات التي هي مصادر البراهين.. وسألتها بغضب بارد ممزوج بالسخرية:

- ماذا يعني: أن يكون المرء رجلاً؟ ألا تفهمين أن ليس لهذا أيّ معنى؟
- كفى، كفى.. أنت تعلم جيداً ماذا أعني..

وكانت قد اتجهت إلى النافذة وأولتني ظهرها وهي تحدّثني. وأخذت رأسي بين يديّ، ونظرت إليها لحظة، وأنا يائس. لكأنها لم تكن توليني ظهرها وحده، بل روحها كلها. إنها لم تكن تريد، أو ربما لم تكن تعرف أن تعبّر عن رأيها. يقيناً أن احتقارها كان قائماً على دافع مشروع، ولكنه لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية لتستطيع صياغته في دقة، فكانت إذن تفضّل أن تعزو هذا الاحتقار إلى خاصيّة في طبعي جديرة بالاحتقار وراثياً، غير قابلة للشرح ومن ثم لا سبيل إلى شفائها. وتذكرت فجأة تفسير رينغولد لسوء التفاهم الزوجي بين يوليسوس وبينيلوب، فانبثق في أعماقي ضوء مفاجئ. «وما يدريني أن أميلي قد أحست بأني منذ بضعة أشهر قد لاحظت أن باتيستا يغازلها؟ ما يدريني أن تكون قد اعتقدت أني كنت أحاول أن أستغل الفرصة... وأني بدلاً من أن أثور، بالإجمال، كنت أشجع بدافع من المصلحة، مقاصد باتيستا».

كان جديراً بمثل هذه الفكرة أن تقطع نَفَسي، لأني في الوقت نفسه كنت أتذكر بعض أحداث ملتبسة كان يمكن أن تثبّت شكي؛ منها، على سبيل المثال، في ذلك المساء الأول الذي خرجنا فيه مع باتيستا، تأخّري المعزو إلى حادث اصطدام، ولكنها استطاعت أن تنسبه إلى حساب دقيق من جانبي لكي أتركها وحدها مع المنتج.

وقالت أميلي فجأة، كما لتؤكد أفاري، من غير أن تلتفت إليّ:

- إن الرجل الرجل لا يتصرف كما تصرفت أنت مساء أمس، بعد أن رأيت ما رأيت.. أما أنت، فقد جئت بكل لطافة تسألني رأيي، كما لو أن شيئاً لم يكن.. مؤمّلاً أن أعطيك النصيحة بأن تكتب، مع ذلك، السيناريو.. وقد أعطيتك إياها، هذه النصيحة التي كنت تنتظرها، وقد قبلتها.. واليوم، إثر صعوبات لا أدريها مع

الألماني، تأتي لتقول لي إنك قد عدلت عن هذا العمل إكراماً لي، لأنني أحتقركَ ولأنك لا تريد أن أحكم عليك بأنك جدير بالاحتقار.. ولكنني أعرفك الآن، وأفهم جيداً أنك لم تعدل بملء إرادتك عن ذلك العمل، وأن الألماني هو الذي جعلك تعدل.. وعلى أي حال، لقد فات الأوان.. لقد كوّنت فكرتي عنك، وبإمكانك أن ترفض جميع سيناريوهات العالم، فلن أغيّر هذه الفكرة... فمن غير المجدي إذن أن تعقّد الأمور على هذا النحو.. إقبل هذا العمل ودعني وشأني، مرة، وإلى الأبد!.

هكذا كنا ندور دائماً في الدائرة نفسها: كانت تحتقرني ولكنها كانت ترفض أن تدلي بالسبب. وكنت أنفر نفوراً عميقاً من أن أصوغ أنا نفسي أسبابها، لأنها كانت أولاً لئيمة، ولأني إذا صغتها كان يبدو لي أني أقبل على نحوٍ ما أساسها المتين. ومع ذلك، فلئن كنت أريد أن أذهب إلى أعماق القضية، فلم يكن لديّ شيء آخر أعمله. وقد رسّخت صوتي وقلت بأهدأ ما أستطيع:

- اسمعي يا أميلي، إنك تحتقرينني ولا تريدين أن تقولي لي لماذا.. ربما كنت أنت نفسك لا تعرفين السبب.. ولكن لي الحق أن أعرف لأثبت لك أن نظرتك خاطئة، ولأستطيع أن أبرّئ نفسي.. اسمعي، إذا قلت لك أنا لماذا تحتقرينني، هل تعدينني أن تجيبيني إن كنت أقول الحق أم لا؟

وظلت جامدة أمام النافذة، مديرةً ظهرها، من غير أن تجيب. ثم قالت بصوت متعب، حانق:

- لا أعدك بشيء! أوه.. دعني في سلام!

قلت على مهل:

- إن السبب هو هذا: لقد تصوّرتِ، معتمدة على مظاهر خادعة،

أنني.. لم أكن أجهل شيئاً عن باتيستا.. وأني كنت، بدافع المصلحة، أفضّل أن أغمض عيني، أو حتى أن أدفعه بين ذراعيك.. أليس كذلك؟

ورفعت عينيّ عليها، منتظراً جوابها، ولكن هذا الجواب لم يأت. كانت أميلي صامتة، وعيناها تحدّقان بشيء ما فيما وراء النوافذ. وأحسستني فجأة أحمرّ حتى الأذنين، خجلاً مما قلت؛ وكنت أدرك أن مجرد النطق بذلك كان يمكن أن تفسره كبرهان إضافي يبرر احتقارها. وعجلت أضيف، متأسفاً:

- ولكن هذا غير صحيح يا أميلي، فأنت مخطئة.. فحتى الأمس، لم أكن أعرف شيئاً من سلوك باتيستا.. وأنت حرة طبعاً في أن تصدقيني أو لا، ولكن إذا كنت لا تصدقينني، فلأنك تريدين أن يتاح لك أن تحتقريني بالرغم من كل شيء، وأنك ترفضين أن تفتحي عينيك، وأنك تمنعينني من أن أبرّئ نفسي.

وظلت على صمتها، فأدركت أني أحكمت تسديد الضربة؛ لعلها لم تكن تعرف حقاً لماذا كانت تحتقرني، ولكنها كانت تفضّل على أي حال ألّا تعرف ذلك، وأن تستمر في اعتباري محتقراً بلا دافع ولا براهين، كما يرى المرء أن فلاناً أسمر، بطبيعته، أو أن له عينين زرقاوين. صحيح أني لم أكن قد عرفت أن أقنعها، ولكن هل تملك البراءة دائماً نبرة الحقيقة؟ كنت يائساً ومدفوعاً بطاقة داخلية أقوى من كل محاكمة عقلية فأحسست الحاجة لأن أضيف إلى كلامي حجة مادية؛ ونهضت لآخذ أميلي من ذراعها وأبتهل إليها قائلاً:

- أميلي، لماذا تكرهينني إلى هذا الحد؟ ألا تستطيعين أن ترّقي، حتى ولو لحظة واحدة؟

فلاحظت أنها كانت تصرف وجهها عني، كما لتخفيه. ولكنها

تركتني أشد على ذراعها، وحين تقدمت ولمس جنبي خاصرتها، لم تتراجع. وإذ ذاك تشجعت وأخذتها من قامتها، فقالت بصوت مرتفع:

- لن أغفر لك أبداً.. أبداً لن أغفر لك أنك هدمت حبنا.. لقد كنت أحبك كثيراً، ولم أحب أحداً سواك.. ولن أحب شخصاً آخر أبداً.. ولكنك هدمت بتصرفك كل شيء.. كان بإمكاننا أن نكون سعيدين جداً معاً.. أما الآن فكل شيء مستحيل.. فكيف تريدني أن أرقّ؟ وكيف لا أنقم عليك؟

ولا أدري أي أمل تحرك في نفسي: إنها رغم كل شيء تقول بأنها سبق أن أحبتني، وإني كنت حبها الوحيد.. وتمتمت وأنا أشدها بلطف إليّ:

- اسمعي، إنك ستملأين الحقائب وسنسافر غداً صباحاً.. وفي روما سأشرح لك كل شيء، وسوف تقنعين، أنا واثق من ذلك.

وتحررت من ضمتي هذه المرة، بما يشبه العنف، وصاحت:

- لن أذهب! ماذا تريدني أن أفعل في روما؟ يجب عليّ أن أترك البيت، وما دامت أمي لا تريدني، فعليّ أن أذهب لأعيش في غرفة صغيرة، وأن أعود لممارسة الضرب على الآلة الكاتبة.. لا، لا.. إنني لست ذاهبة.. بل أنا باقية هنا.. إنني بحاجة إلى الهدوء والراحة.. إنني باقية، فاذهب أنت إذا شئت، أما أنا، فباقية.. وقد قال لي باتيستا أن بإمكاني أن أبقى هنا ما شئت..

وغضبت بدوري فقلت:

- بل ستذهبين معي، صباح الغد..
- أنت على خطأ يا صديقي العزيز، فأنا باقية هنا..
- إذا كان الأمر كذلك، فأنا باق أيضاً، وسأتصرف على نحوٍ يحمل باتيستا على طردنا كلينا..

- إنك لن تفعل ذلك!
- بل سأفعله!

فرمقتني لحظة، ثم غادرت غرفة الجلوس من غير أن تقول كلمة. واصطفق باب غرفتها، وسمعت صوت المفتاح يُدار في القفل.

الفَصْل الحَادِي وَالعِشرُون

هكذا: ارتبطت بهذا التصريح الذي نطقت به في حركة غاضبة: «أنا أيضاً، سأبقى!»، ولكن ما كادت أميلي تغيب عني حتى أدركت استحالة البقاء: فالشخص الوحيد الذي كان ينبغي أن يرحل، هو أنا. كنت قد نكثت التزاماتي مع رينغولد وباتيستا، وكل شيء يدعو الآن إلى التفكير أني قطعت علاقاتي مع أميلي. كنت زائداً على اللزوم، فكان ينبغي أن أرحل. ولكني كنت قد صحت في أميلي أنني باق، وقد كنت في الحقيقة أريد البقاء، سواء بدافع من بقية أمل، أو على سبيل الانتقام. ولو كانت الظروف مختلفة، لكان الوضع مضحكاً؛ أما بالنسبة لحالتي النفسية اليائسة، فلم يكن الوضع إلا مقلقاً، أشبه بوضع متسلق للجبال يلاحظ حين يبلغ في صعوده نقطة خطرة، أنه لا يستطيع أن يبقى حيث هو، ولا أن يتقدم إلى الأمام، ولا أن يعود إلى الوراء. وأخذت أذرع الصالة جيئة وذهاباً وأنا فريسة اضطراب مفاجئ قلق، أتساءل ماذا ينبغي أن أفعل. لقد كان يستحيل عليّ أن أجلس على الطاولة بين أميلي وباتيستا كما لو أن شيئاً لم يحدث؛ وذات لحظة، خطر في بالي أن أذهب فأتناول العشاء في كابري وأن أعود متأخراً في الليل. ولكني كنت قد قطعت المسافة بين المقصورة والقرية أربع مرات أثناء النهار، وأنا أعدو عدواً، في صميم الشمس؛ وكنت أحسني متعباً، ولم أكن أملك القوة على مجابهة هذا التعب مرة

أخرى. ونظرت إلى ساعتي، فكانت تشير إلى السادسة. إذن فإن أمامي بعد ساعتين على الأقل قبل موعد العشاء: فماذا أفعل؟ وعزمت أخيراً، فقصدت غرفتي وأغلقت الباب بالمفتاح، ثم أغلقت المصاريع فساد الظلام، وارتميت على سريري.

كنت متعباً حقاً، وما كدت أتمدد حتى التمست أعضائي غريزياً الوضع الملائم للنوم. واستسلمت لجسمي الذي كان أعقل من فكري، فكان يعطي بصورة طبيعية جواباً صامتاً على سؤالي المقلق: ما العمل؟ ولم ألبث طويلاً حتى سقطت في نوم عميق.

نمت نوماً ثقيلاً، من غير أحلام؛ ثم استيقظت فحكمت من الظلام الكامل الذي كان يسود الغرفة أن الوقت كان متأخراً. ونهضت فذهبت أفتح النافذة: كان الليل قد هبط بالفعل، وأضأت النور ونظرت إلى ساعتي: كانت الساعة التاسعة. وكنت أعلم أن موعد العشاء هو في الثامنة، أو الثامنة والنصف على أبعد حد. وبرز من جديد لذهني السؤال: ما العمل؟ ولكني كنت قد ارتحت، فجاء الجواب هذه المرة جريئاً ولا مبالياً: «إنني بعد كل حساب ضيف المقصورة، فليس لي أي عذر في أن أختبئ... وإذن فسأمثلُ على المائدة وليحدث ما يحدث..»، بل لقد كنت أحسني مدفوعاً بروح محاربة ومستعداً لمواجهة مشاجرة مع باتيستا حتى لا يبقى أمامه إلا أن يقذفنا خارجاً، كما كنت قد هدّدت أميلي بذلك. وبسرعة رتّبت مظهري وغادرت غرفتي.

ولكن قاعة الجلوس كانت فارغة، بالرغم من أن المائدة كانت مهيأة في الركن المألوف. غير أنه لم يكن ثمة إلا صحن واحد. وما لبثت الخادمة أن ظهرت وأخبرتني أن باتيستا وأميلي قد خرجا لتناول العشاء في كابري، وأن بوسعي أن ألحق بهما إذا شئت، في مطعم

«بيلافستا». وإلا فبوسعي أن أتناول العشاء في البيت، باعتبار أن الطعام جاهز منذ أكثر من نصف ساعة.

ورأيت أن أميلي وباتيستا كانا، مثلي، قد تساءلا: ما العمل؟ وأنهما أجابا عليه بأبسط طريقة ممكنة، إذ ذهبا وتركاني وحدي سيد الساحة. على أني لم أحس هذه المرة حسداً ولا غضباً ولا خيبة؛ وفكرت ببعض الأسى أنهما كانا قد قاما بالشيء الوحيد الذي يمكن القيام به، ولم يكن بإمكاني إلا أن أقابلهما بالعرفان أنهما جنّباني لقاءً مزعجاً. ثم إنني فهمت أن هذه الخطة في الغياب كانت تهدف إلى إغرائي بالذهاب، وأنهما إذا استمرا في تطبيقها في الأيام التالية فلن يبقى أمامي إلا أن أرحل. ولكن ذلك كان يمتّ إلى مستقبل كان ما يزال غير مؤكد. ولهذا قلت للخادمة إنني سأتناول العشاء في البيت، وإن بوسعها أن تقدمه لي، ثم جلست إلى المائدة.

وأكلت من أطراف شفتيّ، بلا قابلية، فلم أكد آخذ أكثر من قطعة صغيرة من لحم الخنزير الذي كان يملأ الطبق، ونتفة من السمكة الضخمة التي كانت أميلي قد طلبتها من أجل ثلاثة أشخاص. وبعد بضع دقائق، أرجعت الطعام، وقلت للخادمة إني ذاهب لأنام وإني لست بعد بحاجة إليها. ثم خرجت إلى السطيحة.

كانت ثمة بضع كراسي طويلة مجمعة في ركن، فأدنيت إحداها من الحاجز وتمددت عليها تجاه البحر الذي كان الليل قد بدأ يبتلعه.

كنت قد عزمت، وأنا عائد إلى المقصورة بعد محادثتي مع رينغولد، على أن أتعمق في هدوء لفهم كل ما حدث، عندما تتوضح الأمور مع أميلي. وكنت أدرك في هذه اللحظة أني كنت ما أزال أجهل كل شيء عن الأسباب التي من أجلها كفت أميلي عن أن تحبني؛ ولكن لم يخطر ببالي أن الأمور، بعد أن قابلتها، لن تتضح أكثر من

السابق. بل على العكس كنت أقنع نفسي بأن مناقشتنا ستلقي الضوء النسبي، على الأقل، على ما لم يكن حتى ذلك الحين إلا ظلاماً هائلاً. بحيث إنه سيكون بوسعي أن أصيح: «ليس إلا هذا! وأنت لا تريدين أن تحبيني لمثل هذا السبب التافه!».

والحال أنه قد حدث ما لم أكن أتوقع؛ لقد عرفت موقف أميلي ـ أو على الأقل ما كان ممكناً أن أعرفه من موقفها ـ ولم أكن أعرف شيئاً آخر. وكان هناك ما هو أسوأ: كنت أعتقد أن سبب احتقار أميلي يمكن أن يُكتشف بفحص دقيق لعلاقاتنا السابقة؛ ولكنها لم تكن مستعدة للاعتراف بذلك، لإصرارها على احتقاري بلا سبب، نازعة مني كل إمكانية لتبرير نفسي، مانعة نفسها من كل عودة للاحترام والحب.

كنت قد فهمت أخيراً أن شعور الاحتقار قد ولد في نفس أميلي من قبل، قبل أن يكون بإمكان سلوكي أن يقدم لها تبريراً، صحيحاً كان أم زائفاً. كان احتقارها قد نشأ من الصلة الثابتة بين طبيعتينا، خارج أية حجة جوهرية لا تُردّ بالطريقة نفسها التي نتحقق بها من صفاء معدن ثمين عند احتكاكه بحجر التجربة، وبالفعل، فعندما افترضت أن استياءها مني كان نتيجة خطأ في الحكم بالنسبة لسلوكي تجاه باتيستا، لم تقر ولم تحتج، بل ركنت إلى الصمت. والواقع أن أميلي، كما فكرت في ألم، كانت للوهلة الأولى تحكم عليّ بأني جدير بكل شيء، ولم تكن تطلب إلا أن ترى ما يؤكد احتقارها. وبعبارة أخرى، كان موقفها مني يتطلب تقديراً قيمياً، تثميناً لطبعي مستقلاً عن تصرفاتي. واتفق أن هذه التصرفات كانت تبدو مؤكدة لهذا التقييم، ولكن حتى بغياب مثل هذه التصرفات، ما كانت أميلي لتحكم علي حكماً مختلفاً.

كانت غرابة سلوكها تعطيني الدليل على ذلك، لقد كان بإمكانها منذ البدء أن تحدّثني، وتحذّرني، وتنفتح لي لتبدّد الالتباس القاسي الذي كان حبّنا قد سقط فيه. ولكنها لم تفعل ذلك، وأصرّت على عدم إرادتها أن تُخَطّأ، لكي تستطيع المضيّ في احتقاري.

ظللت متمدّداً على الكرسي الطويلة، وفي الاهتياج الذي لا مناص منه والذي نشأ عن هذه الأفكار، نهضت بصورة شبه آلية فذهبت أرتفق الحاجز. ولعلّي كنت أسعى إلى تهدئة نفسي بتأمّل صفاء الليل، ولكني إذ كنت أمنح وجهي الملتهب لأنفاس النسيم الذي كان يبدو وكأنه منبعث من البحر، فكرت فجأة أني لم أكن أستحقّ هذه التهدئة. إن الإنسان الذي يتعرّض للاحتقار لا يستطيع ولا ينبغي أن يجد الطمأنينة ما دام الاستنكار يثقل عليه. إنه عبثاً ما يبتهل، على غرار المذنبين في «المحاكمة الأخيرة»: «غطيني أيتها الجبال، أغرقيني أيتها البحار..»، فإن الاستنكار يتبعه حتى إلى أبعد الأمكنة خفاءً، وروحه ممتلئة به، وهو يحمله معه أينما حلّ. وعدت أتمدّد على الكرسي الطويلة، وأشعلت سيجارة بيد ترتجف. سواءً أكنت أستحق الاحتقار أم لا ـ وقد كنت على يقين بأني لا أستحق هذه الصفة ـ فقد كان يبقى لي على كل حال ذكائي الذي لم تكن أميلي نفسها تماري فيه، والذي كان يشكّل جوهر مزاياي وتبريري. كان بإمكاني أن ألجأ إلى الفكر، مهما كان موضوعه؛ وقد كان واجبي، تجاه أية مشكلة، أن أمارس بشجاعة محاكمتي العقلية. فإذا ضعفت ووهنت فلم أستعمل ذكائي، فلن يبقى لي حقاً إلا الإحساس المزعج بانحطاطي المزعوم.

وعاد فكري يعمل في عناد وبصيرة. ما عساه يكون هذا الجانب القابل للاحتقار من شخصيتي؟ وكانت تعود إلى ذهني بشكل لا مفرّ

منه كلمات رينغولد التي كان يحدّد بها، على غير وعي منه، وضعي تجاه أميلي، بينما كان يعتقد أنه يحدّد وضع يوليسوس تجاه بينيلوب: «يوليسوس الإنسان المتحضّر، وبينيلوب البدائية» إن رينغولد إجمالاً كان، بعد أن وصف الأزمة الكبرى لحياتنا الزوجية، حين فسّر الأوديسة على غير علم منه ذلك التفسير العجيب، كان يمنحني العزاء بأن يقول لي «متحضر»، لا أن يقول «محتَقَر». وهو عزاء مقبول نسبياً. لقد كنت بالإجمال الإنسان المتحضّر الذي يرفض حركة طعنة السكين في موقف ذي طابع بدائي، وتجاه غلطة ضد الشرف؛ الإنسان المتحضّر الذي يفكّر ويقدّر حتى تجاه الأشياء المقدّسة أو المزعوم أنها مقدسة. كنت طبعاً على يقين من أن قصتنا الزوجية كانت تشبه قصة يوليسوس وبينيلوب، كما كان يتصور المخرج، وذلك التفسير الذي كان يصلح في ميدان التاريخ، لم يكن يصلح في ميدان الشعور والوعي، الذي هو ميدان صميمي شخصيّ، خارج الزمان والمكان. إن شيطاننا الداخلي، في هذا الميدان، هو وحده الذي يحكم. ولم يكن بوسع التاريخ أن يبرّرني ويبرّئني إلّا في ميدانه الخاص. ولكن هذا الميدان، بالرغم من أوجه الشبه التي كان يقترحها عليّ، لم يكن ينطبق إطلاقاً على الوضع الذي كنت أصبو إلى أن أعمل فيه وأعيش.

ولكن لماذا إذن كانت أميلي قد كفّت عن حبّي ولماذا كانت تحتقرني؟ وما سبب حاجتها خصوصاً لاحتقاري؟ كنت أتذكّر عبارتها: «لأنك لست رجلاً» واللهجة البسيطة الصادقة التي كانت تطلق بها هذه الفكرة. ربما كانت هذه الكلمات تنطوي على مفتاح موقف أميلي كلّه منّي. لقد كانت تكشف بالفعل، كشفاً سلبياً، الصورة المثالية التي كانت أميلي تكوّنها عن «الرجل الذي هو رجل» وفق عبارتها نفسها، هذا الرجل الذي لم أكنه، وما كان باستطاعتي أن

أكونه. ومن جهة أخرى، كانت هذه الاختصار الغامض الموجز إلى هذا الحدّ يوحي بأن مثل هذا المثال لم يكن لديها ثمرة تجربة عاقلة للقيم الإنسانية، بل كان ثمرة مواضعات الوسط الذي كان تنتمي إليه. وبالنسبة لهذا الوسط، كان باتيستا، بقوته الحيوانية ونفوذ نجاحه، يمثل الرجل الذي هو رجل ولقد سبق لأميلي نفسها أن عبّرت لي عن هذا بالنظرات المعجبة تقريباً التي كانت تسربل بها المنتج فيما كان يتكلّم، مساء يوم وصولنا؛ وكذلك بهزيمتها تجاه رغبات باتيستا، حتى ولو كان السبب الأول لهذه الهزيمة الغضب والحزن.

وبالإجمال، كانت أميلي تحتقرني وتحرص على احتقاري لأنها، بالرغم من استقامتها وبساطتها، أو على الأصحّ بسببهما، كانت منجذبة بأفكار عالم باتيستا وأمثاله. والحال أن إحدى هذه الأفكار كانت تخصّ تبعية الرجل الفقير الاضطرارية تجاه الرجل الغني، أي استحالة أن يكون الفقير «رجلاً». ولست بالواثق من أن أميلي كانت ترتاب حقاً في أني شجّعت رغائب باتيستا، بداعي المصلحة، ولكني كنت واثقاً مما كانت تفكّر به آنذاك: «إن ريتشارد تابع لباتيستا لأنه مأجور منه؛ وهو يعتمد عليه ليكسب أعمالاً أخرى، والحال أن باتيستا يغازلني، وإذن، فإن ريتشارد يوحي إليّ بأن أصبح عشيقته....».

وأدهشني أني لم أفكر بهذا من قبل. فكيف تأتّى لي أن أحدّد بذلك التحديد المتبصّر الطرق التي كان باتيستا ورينغولد يواجهان بها الحياة (انطلاقاً من تفسيراتهما للأوديسة) ولم أدرك أن أميلي قد فعلت مثلهما، إذ صنعت لنفسها صورةً عني مختلفة عن الحقيقة كل هذا الاختلاف! كان الفرق الوحيد هو أن المخرج والمنتج كانا يفسّران وجهي يوليسوس وبينيلوب، الشخصين الخياليين، في حين أن أميلي كانت تطبّق المواضعات التي كانت تخضع لها على كائنين حيّين: هي

وأنا. هكذا تكون قد نشأت عندها، من مزيج من الاستقامة الخلقية والابتذال اللاواعي، فكرةُ أني قد أردت أن أدفعها بين ذراعي باتيستا، وهي فكرة غير مقبولة، ولكني لم أبرهن على أني لم أستنكرها.

وقلت لنفسي: «لكي نواجه جميع معطيات المسألة، لنتصوّر أنّ على أميلي أن تختار بين التفسيرات الثلاثة للأوديسة: تفسير باتيستا، وتفسير رينغولد، وتفسيري. إنها تستطيع بالتأكيد أن تقرّ الاعتبارات التجارية التي تدعو، في نظرية باتيستا، إلى «أوديسة» مسرحية. بل هي تستطيع أن توافق على مفاهيم رينغولد المحدودة والبسيكولوجية؛ ولكنها ليست بالتأكيد على مستوى يرفعها إلى حدود تفسيري، وهو أقرب التفسيرات إلى هوميروس ودانتي، بالرغم من حسّها السليم واستقامتها. وليس مردّ ذلك فقط إلى الجهل، بل لأنها بدلاً من أن تعيش في عالم مثالي، تكتفي بالعالم المادي لأمثال رينغولد وباتيستا».

على هذا النحو إذن كنت قد أحطت بالموضوع. لقد كانت أميلي، في الوقت نفسه، امرأة أحلامي، والمرأة التي كانت تدينني وتحتقرني على أساس معطيات فكرة بائسة: بينيلوب التي كانت مخلصة عشرة أعوام لزوجها الغائب، والضاربة على الآلة الكاتبة التي كانت ترى قابلية الشراء حيث لم تكن. ولكي أستردّ الأميلي التي كنت أحبّها وأن أنجح في أن تحكم عليّ حكماً عادلاً، يجب عليّ أن أنتزعها من وسطها، وأن أُدخلها في عالم بعيد من التعقيدات بعدها هي، حيث لا يُحسب للمال حساب، وحيث يحتفظ الكلام بمعناه الكامل المستقيم، عالمٍ كان بإمكاني أن أصبو إليه، ولكنه لم يكن موجوداً، كما كان رينغولدٌ ينبّهني.

ومع ذلك كان عليّ أن أستمرّ أعيش وأعمل في عالم رينغولد وباتيستا وأضرابهما. فما الذي أنا فاعله؟ كان الأمر الأول بالطبع هو أن أتحرّر من عقدة النقص هذه المقلقة الناشئة عن ظنٍّ لامعقول بشخصية قابلة للاحتقار وراثياً. لأن ذلك هو ما كان بالفعل المعنى الخفيّ لسلوك أميلي: كانت تنسب إليّ حطّة في بُنيتي تقريباً، لا تُعزى إلى أعمالي، بل إلى طبعي. والحال أني كنت واثقاً من أنه لم يكن ثمة من هو قابل للاحتقار بصورة طبيعية كاملة، ولكن عليّ، لأتحرّر من عقدة نقصي، أن أقنع أولاً أميلي.

وتذكّرت صورة يوليسوس الثلاثية التي كان سيناريو الأوديسة يوحيها لي: صورة باتيستا، وصورة رينغولد، وصورتي وهي صورة هوميروس تقريباً. وكانت هذه الصورة ترسم أمام عينيّ ثلاث طرق للحياة. فلماذا كانت تصوّراتنا لشخصية يوليسوس مختلفة إلى هذا الحدّ؟ لقد كانت الصورة التي يكوّنها باتيستا سطحية، مبتذلة ولا عقلانية، وكانت تتلاءم مع حياته، ومع مثاله، أو بالأحرى مع مصالحه الخاصة. أما صورة رينغولد الأكثر قابلية للتحقق، ولكنها محدودة، وعادية، فكانت تنسجم مع نظرية المخرج الأخلاقية والفنية. وأما صورتي، الأكثر سمواً وطبعيّة، والأوفر شاعرية والأكثر حقيقة، فقد كانت تنبثق من صبوتي المخلصة، على عجزها دون ريب، إلى حياة خالية من التسويات المالية يحلّ المثل الأعلى فيها محل النظريات الفيزيولوجية والمادية. وقد كان مما يعزّيني حقاً أن تكون صورتي هي أفضل الصور. وكان يبقى عليّ أن أتطابق مع هذه الصورة التي لم أستطع أن أفرضها للسيناريو والتي سألقى مشقّة كبيرة لجعلها تنتصر في الحياة. وكانت تلك الطريقة الوحيدة لإقناع أميلي واسترداد احترامها وحبّها. ولكن كيف لي ذلك؟ إنني لم أكن أجد وسيلة أخرى

غير أن أحبّها أكثر من السابق، وأن أثبت لها بلا انقطاع نقاوة حبّي وتجرّده.

وكان ينبغي في تلك اللحظة ألّا تشعر خصوصاً بأنها مقسورة، مُكرهة. وسيكون أفضل حلّ أن أبقى حتى اليوم التالي، ثم أسافر بباخرة بعد الظهر من غير أن أراها ثانية ولا أن أحدّثها. ومن روما سأكتب لها رسالة طويلة أشرح لها فيها ما لم أحسن قوله مواجهةً.

وإذ بلغت هذا الحدّ من أفكاري، سمعت ضجة أصوات هادئة كانت تبدو صادرة من الممرّ القائم تحت السطيحة، فعرفت صوتي أميلي وباتيستا. وسارعت أدخل غرفتي وأغلق دوني الباب. ولكني لم أكن أحسّ بالنعاس، وكان يبدو لي أني سأتألم أكثر مما ينبغي في تلك القاعة الخانقة وأنا أشعر بحضور الآخرين غير بعيد عني. وكنت قد جلبت من روما منوّماً شديد الفعالية، لأني كنت أعاني الأرق منذ حين، فتناولت منه ضعف الكميّة المعتادة، وارتميت وأنا في ثيابي على السرير، وقلبي طافح بالغضب. ولا بدّ أني نمت على الفور تقريباً، لأني لا أذكر أني سمعت صوتي أميلي وباتيستا أكثر من بضع دقائق.

الفَصْل الثاني والعِشرون

استيقظت متأخراً، فقد كانت أشعة الشمس تنفذ من خلال الشباك، وأصغيت لحظة إلى الصمت العميق المختلف اختلافاً كبيراً عن صمت الأمس الذي كان يبدو، بالرغم من كلّيته، ممزَّقاً بصدى جميع الأصوات العابرة. وفيما كنت متمدداً على السرير، مرهفاً أذني نحو الصمت البكر، حسبتني أكتشف أن شيئاً ما كان ينقصه. لا تلك الأصداء المألوفة التي تبدو وكأنها تؤكد الصمت نفسه وتجعله أعمق (كالمحرك الكهربائي الذي يضخ الماء من الصهريج، أو المكنسة الكهربائية التي تمررها الخادمة على البلاط...) بل حضورٌ ما. إن ذلك الصمت لم يكن ليعيش، بالرغم من امتلائه؛ فكأنّ شيئاً ما قد انتُزع منه! إنه صمت استسلام.

وما كادت هذه الكلمة التي كنت أبحث عنها تعبر ذهني حتى قفزت من السرير وركضت إلى الباب المتصل بغرفة أميلي. وإذ فتحته، كان أول شيء لفت نظري رسالة موضوعة على الوسادة، في وسط السرير الكبير الخالي. وكانت موجزة:

«عزيزي رياشر: ما دمت لا تريد الذهاب، فأنا التي أذهب، ولو كنت وحدي، لربما لم أوت الشجاعة للقيام بذلك، ولهذا أنتهز فرصة ذهاب باتيستا. والحق أني سأخشى أن أبقى وحدي، ويبدو لي أن رفقته مفضّلة لديّ بعد كل حساب، على الوحدة. ولكني حين أبلغ

روما، سأتركه يذهب لشأنه، وأمضي لأعيش عيشتي. بيد أنك ينبغي أن لا تدهش إذا علمتَ أني أصبحت عشيقته: فلست من خشب، وهذا سيعني خصوصاً أن الشجاعة قد خانتني.. وداعاً ـ أميلي».

حين فرغت من قراءة هذه الأسطر، جلست على السرير، والرسالة في يدي، وعيناي تائهتان في الفراغ. وكنت ألمح عبر النافذة الكبيرة المفتوحة أشجار صنوبر، وألمح عبر جذوعها الجدار الصخري. ثم طاف بصري بالغرفة: كان كل شيء فيها يُشعر بالفوضى، فوضى غياب: فلا ملابس ولا أحذية ولا حاجات زينة... بل أدراج فاغرة فارغة، وخزانة مفتوحة المصاريع على مشاجب عارية، وليس من شيء على المقاعد. وكنت قد فكرت كثيراً، منذ حين، أنه يمكن لأميلي أن تتركني، وكنت أفكر بذلك كما أفكر بكارثة ممكنة الوقوع؛ أما الآن، فإني في صميم الكارثة. وكان ألمٌ أصمّ يصعد فيّ، وكأنه صادرٌ من أعماقي؛ كما يمكن لشجرة منتزعة من جذورها أن تُحسّ الوجع في الجذور التي كانت تشدها إلى الأرض. والحقيقة أني كنت منتزعاً من جذوري دفعة واحدة، وكانت هذه الجذور التي غذّتها أميلي تحبّها كأنها الأرض، كانت تشتاق إليها الآن، وكانت على وشك أن تجفّ لنقص الغذاء، وقد بدأت حقاً أحسّها تذبل، وكنت أعاني من ذلك في صمت.

وعدت أخيراً إلى غرفتي. كنت أحستني في دوار، وكأن ضربة قاصمة قد نزلت بي. وفيما كنت أراقب ألمي الهاجع، من غير رغبة مني في الإلحاح عليه خشية إيقاظه، تناولت آلياً ثوب السباحة، وخرجت من المقصورة فاجتزت الممر الذي يستدير حول الجزيرة، وبلغت ساحة كابري. وهناك اشتريت جريدة، وجلست في مقهى، وبينما كان يبدو لي مستحيلاً أن أفكر بشيء آخر غير شقائي، قرأت

الأخبار منذ السطر الأول حتى السطر الأخير. كنت كمن لا يُحسّ شيئاً، أشبه بالذبابة التي نزع طفل قاسٍ رأسها، فظلت بالرغم من ذلك تتنزّه بضع لحظات وتنظف أقدامها قبل أن تنقضّ فتموت. وأخيراً آذن الظهر، فملأت ساعة البرج الساحة بضجيج دقاتها الاثنتي عشرة. وكان أوتبيس يهمّ بالانطلاق باتجاه شاطئ بيكولا مارينا، فصعدت إليه.

وبعد بضع دقائق كنت أهبط إلى الساحة التي كانت تغمرها الشمس، وكانت تقف فيها سيارات كان سائقوها جالسين في حلقة، يثرثرون هادئين، وكانت تنبعث من الساحة رائحة بول حادّة. وبخطوة خفيفة، هبطت السلم المؤدي إلى الحمامات، وكنت أرى من الأعلى الممر الضيق ذا الحصى الأبيض، والبحر الأزرق الممتد تحت سماء لا غيوم فيها. وما كان أشد هدوء هذا البحر الأملس الأطلسي حتى الأفق، والذي كانت تخططه آثار تيارات كبيرة: تحت الأشعة الباهرة! وقلت لنفسي إن من المستحسن أن أستقلّ قارباً، وإن التجذيف سيعود عليّ بالخير، ثم إنني سأكون وحدي، وهذا شيء مستحيل على الشاطئ الذي بدأ يمتلئ بالمتسحمّين. وإذ بلغت الحمام، ناديت خادماً وطلبت إليه أن يُعدّ لي قارباً. ثم ذهبت أنزع ثيابي في إحدى الغرف.

وخرجت أمشي بقدمين عاريتين على السطيحة، خافض العينين، حذراً من أن أجرح قدميّ بنتوءات الشاطئ المملح. وكانت شمس حزيران تضرب رأسي وتحرق ظهري وتشملني بنورها القوي، وهي تملأني بإحساس من السعادة كان يتناقض تناقضاً مرّاً مع ذهول روحي. وهبطت السلم السريع، وعيناي ما تزالان مشدودتين إلى الأرض، وتقدمت نحو حافة الماء، على الحصى المحرق. ولم أرفع

عينيّ إلا حين بلغت الشاطئ تقريباً، وإذ ذاك رأيت... أميلي.

وكان خادم الحمام قد وقف أمام القارب الذي كان قد أنزل نصفه إلى الماء، وكان عجوزاً هزيل القامة قويَّها، ذا جلد مدبوغ، ورأس تغطّيه قبعة من القش غارقة حتى عينيه. وكانت أميلي جالسة في مؤخرة القارب، مرتدية ثوباً من البكيني ذا لون أخضر كنت أعرفه جيداً. كانت مشدودة الساقين، مستندةً على ذراعيها المرتدتين إلى خلف، وكانت قامتها الممشوقة العارية ملتوية قليلاً بالنسبة لكشحيها، فكانت تبدو في وضع نسوي ساحر. وقد بسمت لي أمام انشداهي، ونظرت إليّ بإحداد كما لتقول لي: «نعم، هذه أنا.. لا تقل شيئاً.. ولا يَبدُ عليك الاندهاش!».

وأطعت هذا الأمر الصامت، وأخذت آلياً اليد التي كان الخادم يمدها لي، وقفزت إلى القارب، وأنا صامت، ميّت أكثر مني حيّاً، خافق القلب. وأدخل الخادم المجذافين في حلقتيهما، وقد غمر الماء نصف ساقيه، ودفع القارب نحو البحر.. وجلست فتناولت المجذافين وأخذت أجذّف، خافض الرأس، تحت الشمس المحرقة، في اتجاه الرأس الذي يُغلق الخليج الصغير. وبلغته في عشر دقائق، من غير أن أنبس بكلمة، أو أرفع نظري نحو زوجتي. وأحسست نوعاً من التهيُّب في التحدث إليها، لفرط ما كان الشاطئ وغرفه والمستحمون ظاهرين. كنت بحاجة إلى العزلة فيما حولنا، كما هو الشأن دائماً حين كنت أرغب في التحدث إليها بصورة صميمية.

ولكن فيما كنت أجذف، أحسست دفعة جديدة من المرارة ممزوجة بفرح جديد وغريب، فاخضلّت عيناي بالدموع. وكانت جفوني تحرقني، وكلما كانت دمعة تسيل على خدّي، كنت أحسّ أثرها المحرق. وإذ بلغت الرأس، جذفت تجذيفاً أقوى حتى أقاوم

التيّار الذي كان في ذلك المكان يهيج المياه ويدوّم فيها. وإلى يميني، كانت صخرة صغيرة سوداء تطلّ برأسها المثقوب؛ وإلى يساري، كان يقوم جدار الجُرْف. ودفعت مقدّم القارب في ذلك الممر، وجذّفت بقوة عبر المياه الغالية وعبرت الرأس. وكانت الصخرة التي تغرق في البحر بيضاء من أثر الملح، وكلما كان الموج ينحسر عنها، كانت تلمع في الشمس لحى الأشنة الخضراء أو بعض ثمر البحر الأحمر البرّاق. وإذ جُزت الرأس، ظهرت لي نصف دائرة واسعة من الردوم الصخرية، وكانت تقوم هنا وهناك بين الكتل شواطئ صغيرة يغطيها الحصى الأبيض. كان البحر خالياً، لا قارب فيه، ولا كائن. وكانت مياه الخليج ذات زرقة معتمة، فكأنها كثيفة زيتية، بسبب شدة العمق دون ما شك. وكانت ثمة رؤوس أخرى تتتابع على امتداد البحر المتلألئ، شبيهة بديكور طبيعي غريب.

وأخيراً خفّفت جهدي، ورفعت عينيّ نحو أميلي. وكأنما كانت تنتظر اجتياز الرأس حتى تتكلم، فبسمت لي وسألتني بصوت عذب:

- لماذا تبكي؟
- أبكي فرحاً لرؤيتك.
- أيسرّك هذا إلى هذا الحدّ إذن؟
- نعم... نعم... كنت أحسب أنك قد ذهبت... وها أنت ذي قد بقيت!

فخفضت عينيها وهي تقول:

- كنت قد عزمت على الذهاب.. وهذا الصباح هبطت إلى الميناء مع باتيستا... وفي اللحظة الأخيرة، غيرت رأيي، فبقيت...
- وما الذي فعلته منذ ذلك الحين؟
- لقد تهت عبر الميناء.. وجلست في مقهى.. ثم عدت إلى كابري

بالمصعد الكهربائي وتلفنت للمقصورة، فقيل لي إنك قد خرجت.. وفكرت في أنك ذهبت إلى بيكولا مارينا، فجئت ألحق بك.. وقد نزعت ثيابي وانتظرتك.. وفيما كنت تطلب قارباً، تمدّدت في الشمس.. ولكنك مررت إلى جانبي من غير أن تراني.. وبينما كنت تنزع ثيابك، صعدت إلى القارب.

لزمت الصمت لحظة. وكنا في منتصف الطريق بين الرأس الذي تجاوزناه وشاطئ آخر كان يُغلق الخليج، وفيما وراء ذلك، كانت تقوم «المغارة الخضراء» حيث كنت أرغب في الاستحمام.

وسألتها بصوت منخفض:

- ولماذا لم تذهبي مع باتيستا، خلافاً لقرارك؟ لماذا بقيت؟
- لأني فكرت هذا الصباح، فأدركت أني أخطأت تجاهاك.. وأن كل شيء لم يكن إلا سوء تفاهم...
- وما الذي جعلك تفكرين بهذا؟
- لا أدري... ربما كانت لهجة صوتك مساء أمس..
- والآن، هل اقتنعت حقاً بأني لم أرتكب قط الأعمال الرديئة التي كنت تتهمينني بها؟
- مقتنعة تمام الاقتناع...

وبقي لدي سؤال أخير أطرحه، ربما كان أهم الأسئلة:

- إنك لا تحكمين عليّ بأني أستحق الاحتقار؟ حتى ولو لم أفعل أيّ شيء رديء؟ أقصد: أستحق الاحتقار بطبعي.. قولي، ألا تؤمنين بعد بذلك؟
- إنني لم أؤمن بذلك قط.. كنت أظن أنك أسأت التصرف، ففقدت من جرّاء ذلك احترامي لك.. ولكن ما دام الأمر سوء تفاهم، فلا نتحدث عن ذلك بعدُ، أتريد؟

فلم أضف شيئاً هذه المرة، ولزمتْ هي كذلك الصمت؛ وإذ ذاك أخذت أجذف بقوة جديدة، يضاعفها الفرح الذي كان ينبثق مني، أشبه بشمس مشرقة، فيدفئ روحي المثلوجة. وفي تلك الأثناء كنا قد بلغنا «المغارة الخضراء» فوجهت القارب نحو المدخل المظلم الذي كانت قبّته تستدير فوق مرآة من الماء العميق الزرقة.

وجرؤت على سؤالها:

- هل تحبينني؟

فترددت، ثم قالت بلهجة أسى فاجأتني:

- لقد أحببتك دائماً.. وسأحبك أبداً...

فألححت وقد أخافتني تلك اللهجة:

- لماذا تقولين ذلك بهذه اللهجة الحزينة؟

- لا أدري.. لعلّه كان يكون أروع لو لم يفصلنا أي سوء تفاهم.. لظللنا نتبادل الحب كالسابق.

قلت:

- نعم، ولكن كل شيء قد انتهى منذ الآن.. ولا ينبغي التفكير فيه بعد.. إننا الآن يحبّ أحدنا الآخر إلى الأبد...

فبدت موافقة بحركة من رأسها، ولكن من غير أن ترفع عينيها، ما تزال حزينة بعض الشيء. وتركت المجذافين، وملت عليها أقول:

- لنذهب إلى «المغارة الحمراء»؛ إنها مغارة أصغر وأعمق تقوم خلف هذه.. وفي داخلها يقوم شاطئ صغير، في الظلام.. وسنتبادل هناك الحب، أتريدين؟

فهزّت برأسها إيجاباً، وهي صامتة، وظلت تحدق بي تحديق تواطؤ خفيّ معتكر. ثم أخذت المجاذيف. وبلغنا المغارة التي كانت شبكة متحركة من ألف لون ولون تنعكس تحت قبتها، وفي الداخل،

حيث كانت الأمواج تتدافع فتُصدي القبة بزفير أصمّ، كان الماء مظلماً تقطعه هنا وهناك حسكة صخرة تنبثق كأنها ردف حيوان بحري. وكان الممر الذي يفضي إلى «المغارة الحمراء» ينفتح بين صخرتين كأنه شبّاك مضيء. ولم تكن أميلي تأتي بحركة، بل كانت تنظر إليّ، متابعة بعينيها كل حركة من حركاتي، في نوع من التأمل الشهواني الوديع، كما تفعل امرأة مستعدة لأن تمنح نفسها وهي لا تنتظر إلا إشارة. واستعنت بالمجاذيف على جدران الممر، تحت القبّة المـلّآى بالرواسب الكلسية، فوجهت القارب نحو الرواق المؤدي إلى «المغارة الحمراء». وقلت لأميلي:

- تنبّهي لرأسك...

وبضربة مجذاف واحدة دفعت القارب إلى المياه الهادئة، داخل المغارة.

وتنقسم «المغارة الحمراء» إلى قسمين يفصل بينهما انخفاض في القبّة؛ وفيما وراء ذلك تنعطف المغارة وتوغل حتى الشاطئ الصغير الذي يكوّن داخلها. وكان الظلام شبه تامّ، وكانت العيون بحاجة إلى أن تألفه قبل أن ترى الحصباء الصغيرة الملونة تحت الأرض بذلك النور المحمر الذي أعطى اسمه المغارة. وقلت:

- إن الظلام شديد حقاً، ولكن حين يزول انبهار عيوننا، فسنرى بوضوح.

وكان القارب، مدفوعاً بالسرعة المكتسبة، ينساب في الظلام، تحت القبّة المنخفضة، ولم أر بعدُ شيئاً. وأخيراً سمعت مقدّم القارب يصدم الحافة، داخلاً حصباء الشاطئ وهو يرسل صوتاً مرناً. وتركت المجاذيف آنذاك، ونهضت أمدّ يدي في الظلام، نحو مؤخرة القارب، وأنا أقول:

- أعطيني يدك، فسأساعدك على الهبوط.

فلم أتلقّ جواباً. ورددت، مندهشاً:

- أعطيني يدك، يا أميلي.

وإذ ظلت على صمتها، ملت أكثر من ذي قبل، على حذر، حتى أتحاشى صدمها، ورحت أتلمس موضعها. فلم تعثر يدي إلا على الفراغ. وامتزج الخوف فجأة بذهولي فصحت:

- أميلي... أميلي!

فأجابني صدى مثلوج فقط. وفي تلك الأثناء، كانت عيناي قد اعتادتا الظلام وبدأتا تميزان في الظل الكثيف القارب المتوقف، وشاطئ الحصباء الأسود، والقبّة المضيئة التي كانت قائمة فوق رأسي. ورأيت آنذاك أن القارب كان فارغاً، والشاطئ خالياً، وأنه لم يكن حولي أحد: كنت وحدي.

وظلت عيناي مشدودتين على مؤخرة القارب، وأنا أنادي مذهولاً، بصوت منخفض:

- أميلي... أميلي.. أين أنت؟

وفجأة فهمت: فخرجت من القارب وارتميت على الأرض دافناً وجهي في الحصى المبتلّ ولا بدّ أنه قد أغمي عليّ، ذلك أني ظللت جامداً، محروماً من الإحساس، فترةً بدت لي غيرة قابلة للانتهاء.

ونهضت فيما بعد، فصعدت إلى القارب بصورة آلية، ودفعته إلى خارج المغارة. وحين غادرته، بهرني نور الشمس الحادّ الذي كان البحر يعكسه. ونظرت إلى الساعة في معصمي: كانت الثانية بعد الظهر. وإذن، فقد بقيت في المغارة أكثر من ساعة، وتذكرت أن الظهر هو ساعة الأطياف، فعلمت أني إنما تكلمت وبكيت أمام طيف.

الفَصْل الثالِث والعِشرُون

أنفقت وقتاً طويلاً لاستعادة حواسي؛ وكنت بين الفينة والفينة أكفّ عن التجذيف وأبقى جامداً، والمجاذيف خارج المياه، وعيناي محدّدتان على صفحة البحر الملتهبة. لقد كان من المؤكد أني مررت بهلسنة، كما حدث منذ يومين حين حسبت، تجاه أميلي المتمددة عاريةً تحت الشمس، أني أميل عليها وأقبلها، في حين أني لم أكن قد قمت بأية حركة ولم أقترب منها. وقد كانت الهلسنة هذه المرة أدقّ وأوضح. وكان ما يثبت لي أنها كانت هلسنة، ليس أكثر، ذلك الحوار العجيب الذي حسبت أني عقدته مع طيف أميلي، وهو حوار جعلتُها تقول فيه كل ما كنت أتمنى سماعه. كان كل شيء صادراً عني، وكان كل شيء يعود إليّ. والفرق الوحيد مع ما كان يجري في مثل هذه الظروف، هو أني لم أكتف بتصور تحقيق رغباتي، بل إن قوة العاطفة التي كانت تحركني كانت قد منحتني وهم الواقع. ومن الغريب أن أقول: إنني لم يكن يدهشني أن تستولي عليّ تلك الهلسنة النادرة، بل ربما كانت الوحيدة. وإذ ظللت تحت سيطرتها، كان ذهني يجهد في أن يخلق جميع تفاصيلها واحداً واحداً، متوقفاً في شيء من الشهوة عند التفاصيل التي كانت تروق لي وكانت تعزيني. ولكم كانت جميلة، أميلي، وهي جالسة في مؤخرة القارب، ممتلئة بالحب، بعيدة عن الحقد والكراهية! وما كان أرق كلامها! وكم كان عنيفاً مثيراً ذلك

الشعور الذي كان يحركني حين كنت أعبّر لها عن اشتهائي لها وحين كانت تستجيب لذلك بانحناءة رأسها! كنت ما أزال تحت تأثير هلسنتي، أشبه بإنسان حلم حلماً شهوانياً دقيقاً، وحين أستيقظ راح يتذوق جميع أحاسيسه وينعم بكل مظاهره؛ كنت أصدق ذلك، وكنت سعيداً بأن أعيش مرة أخرى تلك الهلسنة بالذاكرة. وكان سواء لديّ أنه كان وهماً، ما دمت أحس المشاعر نفسها التي كنت سأحسها لو كان واقعاً.

وفيما كنت أستمتع بلذة لا تنفد بتفاصيل ذلك التجلي، خطر لذهني من جديد أن أقارن الساعة التي غادرت فيها بالقارب «بيكولامارينا» مع الساعة التي خرجت فيها من «المغارة الحمراء»؛ ودهشت مرة أخرى أني بقيت ذلك الوقت الطويل هناك، على الشاطئ الواطئ، أكثر من ساعة، إذا كنت أقدّر المسافة من بيكولامارينا إلى المغارة بثلاثة أرباع الساعة. وكنت قد عزوت هذه المدة، كما سبق أن قلت، إلى غيبوبة أو على الأقل إلى نوع من الخدر، من الغيبة الكاملة. ولكني إذ عشت من جديد هلسنتي الكاملة والمنطبقة في الوقت نفسه على أعمق أمانيّ، تساءلت عما إذا لم أكن، بكل بساطة، قد حلمت، وعما إذا لم أكن قد استقللت القارب وحدي، ودلفت وحدي إلى المغارة وتمددت على الشاطئ الصغير حيث استولى علي النوم في آخر الأمر. ولا بدّ أني في أثناء تلك الغيبوبة حلمت بذهابي في القارب مع أميلي التي كانت جالسة في المؤخرة... وحلمت بأني كنت أتحدث إليها، وأنها كانت تجيبني، وأني كنت أعرض عليها القيام بعمل الحب، وأننا كنا نوغل معاً في المغارة. وما بقي بعد ذلك لم يكن كله إلا حلماً: أن أبسط لها يدي لمساعدتها في النزول... وألّا أجدها بعدُ.. وأن أعتقد بأني إنما تنزهت مع طيف على

البحر، وأن أرتمي على الشاطئ وأغيب.. لا بدَّ أن ذلك كله لم يكن إلا حلماً!

كان هذا الافتراض يبدو لي الآن محتمل الوقوع، ولكن ليس أكثر من ذلك. كان ذهني مظلماً، مضللاً بمخيلتي، فلم أكن أنجح في رسم الحد بين الحلم والواقع، ذلك الحد الذي كان لا بدّ أن يتعين في اللحظة التي تمددتُ فيها على الشاطئ الصغير الواطئ. فما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات؟ أتراني قد نمت وحلمت بأن أميلي كانت معي، أميلي الحقيقية بلحمها وعظمها؟ أم أني، في نومي، قد حلمت بأن طيف زوجتي كان يزورني؟ أو لعلني قد حلمت أيضاً بأني نائم وأني كنت أحلم هذا الحلم أو ذاك؟ لقد كانت الحقيقة تبدو متضمنة حلماً يتضمن حقيقة تتضمن حلماً وهلمّ جراً، كما هو الشأن في تلك العلب الصينية التي تتضمن كل منها علبة أصغر... كم طرحت على نفسي، وأنا في البحر، والمجاذيف خارج المياه، السؤال التالي: أتراني قد حلمت، أم أصبت بهلسنة، أم تجلى لي حقاً طيف؟ وانتهيت أخيراً إلى أنه كان مستحيلاً عليّ أن أعرف الحقيقة، وأني على الأرجح لن أعرفها أبداً.

ووصلت أخيراً إلى الحمَّام، فارتديت ثيابي على عجل، وصعدت إلى الساحة وقفزت تواً إلى باص كان متوجهاً نحو كابري. كنت مستعجلاً العودة إلى البيت؛ ومن غير أن أدري السبب، كنت أحس أني سأجد في المقصورة مفتاح هذه الأعاجيب كلها. وكنت مستعجلاً العودة كذلك، لأنه كان عليّ بعدُ أن أتناول الغداء وأرتب حقيبتي قبل أن أذهب في باخرة الساعة السادسة، وكان الوقت ضيقاً. ومن الساحة، دلفت وأنا أكاد أعدو إلى الممر الذي يستدير حول الجزيرة؛ وبعد عشرين دقيقة، كنت في المقصورة.

ولم يُتح لي، وأنا أدخل غرفة الجلوس، أن أتملى جوّ الوحدة والهجر الحزين. فقد كانت تنتظرني برقية موضوعة إلى جانب صحني، على طاولة الطعام. ومن غير أن أفكر بشيء، فتحت المغلف الأصفر، قلقاً بعض الشيء. وفاجأني اسم باتيستا في أسفل البرقية، وأعطاني مدة لحظة الأمل في نبأ طيب. ولكني قرأت البرقية: لقد كان يبلغني، ببضع كلمات، أن أميلي كانت في حالة خطرة، أثر حادث اصطدام مشؤوم.

إنني ألاحظ، وقد بلغت هذه النقطة من قصتي، أن ليس لديّ بعد شيء أضيفه تقريباً. ومن نافلة القول أن أروي كيف سافرت بعد الظهر، وكيف علمت لدى بلوغي نابولي أن أميلي قد ماتت بحادث الاصطدام، قرب «تيراسينا». وقد حدثت الوفاة في ظروف غريبة. فقد قيل لي إن أميلي كانت قد استسلمت للنوم، تحت تأثير الحرارة والتعب، فانحنى رأسها وذقنها على صدرها. وكان باتيستا، على عادته، يقود بسرعة كبيرة، وفجأة برزت عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة، فأوقف باتيستا سيارته إيقافاً عنيفاً، وبعد أن تبادل الشتائم مع سائق العربة، انطلق سريعاً. ولكن كان رأس أميلي يتهادى يميناً وشمالاً، ولم تكن تقول شيئاً. وكان باتيستا قد وجّه إليها الكلام دون أن يحظى بجواب، وقد فاجأت ضربة الفرامل جسمها وهو في حالة استرخاء كامل، وكانت عضلاتها منبسطة كما في النوم. وقد أحدثت الصدمة الناشئة عن توقف السيارة انكسار العمود الفقري لدى زوجتي. وقد ماتت من غير أن تشعر بذلك.

كان الحر خانقاً، ولم يكن الألم يحتمله، ذلك الألم الذي لم يكن، كالفرح، يطيق وجود أي شعور آخر. وقد جرت الجنازة في جو خانق، تحت سماء ملبدة، وهواء ثقيل ورطب. وحين انتهت الشكليات في المساء، أغلقت الباب خلفي ودخلت شقتنا التي

ستكون فارغة بعد الآن ولا مجدية، وأدركت أخيراً أن أميلي قد ماتت وأني لن أراها بعد أبداً.

وكانت جميع نوافذ الشقة مفتوحة على مصاريعها لأجعل من الممكن تسرب تيار خفيف من الهواء، ولكني لم أكن أقل اختناقاً بينما كنت تائهاً من غرفة إلى غرفة، فوق البلاط اللامع، في الظل الشفقي. وكانت نوافذ البيوت المجاورة مضاءة كلها، فكان سكانها الذين يُرون من الخارج رائحين غادين بين الغرف يوحون إليّ بشعور من العصبية، وكان جوّهم الهادئ يصور لي عالماً يحب الناس فيه بعضهم بعضاً من غير سوء تفاهم، ويعيشون في سلام، عالماً كنت أحس أني منفي منه إلى الأبد. وما كنت لأستطيع أن أدخل إليه من جديد إلا بعد أن أكون قد تفاهمت مع أميلي، وأقنعتها، وأحييت من جديد معجزة الحب الذي يقتضي، لكي يوجد، أن يُلهب ليس قلبنا فقط، بل قلب الآخرين. أما الآن، فإن ذلك لم يكن ممكناً لي بعد، وكنت أحسني أُصبح مجنوناً لدى التفكير بأن موت أميلي ربما كان مظهراً نهائياً من مظاهر العداء إزائي.

ولكن الحياة كانت هنا، وكان لا بدّ من قبولها. وقد تناولت حقيبتي من جديد، ولم يكن قد أتيح لي بعد أن أفتحها، وأغلقت الباب وأعطيت مفاتيحه إلى البوابة وأنا أعبّر لها عن رغبتي في بيع البيت لدى عودتي من رحلتي. ثم انطلقت ثانية إلى كابري.

وكان أمل غريب يدفعني للعودة إليها، كما لو أن أميلي يمكن أن تظهر لي ثانية هناك، حيث تجلّت لي، أفضل من أي مكان آخر. وإذ ذاك سأوضّح لها الأمور التي أساءت تعليلها، وسأصارحها مرة أخرى بحبي، وستُظهر لي من جديد أنها تفهمني وتحبني. وكان هذا الأمل جنوناً محضاً، وكنت أدرك ذلك؛ ولكني لم يسبق لي أن حاذيت نوعاً

من البلاهة العاقلة، تقوم في منتصف الطريق بين اشمئزاز الواقع وحنين الهلسنة، كما حاذيته في تلك الأيام.

ومن حسن حظي أن أميلي لم تتجلّ لي مرة أخرى، لا في الحلم ولا في اليقظة. وإذ قارنت الساعة التي تجلت لي فيها مع ساعة موتها، اكتشفت أن هذين الزمنين لم يكونا متطابقين. لقد كانت أميلي ما تزال حية. حين رأيتها جالسة في القارب؛ ولكنها على الأرجح كانت قد ماتت عند غيبوبتي على الشاطئ في قعر «المغارة الحمراء». وهكذا لا يتطابق شيء في الحياة ولا في الممات. ولن أعرف على الإطلاق إن كنت قد رأيت طيفاً، أو كنت لعبة هلسنة أو حلم أو غلطة أخرى. إن الالتباس الذي كان قد سمَّم حياتنا كان قائماً بعد موتها.

وذات يوم راودني الحنين إليها وإلى الأمكنة التي رأيتها فيها للمرة الأخيرة، فاتجهت إلى الشاطئ القائم تحت المقصورة، حيث كنت قد لمحتها في عُريها وتوهمت أنني أقبّلها. وكانت الضفة خالية؛ وفيما كنت أتمشى عبر ركام الصخور، وأتأمل مدى البحر الأزرق الضاحك، تذكرت «الأوديسة» فجأة، وتذكرت يوليسوس وبينيلوب؛ وقلت لنفسي إن أميلي كانت الآن مثلهما، في قلب تلك المسافات البحرية الشاسعة، مصبوبة إلى الأبد في القالب الذي كانت قد تلبّسته في حياتها. وكان يتوقف علي، لا على حلم أو هلسنة، أن أجدها من جديد، وأن أتابع حوارنا الأرضي، على نحوٍ هادئ بعد الآن. ولن يكون تحرري إلا بهذا الثمن، وكذلك لن تتحرر هي من عواطفي فتستطيع آنذاك أن تنحني عليّ كصورة جميلة مؤاسية.

وعزمت على أن أكتب هذه الذكريات، وكلي أمل أن أجدها ثانية في الطمأنينة والسلام.

انتهت

الفهرس

الفصلُ الأول ٥

الفصل الثّاني ١١

الفصل الثّالِث ١٧

الفَصل الرَّابع ٢٧

الفَصل الخامِسْ ٣٩

الفَصْل السَادس ٤٧

الفَصْل السَابع ٦١

الفَصل الثَّامِن ٧٥

الفصل التَّاسِع ١٠١

الفَصْل العَاشر ١١٧

الفَصْل الحَادي عَشَر ١٣١

الفَصْل الثاني عشر ١٤٣

الفَصْل الثَالث عَشَر ١٦٣

الفصَلُ الرَّابع عَشَر ١٧١

الفَصْل الخامِس عَشَر ١٧٩

الفَصل السَّادس عَشَر ١٨٧
الفَصل السَّابع عَشَر ١٩٥
الفَصْل الثَامِن عَشر ٢٠٧
الفَصْل التاسع عَشَر ٢١٧
الفَصْل العِشرُون ٢٢٩
الفَصْل الحَادِي وَالعِشرُون ٢٤٣
الفَصْل الثاني والعِشرون ٢٥٣
الفَصْل الثالِث والعِشرُون ٢٦٣
الفهرس ٢٦٩

هذا الكتاب

أستطيع اليوم أن أؤكد أن علاقتي بزوجتي، خلال العامين الأولين من زواجنا، كانت ممتازة. أعني أن انسجام حواسنا الكامل والعميق طوال هذين العامين، كان مصحوباً بهذا الإظلام، أو بعبارة أفضل، بهذا الصمت للذهن الذي يعلّق، في مثل هذه الظروف، كل نقد، ويلجأ إلى الحب وحده ليحكم على الشخص المحبوب. لقد كانت أميلي تبدو لي بلا نقائص على الإطلاق، وأظن أني كنت أبدو كذلك في نظرها. أو أنني ربما كنت أرى عيوبها وترى عيوبي، ولكن بفضل تحوّل عجيب معزوّ إلى الحب، كانت تلك العيوب تبدو لنا كلينا مغتفرة، بل محبوبة، كما لو أنها بدلاً من أن تكون نقائص، كانت مزايا من نوع خاص.

ISBN 978-9933353407